فوّاز حداد

موزاييك دمشق ٣٩



رواية

الأهالي

* موزاييك ـ دمشق ٣٩
* فواز حداد
* الغلاف للفنان: غسان درديـر
* الطبعة الأولى ٦/ ١٩٩١

* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق ـ هاتف : ٤٢٠٢٩٩ ـ ص.ب ٩٥٠٣ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦
* التوزيع .
قسم التوزيع ـ الأهالي للنشر والتوزيع
دمشق ـ هاتف: ٢١٣٩٦٢ ـ ص.ب: ٩٢٢٣ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦

فوّاز حداد

موزاييك دمشق ٣٩

- ١ -

تباطأت عربة الخيل المسرعة مقتربة من «الدرويشية» وقرقعة حوافر الخيل فوق الأرض المرصوفة بالحجارة تختلط مع نداءات الباعة وقرع جرس ترام «الميدان» المتوجه إلى ساحة الشهداء، على اليمين لاح المقهى والصبيان الأجراء يحملون النراجيل وصواني المشروبات ويمرقون كالسهم بين الزبائن الذين جلسوا على كراسي القش القصيرة المتوزعة فوق الرصيف. عن بعد ظهر جامع «درويش باشا» ترتفع إلى جواره مئذنة جامع «السياس» وعلى الجانبين امتدت الدكاكين المتراصة بواجهاتها الزجاجية ومظلاتها القماشية الملونة، فيما تناثر المشاة مع راكبي الدواب والطنابر يملؤون الطريق، عندما حاذت العربة المدرسة السيبائية، عاجل العربجي الجياد بلسعات كرباجه، جاذبا الرسن بقوة منعطفا بها إلى اليسار، فيما صهلت الخيل منحرفة عن الطريق.

اعتدلت في جلستها ورفعت المنديل عن وجهها، ألقت بنظراتها إلى المحلات التي تأطر رجالها بالحجر والخشب وأعمدة الكهرباء، والباعة الجوالين وهم يجرون وراءهم الحمير ذوات السروج المنتفخة، والقرويين الذين اقتعدوا الأرض وفوقهم قرص الشمس الملتهب، تراجعت مبعدة عن عينيها الأشكال الساخنة التي تسبح في العرق والتعب ممتزجة برائحة الشواء والغراء والجلد المدبوغ. أشارت المرأة السمينة الجالسة بجانبها أن تسدل الغطاء على وجهها،

لكنها لم تعرها اهتماما، فيما تهيأ أمامها سوق «مدحة باشا» بظلامه الباهت كمغارة شقت بين حافة السماء المضاءة بالأزرق والأرض القذرة.

تقـدمت العـربة في تجويفه وسقطت فوقها الرطوبة الريانة والهدوء الرخيم، وظهـر السـوق ممتـداً، مرصـوفـاً بالحجـارة والصمت، مغلفـاً بالتـوتياء، وموشحاً بالظلال، مفارقاً اليقظة وغارقاً في الخدر، قد تكور النعاس عند سقفه المقوس بين ثقـوب الأنـوار المنثـالـة، وهـو يكـاد يهوي ثقيلاً فوق الفراغ المعلق، وعلى أطرافه رسمت بعنـايـة الـدكـاكـين المتجـاورة وقـد كدست في واجهاتها البسط والأقمشة والعباءات والأغباني، وخلفها وجوه أصحابها المتثائبين، ومن الخانات التي أشرعت أبوابها نفر ألق من الضوء المجلي.

كانت العـربـة وهي تخترق صمتـه على مهـل بأزيـز محاور عجلاتها ووقع سنـابـك خيلهـا تذوب داخله والسكـون يبتلع ضوضاءها، متناغمة مع الهمسات الممطـوطـة والعطـاس المكتـوم وخطـا المـارة المـتراخيـة. توقفت العربة عند سوق «البزورية»، التفت العربجي برأسه مشيراً إلى الرصيف الملاصق:

ـ هذا هو الدكان.

وعاد منتصب الجذع يحاول أن يكبح حركة الخيل، علا صوتها بسخرية:

ـ هذا هو؟!

تظاهرت المرأة السمينة أنها لم تسمع ملحوظتها، ولم تفهم سخريتها. قالت:

ـ فلننتظر حتى يظهر صاحب الدكان يا خانم.

رمقت الخانم المكان باستهانة، متأملة بخفة الدكان الخاوية من رجل يتربع فوق الدكة، قلبت شفتها بملل:

ـ لن أنتظر.

التفتت نحـوهـا باستهتـار. أدركت من صمتها الواجف أن ريقها نشف في حلقها، عادت تؤكد بتؤدة كي تغيظها:

ـ دادا خديجة، لن أنتظر، هل تسمعينني؟

أرخت منديلها ودلت قدميها، حاولت دادا خديجة ردها:

ـ ابق يا خانم سأنزل أنا.

كانت قد أصبحت مواجهة الدكان، مشرئبة العنق، متنبهة الحواس، وخفت دادا خديجة وراءها تتلمس الرصيف الضيق بقدميها، فيما عبق الجو بروائح المسك والعنبر، القرفة والزنجبيل، الكمون وجوزة الطيب، وخلاصات الورود البيتية. خليط من شهوات غرف النوم وموائد الطعام والعرائش المزهرة، ينكأ النزوات مجتمعة، يفوح خلف غبش المنديل الأسود الشفاف في الجو المستكين، والأصوات البعيدة الخائرة المترددة من أطراف سوق البزورية تسربل عمق المكان الفارغ بالتخمينات وتضيق المسافة بينهما.

ضغطت دادا خديجة على رسغها تبعدها، رفعت العارضة الخشبية، وخطت داخل الدكان، والخانم تجيل بصرها باحتقار ووقاحة على الواجهة الزجاجية التي لبد عليها الغبار السميك واستندت إليها أكياس الخيش الممتلئة بالأعشاب وأزرار الورود الجافة، ومن ورائهم الدكة المتاكلة، وفي صدر الدكان صفت «القطرميزات» البلّورية فوق الرفوف، وتحتها علب السفوف، وفي المقدمة كان الميزان المعدني بلونه الأصفر الوهاج وسط الحديقة المشعثة دخيلاً على الألوان الجافة الكابية والروائح الفواحة.

لم تتنبه لما جرى بين دادا خديجة والظل الذي تحرك في الداخل، ولم تسمع الكلمات التي صدمها الهواء الراكد وبعثرها، وانما رأت دادا خديجة تتراجع مفسحة لها المدخل الضيق، اقتربت وصوبت نظراتها بحدة إلى ما كان يتحرك، ورأته يتقدم مشطوراً، قد بانت منه كتفه اليسرى ويده داخل الكم العريض مرتخية حول خصره المحاط بالزنار العجمي وشرواله المبقع بالتراب قد علق عليه بغو الزهر والشوك، فيما أسدلت العتمة أستارها على رأسه وكتفه اليمنى.

أحست أن الرجل الذي غاب وجهه عن جسده، يتعمد أن يبدو غامضاً وسمجاً، التفتت إلى دادا خديجة حانقة، وأشارت إليه متقززة:

ـ قولي له أن يظهر.

انـدفعت دادا خديجـة وحـاولت الدخول، لكن الخانم المأخوذة التي سدت الفرجة لم تفسح لها معبراً، فيما ظهر الشطر الآخر من الرجل الذي كان يتقدم وئيداً.

توقف في منتصف الـدكـان وتكلم بصـوت منخفض، لم تسمـع ما قالـه، كانت تتأمل عينيه الغائرتين النفاذتين في وجهه الشاحب الذي تكسوه لحية قصيرة، وقـد اعتمـر عمامـة بيضـاء صغـيرة، بدا بقامته الضئيلة ووجهه ذي الجبين الضيق والشفتين الرقيقتين، هشاً وغريباً، لا ينتمي إلى المكان الذي وقف فيه.

رفع عينيه الصغيرتين متسائلاً ينتظر إجابتها، ثبت نظراته عليها، فيما كانت عيناها تحومان على هيئته، غير مطمئنة، تنبش صوراً لا يتجانس داخلها، وتنفي قدرات خفيـة نسبت له، توفـزت، ما الـذي تسألـه إياه؟ وقد خاب رجاؤ ها فيه، كادت أن تصرخ به كي يظهر ثانية، لكنها تراجعت غاضبة من شرودها وترددها، وهتفت لدادا خديجة:

- قولي له إننا أخطأنا الدكان.

انبرت تهدئها:

- انتظري يا خانم.

وسمعته يعقب بوضوح وبصوت عذب:

- ما الذي تريده الخانم؟

ارتدت دادا خديجة إليه غاضبة:

- كيف ستشرح الخانم غرضها داخل هذا المكان الضيق وهذه الفوضى؟!

استـدارت الخـانم تتفحص الرجل الذي نبس الكلام أخيراً، وبدا مفهوماً في تلك اللحظة وهو يصغي دون مبالاة، وخاطبت دادا خديجة:

- أعطه العنوان وقولي له أن يأتي عصر الغد.

انسحبت دون أن تنتظـر إجـابـة معتلية العربة، وعندما لحقتها دادا خديجة وجلست إلى جانبها، قالت لها:

- سوف يأتي.

خيمت على «الصاليا» رخامة سكون ما بعد العصر، الظلال الداكنة تتسلل من النوافذ العالية للحجرة، وتخطر مهتزة برفق تتقاسم الزخارف النافرة للسقف الذي تدلت منه ثريا النجف ذات الأضواء العشرة، والأنوار الباهتة تتلامح من خلف الستائر الرقيقة، وبين الآونة والأخرى يسمع حسيس أوراق الأشجار عبر زجاج النوافذ.

كان ثقل الموزاييك المتوهج والرخام المجلي ولمعان المرآة المصقولة، يشتت حواس العطار، جلس على طرف الكنبة مبتعداً عن طراوة التكايا، حانياً ظهره وعاقداً كفيه، وعند قدميه ركن كيسه المنتفخ وإلى جانبه صبي مطاطىء الرأس، كان المكان وهو يتسع وتترامى اشياؤه، يغلق بأوراق الورد المتلوية على الجدران، ويزدحم بأواني الصيني والفازات وصحون القيشاني والصواني الفضية التي انتصبت في زوايا الغرفة وعلى الرفوف المرتفعة، وفي خزائن الجدران الزجاجية، وتجمعت على الطاولة الكبيرة ذات القوائم المتحفزة، الفناجين المطلية بالذهب مصوراً عليها المرأة المكدسة بالثياب، ماري انطوانيت تحف بها وصيفاتها، ومن النوافذ المنخفضة بدت عرائش «المجنونة» و«الياسمين العراتلي» تسد المنافذ بالألوان.

استندت الخانم الى ظهر الكنبة تطيل الصمت وتنوع التخمينات، ودادا خديجة تنتظر اشارتها، رفع العطار رأسه وحدجهما ببصره، ثم قال متوجهاً للخانم:

ـ أنت في جنة يا خانم، الله أعطاك، ما الذي أضعته حتى تبحثي عنه، اذا كان مالاً فلا تطلبي المزيد.

بادرت دادا خديجة وقد كسر الصمت بهذه الرعونة:

ـ الخانم لا تسألك البحث عن طميرة.

ـ وما الذي تريده؟!

ـ رجل ضاعت أخباره.

ـ زوج؟

لم تحر دادا خديجة جواباً، أردف بصوت خافت:

ـ اذا لم ينفع الغنى والصبا فلن تنجح الرقى .
ـ هو لا يدري .
ـ اذا كان يعرفها فلن يتوه عنها .
ـ مضى زمن طويل .
ـ للقلوب أسرارها ورسلها .

تدخلت الخانم حانقة من التعليلات المقتضبة :

ـ أريد أن أعرف أهو حي أم ميت؟ واذا كان حياً فأين هي أرضه؟

حنى رأسه وقال على مضض :

ـ أعطني اسمه .
ـ لا أعرف اسماً له أو عنوان .

رفع رأسه متحيراً :

ـ كيف أبحث عنه؟!
ـ قالوا انك تستطيع .
ـ الأمر فوق طاقتي .

خاطبه صوتها قوياً ، آمراً ورصيناً :

ـ اطلب ما تريد .

لكن عرضها لم ينتشله من حيرته ، هتف بضيق :

ـ ليس المال يا خانم ، ما تطلبينه يكاد يكون مستحيلاً ، كيف أتتبعه وأهتدي اليه دونها دليل؟! أريد اسماء وصفات ، أبراجاً وأحوالاً ، شعرة منه أو أثراً له .

داهمتها الأسئلة وطاحت بها الأحاجي ، اذا تركت العطار يعلن عجزه وينسحب فلن يموت الرجل في داخلها ولن تستسلم .

ـ حاول يا عطار .

أمسك بكتفي الصبي وأخذ يهزه :

ـ انظري هل يستطيع هذا الصبي أن يحتمل وجود سبعة من ملوك الجن يستفسر منهم عن مجرد رجل لا تعينه علامة؟!

أعاد بصره إليهما وأجاب؛
ـ قد يذهبون بعقله.
ـ استعن برجل.
ـ لا يكون الوسيط إلا ولداً أو بنتاً تحت سن البلوغ.
كانت الخانم قد فرغ صبرها:
ـ علمني وأنا أتدبر أمري.
ـ لا أستطيع، لقد أخذت علينا العهود والمواثيق أن لا نرويه أو نكتبه إلا ناقصاً، هذه أسرار ومغاليق لا يعبث بها ولا تنجح أعمار مديدة في تجاوز أديمها.
تعالى صوتها أنيساً، ساخراً:
ـ إلى من ألجأ... إلى المصادفة؟!
اندفعت دادا خديجة ترجوه:
ـ ساعدها، اذا أنت لم تستطع فمن يقدر؟!
حزم أمره والتفت إلى الخانم:
ـ هل أشفيك منه؟
أتى صوتها قاطعاً، حاداً، ودونما انتظار:
ـ لا.
ران السكون، ثم همست بصوت شابته رنة من رجاء:
ـ لم لا تجرب؟
تداعى ـ وقد بغته الاستعطاف ـ دون حراك محدقاً ببصره إلى الأرض، في تلك البرهات الفاصلة والصاخبة حبست دادا خديجة أنفاسها، وعندما انحنى بجذعه نحو الكيس وأخذ يفتحه ويخرج محتوياته، تنفست الصعداء.
أجلس الصبي على الأرض، أمسك بريشة القصب وأخذ يكتب بماء الورد والزعفران فوق ورقة صغيرة، طواها ودسها في كف الصبي اليمنى، تناول أخرى وطلب من الخانم أن تكتب عليها اسمها واسم أمها، ثم أخذ يفرد صرر البخور الصغيرة يوزعها على المجامر، يشعلها ويودعها أركان «الصاليا» الأربعة.

أخـرج عصـابـة بيضاء، أحاط بها جبين الصبي ثم وضع طاسة من النحاس عند قدميـه وأسقـط فيهـا نقطة حبر من ريشة القصب، أقعى إلى يساره وجلله بغطاء أسود، ثم تناول الورقة من الخانم وقال لها:

ـ يا خانم، ايـاك أن تسخـري مما يجري، نحن نستعـين على الجن بكـلام الله، سوف تكونين معنا بروحك وجسدك، ببصرك وبصيرتك، يممي نظرك نحو الوراء ولا تفكري إلا برجلك، غيبي عنا واحضري هناك في الأمكنة التي التقيت بها معه، في الأزمنة المسحوبة وهو في داخلها، اخرجي مما أنت فيه وعودي إلى ما كنت فيـه، بين الصـور الـراحلة والأحـداث الآفلة، غادري المحتـوم واطـرقي المختوم، ترجلي من «الآن» وانطلقي إلى ما كان، إلى ما كان.

وضع يده على رأس الصبي، تعوذ وبسمل ثم جهر:

ـ «وكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد».

أخذ نفساً عميقاً وأغمض عينيه، واندفع يتلو من ظلام الأجفان ومن خلل الأهـداب الـرامشـة، مجمجـماً يمضـغ الحـروف ويلوكها دون طلاوة أو رقة، يعلو بصوته ويخفض، يسهب ويكثر، يخلط ويفرط.

هاجت الـروائـح وتضوع أريج الحصالبان والمحلب، الجاوي والسندرس، نفـح الطيب يتـوهـج، وصوته يتصاعد آمراً وراجياً، قلقاً وهامساً، متلوناً بالأبخرة ومنجـدلاً مع ريـاهـا، يتوسط الفراغ المسكون، ويتوضع في تعاشيق الورد المتفتح على الحيطان، غمامات من اللغو، تنبسط عارية من الأحرف وخالية من المعنى، تتسلق الجـدران وتتـماسـك مع الالتـواءات المنمنمـة والتعـاريج اللينة للأقواس، تنسـاب في العـالي، هالات من الكلمات المطمـوسـة والأسـماء السـريـة والنسائم الفاغمة، تنساح على الستائر والموزاييك والطلاء الزهري، تضيء الأزمنة المطوية وتنير المسافات المتراجعة.

«من بعيـد بدت أسطحـة البيـوت المتجاورة والمتلاصقة، غارقة في الغروب الـلامـع، والمـآذن الثـلاث المحيطـة بقبـة الجـامـع الأموي، تنبع بحنان من الجو الـراكـد الأليف في الصمت المسحـور.. فجأة، تعـالى ضجيج الحمير البيض ذات

السروج الفاقعة، وصياح الصبيان الأجراء بملابسهم الرثة وهم يتقافزون بأعضائهم الناحلة وأقدامهم الحافية ذات الأعقاب الوسخة، وقرقعة العربات الصغيرة التي تجرها الخيول الهزيلة المنهكة.

تعكر رواء المنظر القصي وقد تهيأ كي يختبىء في تلافيف الظلام، متأرجحاً بين الأصوات الناشزة والدواب المرهقة، ومن بين جذوع اشجار الحور الخضراء، تدفقت كتل النساء الملتحفة بالسواد وأخذت تنزلق من الصالحية وهي تتقارب وتتباعد، وأصواتهن ترق وتتبعثر ممتزجة مع وقع أقدامهن، وهي تصطدم بالحصى والأحجار، ثم تهمد لتندلع همساتهن كهسيس النار، بينما كانت جماعات الرجال يتقدمون على مهل بطرابيشهم الحمراء».

ـ ما الذي تراه؟

ـ الطاسة تموج.

ـ والآن؟

ـ أصبحت مجلوة كالمرآة.

ـ ما الذي تشاهده؟

ـ ساحة كبيرة تعج بصغار الجن.

ـ قل لهم أن يرشوا الساحة ويكنسوها

ـ رشوا الساحة وكنسوها.

ـ صفوا الكراسي.

ـ صفوها.

ـ اعزم ملوك الجن السبعة.

ـ عزمتهم.

ـ هل وصلوا؟

ـ وصلوا.

ـ استأذنهم.

ـ اذنوا لك.

- ست الشام بنت نديمة تسألكم البحث عن رجل.
أعقب السؤال همهمة وشغب:
- أي رجل؟! ما اسمه؟
- ست الشام أريهم رجلك.

«كان الرجل الصغير بطربوشه الأحمر وبذلته الفرنجية، قد انفصل عن جماعة الرجال وتأخر عنهم، منحنياً ينفض غبار السيران عن ساقي بنطاله وحذائه، أدار رأسه.. وتبدى وجهه ناعماً أملس وبداخله العينان الشهلاوان تنظران إليها بانشداه، تنبهت وقد تسمرت بالقرب منه إلى أن الغطاء قد سقط عن وجهها وظهرت جديلتاها على كتفيها، عجلت تلحق بالنساء، وعندما مرت من أمامه أعادت دون مبالاة الغطاء الى رأسها، مطلقة ضحكة خافتة وناعمة، جاوزته، وقبل أن تنضم اليهن التفتت خلفها، كان ما يزال مقرفصاً وعيناه معلقتان بها».

- هذا ولد في الخامسة عشرة من عمره لم ينبت شارباه بعد.
- ست الشام أريهم رجلك.

«تعسرت المشاهدة، والشوق المبهم يعرج بها من انتظار طويل إلى انتظار مماثل، تركب الترام وتجلس على المقعد المجاور للشباك المكشوف، تدير رأسها إلى الأرصفة والمحلات، ترصد المارة والعربات، علّها تلمحه، يغيب في الأزقة الضيقة منقطعاً عن السيارين على ضفاف الشاذروان ومصاطب بردى وحديقة الصوفانية، تفصل بينهما الأبواب المغلقة والأخصاص والجدران الطينية العالية، يكبر... وتكبر معه».

- ست الشام.. أين رجلك؟!

«خرجت من جنينة النعنع. وحولها عماتها وخالاتها يتضاحكن، شردت نظرة منها ورأته على بعد أمتار، واقفاً يبحث عنها، شاباً وسيماً، طرّ شارباه واخشوشنت ملامحه ورقت نظراته، رنت اليه في سكون، شحب لونه، وعندما

كادت تلك السـويعـات الخـارقة تفلت منها، رفعت المنديل عن وجهها وفي لحظة خاطفة التقت العيون عارية من الكحل وممسوسة بالفرح، تسأل وتعتب».

ـ هذا شاب في السنة النهائية في مكتب عنبر.

«وقفت في نور عتبة سوق الحميدية ومدت بصرها في عتمته اللاغبة، الناس تعـج داخله، وضجيـج مدوّم من الأصـوات يتصـاعد إلى الأعلى، وعلى امتداد سقفـه، تلاحقت النـوافـذ والشـرفـات الصغيرة المغلقة، تعلوها كوى من السماء البعيدة، امسكت بيد دادا خديجـة وعينـاها تجوسان بين البشر، أحست أنه هنا في مكان ما بين الخلق المتدافعين في جنباته والمتزاحمين عند الواجهات وفوق الأرصفة الضيقـة، متـوار في جعجعـة البيع والشراء، انكمشت تتلهى بالنظر إلى الأقمشة والشـالات المقصبـة و«الأرواب» المعلقـة، وأدوات الـزينة وتحف النحاس، عندما رأتـه يلتمـع على الـزجـاج ببذلته الغامقة وياقته المنشاة وطربوشه، أمعنت النظر، كان يحدق فيها، يتناجى الخيالان، وتقرع رأسها ضربات قوية، صاخبة وعميقة، ولا تدري هل هي نبضـات قلبهـا أم أصوات المدقات الخشبية التي تدق البوظة في محل بكداش».

ـ لقد أصبح رجلاً.

«غاب في سوق الحميدية دون أن يلحقها، ونظراته الطويلة والحزينة تعلن الوداع اثر لقاءات لم تتم».

ـ انه يتهيأ للسفر.

«خـرج من الـزمـان المتقطـع ودخـل في الـزمان المتصل، واحتل مساحات الأحلام بتراكيب لا تنضب ولقاءات لا تنتهي».

ـ عودي إلينا يا خانم، لقد أمسكوا برجلك.

هزت دادا خديجة مرفق الخانم هزة خفيفة، فتحت عينيها وهتفت من طوق النعس ملهوفة:

ـ أين هو؟

ـ راكب البحر.

ـ إلى أين؟
ـ يقصد باريز.
ـ وماذا يفعل هناك؟
ـ . . لبث خمس سنوات، قضاها في الدراسة والفرجة واللهو.
ـ اللهو؟
ـ انتظري، لقد عاد إلى الشام.
ـ هل هو في دمشق؟!
ـ نعم.
ـ ما الذي يفعله؟
ـ . . .
ـ ما الذي يفعله؟
ـ انهم يتلكؤون.
ـ حدث له حادث؟
ـ لا تتعجلي، لهم أغراضهم.
أتاها صوت الصبي خافتاً:
ـ تزوج
وأعقبه صوت العطار مواسياً:
ـ هل نتوقف يا خانم؟
ـ تابع.
ـ امرأته حامل في شهرها الأخير.
تبع ذلك صمت شوشته الهمسات الصادرة من تحت الغطاء، قطعتها الخانم:
ـ اكمل يا عطار.
ـ ألا يكفي؟!
ـ ما زال هناك الكثير.

ـ أنت مرهقة يا خانم والصبي قد تعب.
لكنها لم تكن تعقل.
ـ أين أجده.
ـ أين تجدينه؟ أين تجدينه؟ . . . تائه في الشام.
ـ اسألهم، هل يذكر الفتاة التي رآها مصادفة ثلاث مرات.
ـ ادخلوا فيه واقرأوه.
ـ موزع القلب ومشغول الأفكار.
ـ انظروا في قلبه.
ـ في قلبه صورة.
ـ صورة من؟
ـ صورة ست الشام.
التفتَ إليها يحثها على التوقف:
ـ هل أنت راضية يا خانم؟
ـ أريد اسمه.
ـ اكتفي بما عرفته.
ـ أريد اسمه.
استسلم العطار وقال للصبي:
ـ اطلب اسمه.
تبع ذلك محاورة مخنوقة، وتساءل الصبي مستغرباً:
ـ لماذا تريدين اسمه؟! دعيه.
أجابت العطار قبل أن يسألها:
ـ اريد اسمه يا عطار.
ـ كفي يا خانم. . للجان حساباتهم.
ـ اريده.
ـ ابحثوا عن اسمه.

ـ وجدناه.

ـ ما هو؟

ـ اسمه مكتوب على جبينه.

ـ ما هو؟

ـ أقدار... أقدار وجواره اسم ست الشام.

ـ ما هو؟

ـ وهل يكون غير يوسف سرحان.

- ٢ -

انتصب يوسف سرحان مستوفزاً ساهماً وراء زجاج نافذة غرفة مكتبه في بناء العابد، يرقب نقطة بعيدة، التقاء شارع الحجاز بجسر فكتوريا، عندما لاحت طلائع الموكب خارجة من شارع بيروت وهي تنساب على طريق السرايا، العلم الفرنسي في المقدمة، تليه سيارة مكشوفة تتبعها سيارتان عسكريتان، يحيط بهم الجنود السنغال والخيالة المغاربة، بدا الفراغ الفاصل يتقلص بين ساحة المرجة والموكب الذي يتقدم وئيداً فوق الأرض الحجرية، يرافقه قرع الطبول المخنوق في الجو الرمادي، يعلن لقاء بارداً بين هذا القادم دون عجل وهؤلاء الذين ينتظرونه دون أمل.

ألقى نظرة على مقهى «زهرة دمشق» ورأى النُّدل يمدون رؤوسهم من طابقه العلوي ثم يبتعدون سراعاً، وموظفي العدلية والبريد والبرق يحاذرون أن يظهروا بأجسادهم، فيما أسدلت ستائر الشرفات والنوافذ في فندق «الشرق»، مواجهة غير متناظرة بين سراب يتجلى على ضفة نهر بردى، وأشباح مختبئة تتابع هذا الذي يتجسد ببطء ويتكرر كل فترة من الزمن. توقف الموكب لحظات عند السرايا ثم أكمل سيره، وعندما وصل مبنى البلدية انعطف يميناً وبدأ دورته حول الساحة. كان المفوض السامي «بيو» جالساً على المقعد الخلفي للسيارة المكشوفة يرمق بحدة الأرصفة الخالية والمحلات المغلقة والأزقة التي تتوالى مقفرة من

الأشخاص والأصوات، كان ارتطام حوافر الخيل وهدير السيارات وايقاع الطبول يبدد وحشة الساحة التي خلعت مظاهر البهجة وتخلت عن لوازم طلعتها الدورية.

أحس يوسف سرحان أن المفوض وهو يمر من تحت ناظريه، يشهد استقبالاً فات أن يلقاه من سبقه، ولم يحظ - اسوة بكل من جالوا في هذه الساحة - بالزينة والأضواء وأكاليل الغار.

أتم الموكب دورانه حول النصب التذكاري وقد تخلخلت صفوفه ونشز ايقاعه، ومر أمام جامع «فضل الله البصروي» وتابع طريقه والفرسان تحاول اللحاق به حتى فندق «فكتوريا» ثم انعطف يميناً متوجهاً إلى دار المفوضية.

كان الاستقبال الخفي قد انتهى وبدأ الناس يظهرون على شرفات البلدية وطبابة المركز وعلى سطح وشرفات فندق الشرق وبناء العدلية، ويخرجون من المداخل المؤدية إلى الأسواق الملاصقة، أدرك دون أن يطل برأسه أن نوافذ بناء العابد قد امتلأت بموظفي دائرة النفوس والنيابة العامة وصحافيي جريدتي لسان الأحرار والخازوق.

تبدى والسكون يتحلل إلى همسات، أن المفوض قد رمى بظله فوق الناس المبعثرين، وما زال بنظراته القلقة وحركاته العصبية يحوم فوق الساحة التي بدأت تتنفس، ويغادرها مخلفاً وراءه صوراً لا تني تراوح في المكان، دبابات فرنسية واستحكامات العسكر السنغال، بنادق ومدافع صغيرة، جثث فلاحي الغوطة، معاطف طويلة ولكنات مريرة وشتائم.

حاول أن يطرد عن عينيه، المناظر الغزيرة، الملازمة والمضادة للمفوض الذي جاء من البلد الذي لقنه فيها استاذه الشيخ المبادىء العظيمة والراسخة للحق والخير والجمال.

... الحديقة الصغيرة وقد ظهر وراءها معهد «الكوليج دي فرانس» والتمثال البرونزي لكلود برنار موشحاً بالثلج والعصافير، بناء السوربون العتيق، القاتم اللون بمدخله الفخم وأروقته الهادئة وقاعاته الواسعة، الحي اللاتيني بجنائنه المزهرة وبماشيه الوادعة. من أي قرن مضى أحيوا «بيو» هذا وأرسلوه كي

يهذي برسالة فرنسا التاريخية في سوريا؟! . . . فرنسا أيها البلد الذي يبتكر صنوفاً للحرية ويصدر القهر والكذب.

. . . ماري تيريز سوف تعترضه برقة وتشده إلى الرقص، تحيطه بذراعيها البضتين، وعلى أنغام تانغو «الغيرة» تهمس في أذنه، حكاية عن شابة فرنسية تحب طالباً شرقياً، يتناولان غذاءهما في المطعم الصيني، ويتفرجان على المسلة المصرية في اللوفر، وعند المساء يستمعان إلى مقطوعة «شهرزاد».

كاد أن يسقط في الوهم، لكنه وهو بين ألسنة اللهب، يستيقظ فزعاً، ماري تيريز تؤجج نارها، وأبوه المشلول يقذفه بالحمم «أرسلتك إلى باريز كي تفهم لغتهم، لا أن ترطن بها» وها هو ذا ولدك يوسف لا ينطق بها فحسب وإنما يحب بها أيضاً.

عندما أرسل يطلب منه المجيء، دهش من أبيه الذي منعه من العودة قبل سنتين عندما ماتت أمه، أراد أن يعترض، لكن الرسالة الجافة بدت وكأنها رد على ما زعمه قبل شهر مضى من أن بعض الترتيبات تضطره للبقاء سنة أخرى في باريز بعد انتهاء دراسته الجامعية، كان قد اتفق مع ماري تيريز على الزواج خلال الصيف، ثم يسرب النبأ إلى المعارف في شهر العسل، على أن الرسالة كانت واضحة وقاطعة . . . إنه ينتظره ولن يقبل له عذراً، لم يدر هل كان يكفيه مؤونة الغربة ونذر الحرب، أم يحاول تجنيبه وعود الزواج وعثرات الغرام، وبدلاً من أن يقضي الصيف على ضفاف البحيرة الكبرى في فرساي، عاد إلى دمشق.

في الغرفة ذات السجف المسدلة والخيالات السابغة على الجدران والمسابل المطرزة، كان جالساً فوق السرير، لابساً الأبيض وقد لمع وجهه ونحل، محاطاً بالآيات القرآنية والحشايا المزركشة، متأهباً للرحيل ومكبلاً بالجسد الواني، قبّل يده ووقف يصغي إلى المناجاة الطاهرة المبرأة من النوازع الأرضية سأل اخته سميحة عما يجري داخل الغرفة التي لفظت دواعي الحياة، هل هو الشلل الذي أصابه ثم أخذ يزدرده على مهل؟! كانت الانتخابات النيابية التي أعقبت المعاهدة، المنظر الأخيرة المقتنص من كل ما دار وراء جدران البيت، خمن أن

الغائب عن الدنيا بين روائح النعناع وزيت الكافور وهو يرشف شراب الورد يبلل به حلقه ويبرد به قلبه، يغوص مطمئناً وآمناً بين أسماء الله الحسنى والأوراد، مستعيضاً عن الكتلة الوطنية والشهبندر ودي مارتيل بتفسير الجلالين وفقه العبادات.

لم يسأله عن باريز المفاوضات وسفر جميل مردم بك اربع مرات لاقناع الجمعية الوطنية الفرنسية بجدوى المعاهدة، وانما قال له هادئاً ان العمر لن يطول به. حاول أن ينفض عنه وساوس المرض والموت، لكن الغائب القابع على حدود الحياة تابع شروده اللاهي، واختار له نصيبه، الزواج بأمينة، وكي يوقظ اباه من عبثه سأله، ومن هي أمينة؟ رافضاً أن يتذكر أن أمينة هي ابنة عمه اليتيمة التي تسكن مع أمها في زقاق «البركة». تلك هي وصيته التي لن يستطيع أن يخرقها أو يحرفها، أن يتزوج بأمينة وهو على قيد الحياة، وكأنه يريد الانعتاق من ضجيج الانتخابات ويتعلق بصورة يوسف وأمينة مجتمعين، لم يكن ذلك شرط الرجوع إلى باريز وإنما رجاء لا يقاوم. في تلك اللحظات ادرك أنه لا يستطيع رفض طلب لهذا الرّجل الذي وسمه بالخوف والصدق، بالرعونة والاستقامة، مؤكداً دائماً حق الأبوة والقربى، رضخ دون أن يعني بمعارضته أو معاندته. قدر يمسك به العجوز المسجى ولن يفلت منه الرجل الذي يسعى عليه قدميه إلا بموت أحدهما.

تزوج أمينة دون تسويف وعراضات، دون أفراح وأحزان، وبر أبوه بوعده ومات بعد شهر واحد، في ذكرى الأربعين ودعه بحزمة من الأسى وغصن من النخيل، وحتى يفصم اتصاله مع من بقي، أصدر وكالة عامة لاخته سميحة بقبض ريع ايجارات الدكاكين المتوزعة ما بين سوقي الحرير والزيت، أما أمينة فلم يتح له أن يودعها، كان الاتصال والانفصال قد جرت وقائعهما في عتمة الليلة الأولى والأخيرة، أمسك بحقيبتي السفر وألقى نظرة وجلة على الليوان قطعتها أمينة قائلة له بخجل، إنها حامل وانفلتت هاربة إلى «الصاليا»، لحقها وقال لها إنه لن يعود ثانية إلى دمشق.

في باريـز، ولأول مرة يواجـه المـدينة الغريبة وهي تنزلق بعيداً عنه، يريد أن يلتصق بها وهو دخيل عليها، كان مسيو دالاديه يناور هتلر كي يبعد شبح الحرب عن فرنسـا، والـرجـل الأخـير والـوحيد من عائلة سرحان عن أي مدينة يدافع؟! أدرك أن العجوز الذي واراه التراب أودعه أمانة عسيرة... لقد أعطاه عينيه كي يرى بهما، في دمشق كانت باريـز أقـرب منالاً منه، من نافذة «الفرنكة» كان يرامق بحنـان شارعي سان جاك وسـان ميشيـل، وأسـراب الصبـايـا والشبـان ينطلقون مسـرعـين تحت شمس الضحى في باحـة الـدار. وجهـاً لوجه مع المدينة المراوغة، تمنحـه العشق وتحـرمه الأمان، لم يعد يرى شارع سورين وشطآن نهر السين، بات يقف ساهماً عند الحواجز الحجرية، والأضواء المعلقة تحدب عليه، شاخصاً ببصره إلى محطة الحجاز، لم يكن يختار بينهما، كان وقد امتلك حريته منصاعاً للأصوات الـرخيمـة ولنـداءات البـاعـة الشجية ولهو الرفاق في العباسية، منضوياً للأحزاب والأشخاص الذين يتراشقون التهم دون هوادة.

في الـزاويـة من رصيف مقهى «الكـابـولاد» قال لها: إنـه تزوج خلال فترة غيـابـه الـوجيـزة، رمقتـه حائـرة، تمشيـا قليـلاً ثم تركته ومضت وحيدة في شارع سوفلو، وفي اليوم التالي سارا معاً في جوانب الحي اللاتيني كما اعتادا في أيام الصحو والصفو، وتابعا طريقهما إلى حديقة اللوكسمبورغ، كانا يتبادلان الوداع مجتمعين مع الأمـاكن التي شهـدتهـما معاً، وبالقرب من شجرة الدردار الضخمة حدثها عن المعاهدة التي لم تبرم، والأحلام التي ضاعت هباء، لم تحر جواباً، كانت مستسلمة لسطـوة الشـرق وقسـوة العسكـر، تفكر بالأحلام التي ضاعت هباء، وأمام تماثيل الأوقـات الأربعـة، بدا وكأنـه يستعيـد الأوضـاع الأربعـة للقـاء والفراق، عانقها وقبلهـا، ابتعـدا قليـلاً الـواحـد عن الآخر ثم عادا متماسكي الأيدي، حضنها ثم أفلتها، وعند الغروب عادا صامتين.

ذلـك الصمت الـذي تجدد في دمشق، سقيـاً ومتبـادلاً، سميحة ترقبه وهو يستيقـظ متأخـراً، يتنـاول فطـوره ويخرج، ثم يعود أواخر الليل، وأمينة في الأشهر الأخـيرة من حملهـا تحمـل بطنهـا وأوجاعها وتزداد عزلتها، إرث لم يكن له يد فيه،

أجـرى بعض الاصـلاحـات في البيت، رمم السطـح وسمـد الأحـواض وجـدد المجـاري، واستشـار سميحـة عنـدمـا تقـاسماً غرف الفوقاني، غرفة له تطل على الحارة، وغرفة لسميحة في «الدوار» جوار المغسلة، اما الغرفة المشمسة التي تشرف على الديار فقد تركاها لأمينة وللطفل القادم، وبقيت غرفة أبيه مغلقة على أزيائها النـاصلة، قنـابيـز الجـوخ الشتـويـة، وقنـابيـز الحـرير الصيفية الستر ات، الطويلة والعبـاءات الصوفية المبطنة بالفراء، المنامات الرقيقة والسراويل البيضاء، عمامات الأغبـاني والطـرابيش، الزنانير والقمصان القطنية، وعلى الأرض مدت السجادة التبر يزية، وإلى الحائط اسندت حشايا القش، وفي «الليوك» الفرشات واللحف وعلى الـرف مرش ماء الـزهر وابريق الماء النحاسي، وتحت السرير المبصقة والمبولة والطشت، رائحة المروخ مدسوسة في الفراش، وكأنه ما زال يمارس شعائره ويمسح بالنسيـان آلامه في الركن الدافىء المموه بالطيب ونكهة الحياة المثيرة، وأمامه القرآن ذو التجليـد المـذهب فوق حامله المـرصـع بالصـدف وبـداخله ريشة الطاووس، الـرجـل بجذعه الصلب وكتفيه العريضتين، الواجم على الدوام من تخاذل الملك فيصـل الـذي جاء ومعـه الانكليـز وتبعهـما الفـرنسيـون، حانقاً بين صحبه، هل نستبـدل بالأتـراك الانكليـز أو الفـرنسيـين؟! والثـورة التي أضـاعت انتصـاراتهـا وشهداء ها بالخلافات والزعامات، لم يره مستبشراً إلا مرة واحدة، كانت مصادفة أم كان يخفي عنه أساريره المنفرجة؟ متى؟ في سير ان الصالحية. . .

كان أبـوه متصـدراً جماعة الرجال ممسكاً بيد الشيخ الضرير عبد الرحيم وهو يتباسط معه بالحديث ضاحكاً، ما الذي كان يقوله ويسمعه؟ لماذا لم يُدم النظر إليه طويـلاً ويحتفـظ بوجهه المشرق؟ تلك لحظات لم تتكرر، كان هناك ما جعله ينحني وجمـاعـة الـرجـال تتجـاوزه وأبـوه يغيب عن بصره، كانت الصور تتزاحم وتتدافع وتتمـركـز في مسـرح بصـره وتـتر اءى منـارة بالشمس والعـذوبة، سمع الضحكة النـاعمـة تتردد في الفضـاء الضيق تلفـح رقبتـه وتهمس في اذنـه، ضحكـة رقيقـة تصـاعـدت خلفـه من سعـير الضجيج المكتوم، أدار رأسه ورأى الغادة التي سقط المنـديـل عن وجهها وبان شعرها الأسود المجدول عارياً من الأقمشة، ترمقه بنظرة

ساخرة لا مبالية تتبعها بضحكة متألقة وصافية، تهز رأسها بنزق نافضة ضفيرتيها عن كتفيها، تمسك بأطراف الغطاء وترميه على هامتها، استوى واقفاً والتقت عيناه بعينيها، هالة كثيفة من الحرّ تحتويه، أعضاؤه ترتعش ورجفة قوية تأخذه من قمة رأسه حتى أصابع قدميه، منسلخاً عن المكان والبشر، يلج دنيا من الانفعالات المبهمة، منقطعاً عن كل ما حوله من غبار وضجيج ورطوبة، تكاثفت فجأة في تلك الهنيهات في صدره الغض.

غابت مع أسراب النساء التي ذابت في الطرق المؤدية إلى أزقة ساروجة والقنوات وباب سريجة، وتركت بين جوانحه صورتها، الوجه الصبوح، الأبيض والمدور، العينين السوداوين، الأنف الدقيق والغمازتين، والابتسامة التي لعبت بجوارحه، تعود بقامتها الغضة وقد امتد خلفها طريق الصالحية بأشجار الحور العالية، ملوناً بالغسق والتراب والماء، ومع مرور الزمن تبدل أماكنها وتكسوها تفاصيل من الأشياء والأوقات، مضطجعة على الأرائك، متناومة، تكبر ونهداها يفلكان، حالمة بين النساء في الصباحية، وحيدة في الفرنكة وشاخصة ببصرها إلى سقف الغرفة المزين بالبحرات، تتثنى بقدها الأهيف في روضة واسعة مترامية الأطراف، تكتظ بأشجار النارنج والمشمش الهندي، الفراسكين والرمان، تتمشى بين الشمشير والشب الظريف، القرطاسية والهرجاية، الزلف والغناجة، وهي بينهم صبية متبرجة، مبهرجة، تتشبه بالخوانم اللواتي يفدن من استنبول، وحتى عندما أرسله أبوه إلى المدرسة الداخلية في زحلة خوفا عليه من مداهمات الجنود الافرنسيين وجائحات الكوليرا، رآها جوار أمه وأخته على الرصيف، يطل من نافذة القطار في محطة البرامكة وهن يودعنه حاسرات المناديل عن وجوههن، ويلمح دموعها من خلال وجه أمه الباكي، ولا يكاد القطار يترك المحطة ليتوارى بين أشجار الحور في طريقه إلى الربوة حتى تفتح باب المقصورة وتجلس إلى جواره.

باتت صورتها المؤطرة بالورد البلدي تعاوده وقد فارق الأماكن المرافقة لها، تبرز من الجدران الكالحة وتحل في الجو القاتم، تتجول في أروقة المدرسة وقاعات الدرس الفارغة، ثم تخلد إلى عنبر النوم، تصطفيه غير عابئة بالأنظمة القاسية

لمواعيـد النـوم، ويسكن اليها متثائباً ومشتاقاً، أصبح جفاف تلك الأيام المضنية لا يتبـدد إلا في حلكـة الظـلام، عندما تلمع من فرجة الباب، تنسل اليه وهي ترفل بمـلابس النـوم الهفهـافـة، تلاطفه ويلاطفها، ويشردان على غير هدى في أرجاء البيت تحت الشمس المشرقة عند أحواض العرائش وبين الأصص، يرقبان أسراب النمـل الـدؤوب، ويـركضان وراء الفراشات الملونة، ويصغيان إلى طنين النحل والـدبـابـير، يركنان في «بيت المونة» ويختبئان في «الداكونة» إلى أن جاء ذلك اليوم البـارد والـريـح تصفـع الأبـواب والنوافذ، لم يدر المشرف الذي أيقظه من النوم في الصباح الباكر، أنه لم يكن ينتزعه من الفراش وانما من «الليوك» وهي محشورة إلى جواره ورأسهـا على كتفـه، وطلب منـه ان يعجـل بارتداء ملابسه واعداد حقيبته كي يعود إلى دمشق بسبب مرض أبيه. لم يستطع التنبؤ أن الفراق لن يكون عن المـدرسـة فقـط وانـما عن تلك الأحلام والذكريات المؤنسة ايضاً، وخلال الطريق المتعرجة الرتيبة من زحلة إلى دمشق، تقوقع داخل العربة وحيداً، معتمراً طربوشه ومحكـماً أزرار جاكتتـه وهـو يرتجف مقـروراً، ومـرض أبيه الغامض يخطر أمام عينيه الـزائغتـين على وقـع نداءات الحـوذي المتكـررة وهـو يسـوط الجياد، وكأن صوت السوط وهو يئز في الفضاء كان الفيصل بين حياتين.

طالعتـه أمه الواجفة عند البحرة الآسنة، أحاطته بذراعيها وأخذت تنشج، قادتـه إلى غرفـة أبيـه ووقفت وراءه تعضده وتعتمد عليه، كان الرجل الذي لم يره منحنياً إلا عندما يركع للصلاة، مسجى على الفراش رافعاً ذراعيه نحوه، دعوة لم يفهمهـا، هرع يقبـل يده، لكنه أمسك به بقوة وشده نحوه يعانقه، رفع رأسه يريد أن يسأله، ورأى الأعجوبة الثانية، دمعتين تسيلان على خديه، وكبا يقبل الرجل الـذي لن يقف أبـداً، ولم تستطـع الطمأنينـة التي هبطت على أعضائه المرتجفة أن تكبت مرارة مرض غاشم.

شهـور وهـو يقـرأ في عينيـه ويتلمس كفيه، وكأن هناك ما سوف يسري من قلب أبيه إلى قلبه عبر الأنامل والعيون، ومضت الجلسات طويلة وناعسة، هادئة وطليـة، غنيـة بالأسـرار التي لم تعلن، صور سوف يمر وقت طويل قبل أن تتوضح

اجـزاؤ هـا وتفـك معمياتها ، ولم يتكشف بعض من معانيها ومراميها إلا عندما قال لماري تيريز إنه قد تزوج ، كان أبوه قد انتزع منه في لحظات الصمت وعوداً طالبه بتنفيذها في ساعات الحيرة .

عنـدمـا بدأ يتكلم بدا وكأنه يناشد الشخصيات التي يلهج الناس بذكرها ، سلطـان باشـا الأطـرش والشهبندر ، القوتلي وعادل أرسلان ، أن تستمع لرجاءات الأرواح ودوي الـرصـاص ، كان قد أزاح أرج المسك والعنبر وأطلق رائحة البارود وزنخ الدم ، في الغرفة التي أزهر الليمون على نافذتيها وعششت الستاتي في حنايا أغصـانهـا . كانت الألِـويـة المعـززة بالطائرات وكتائب الرماة الأفريقيين وكوكبات الأقليـات والسبـاهيـين تغـزو الفـراغ بينهـما ، وتنتشر فيه ساحة قتال ضار ، تشعل الغـوطـة وتمتـد إلى الميـدان والبـزوريـة ، ترنيمة حنونة وشاقة ، ظن أن المضطجع المكبل بنصفه الميت أعوزه السأم إلى حيلة كي يخفف من قِيوده ، فأفلت خياله مرتداً إلى سنوات الثورة ، يستعير أبطالها ويزج نفسه في معاركها ، روحاً أخطأت طريقها إلى المقعد الذي بدأ لحن الجدب والموات يستشري في أطرافه الأخرى .

لكن الـترنيمـة الحزينة والشجاعة وجدت تفسيرها لدى أمه «أرسلك أبوك الى زحلة وأودعنا أنا وأختك في بيت عمك ثم التحق بالثوار» انضم إلى عصبة أبو عبده سكر في يلدا وخاضوا مع عصب المجاهدين مجتمعة معركة «السبت» وقسروا الافـرنسيـين على الـتراجـع حتى جدران الميـدان ، وفي الزفتية قاتلوهم بالسلاح الأبيض ، حيث فقـد صديقـه أبـا قاسم كيـوان ، وفي معركة مئذنة الشحم فقد أبا صلاح عيشـه ، شارك بعـدهـا في معارك المطير وعربين ومسرابا وجسر الغيضة وأم الشـراطيـط ، وفي الـدريـج شهـد سقـوط الأمير عز الدين الجزائري شهيداً ونهاية الثـورة ، وعلى الـرغم من أنـه عاد إلى البيت ناجياً بجسده من رصاص «ساراي» والنـوايـا الطيبـة للمندوب السامي «ديجوفينيل» متسقطاً الأخبار من مكمنه والجنود السنغـال يتجـولـون فـي الأحيـاء لجبـايـة الغرامة الحربية ، استطاعت مفاوضات «بونسو» أن تفقده صبره وقدميه .

عنـدمـا تباعدت زيارات الأطباء، جاء الطبيب حسن حكمة القادم حديثا من باريز ولّمح إلى العاهة التي لا براء منها وحكم عليه بالموت «وفروا نقودكم، لن يطول عمره أكثر من ستة أشهر».

رفضت أمـه التشخيص القـاسي وأقسمت ألا يدخـل البيت مرة أخـرى. وبـدلاً من أن يغـوص أبـوه في وحـدته العليلة خرج منها وأمر بوضع سرير في صدر القاعة وأخذ يستقبل ضيوفه بعد صلاة المغرب يومي الاثنين والخميس، مضطجعاً على الفـراش وملتفـاً بالعبـاءة، الشيـخ الضـرير عبد الرحيم إمام جامع «الخانقاه اليـونسيـة»، شفيق العجـان المـوظف في العـدليـة وعبـد الـرزاق السباك الضابط المتقاعد من الجيش العثماني، فيما كان الشيخ تاج الدين الحسني على بعد أمتار في السرايا يشكل وزارته المؤقتة.

في القـاعـة ذات السقف العـالي والجـدران المجردة من التذكارات، البحرة الـرخـاميـة في وسطهـا والستـائر السميكة تجللها، كان يضع المساند وراء ظهر أبيه ويتسمـع الأنِـات العميقـة لرجـل لا يؤجـل المـوت وانـما ينفصل عنه ويتوحد مع الحياة، يشرئب بعنقه كي تتلاقى العيون، وعندما يقرع جرس الباب يهرع ويقود الـرجـال الثـلاثـة عبر الدهليز وقد اعتمد الشيخ عبد الرحيم على كتفه، يجلسون ويحمل الصينية ويطوف عليهم بأكواب الشاي الساخن ثم ينزوي على مقربة منهم.

يبـدأ الشيـخ عبـد الرحيم بتلاوة بعض الآيات القرآنية بصوته الرخيم، ثم يشرحها جاهراً، ومتنقلاً بين نعيم الآخرة وعذاب الدنيا، بين نعيم الدنيا وعذاب الآخـرة، مقـارنـاً بين الاوائـل والأواخـر، ويعقب شفيق العجـان بألم مشـيراً إلى الطعنـات التي توجـه إلى صدر الاسلام، يؤكدها عبد الرزاق السباك بشواهد مما يجري على مبعـدة أمتـار. بعـد صلاة العشـاء يتـابعون سمرهم وهو يحمل إليهم النراجيل والقهوة المرة، ثم يكشف عن صندوق السمع، ويشنفون آذانهم لصوت أم كلثوم «البعد علمني السهر» ويتفرقون عند منتصف الليل.

تسللت أخبـار الاحتجـاجـات التي احتدمت في الخارج إلى القاعة وحلت فوق البحرة وعكرت رواء مياهها الرقراقة، والتفت مع البخار المنبعث من السماور وهـو يتصـاعـد خفيفـاً وكئيبـاً حتى السقف، مهيمناً على الموجودين الذين أخذوا يعـرّضـون بالشيخ تاج الذي أصبح أداة في أيدي رجال الانتداب، منتقدين العفو الأعـرج الـذي استثنى قادة الـوطنيـين فيـما أعـاد فوز قائمة الوطنيين في انتخابات الجمعية التأسيسية روحَ البهجة والانشراح إلى جلساتهم، وأصبح لأغنية أم كلثوم «شرف حبيب القلب» معانيها المتفائلة، وأقرت الجمعية التأسيسية الدستور الدائم على الـرغم من اعـتراض المفـوض السـامي «بونسو» على المواد الستة طالباً طيها لتناقضها مع مبدأ الانتداب.

ما الـــذي ستفعله الجمعيـــة التأسيسيـة إزاء مذكـرة «بـونسـو»؟ استشـهـد الجـــالســـون بالإفتتـــاحيـــات الملتهبـــة لجريـدة القبس التي انتظم دخـولهـا إلى البيت، . . . . الجمعيـة التأسيسيـة سترفض مذكـرة «بـونسـو»، وقـابـل المفوض السامي القرار باعلان تعطيل الجمعية إلى أجل غير مسمى، كان الرجال الثلاثة الـــذين شهـــدوا مظـــاهـــرات طالبـات دار المعلمات وطلبـة الجـامعـة والمـدارس والاجتـماعـات الـوطنيـة في المـرجـة الخضـراء وهي تقسم اليمين على التمسـك بالـدستـور، يروون لأبيـه التفاصيل الدقيقة من المشاهد العنيفة لاصطدامهم مع الـدرك والشـرطـة وجنـود المستعمـرات، وهـو يصغي وقـد ظهر التوتر على ملامحه ممزوجاً بالبشر، وهو يستعيد ويستزيد الحاكي وهو يردد «شرّف حبيب القلب»، في تلك الأيام تراءى له ان الدم الحار قد بدأ يسري في قدميه الباردتين.

قبـل أن ينتهي العـام ألحقه أبوه بمدرسة مكتب عنبر بتزكية من الشيخ عبد الـرحيم ووسـاطـة من الضابط المتقاعد عبد الرزاق السباك، وابتدأ مشواره اليومي مشيـاً على الأقـدام من البحصـة الجـوانيـة إلى شارع جمال باشا فباب الجابية ثم السكـريـة حتى الخـراب، ودخـل بيتـاً أكـبر من البيت الـذي يقطنه، ويشابهه، باحات وبحرات، وعلى الجوانب انتظمت أروقة، سقفها من القصدير أقيم على أعمدة من الحديد، أقواس شامية وأشجار للزينة والحمضيات، وعديد من الغرف

التحتيـة اتخـذت قاعات للتدريس، اما الغرف العلوية فمهاجع يبيت فيها الطلبة الـداخليـون، اربـع سنوات عاشها بين المشايخ والاساتذة والطلاب القادمين من انحاء المعمورة الاسلامية، سنوات تفتحت فيها عوالم ثرة من اللغة العربية المشرقة والدين الخير القويم، آفاق من الفيزياء والكيمياء والقواعد النحوية وعلم النفس والمنطق والأخـلاق، واستطـاع المشايخ المتعممون الذين يرتدون الجبب ويطلقون اللحى، والاســاتــذة الــذين يغطـون رؤ وسهم بالطـرابيش ويلبســون البـزات الافـرنجيـة، أن ينفثـوا في عقله وقلبـه آيـات البيـان والمثـل الطـاهـر في التضحية والفـداء، متلمساً المبـادىء الجليلة والأهداف العظيمة للحياة والموت، في الدين والتـاريـخ، بين قصص العـرب وأمثـالـه ومثلهم، وشـواهـد الغريب والواضح، ومـترادفـات الحرية والظلم، الوطنية والعروبة، ويسبح في الأنوار المتلألئة للمعاني الناصعة للروح والجسد.

كانت الحيـاة موارة، وغنيـة بالرؤ ى والأحلام، وتحت ظلال شجرتي الميس ينتحي بصـديقيـه كريم الحجار وصبحي طاهر، وبينهما الغادة التي رآها في سيران الصالحية، تزهو بضفيرتيها وألق عينيها، تتسمع إلى النثر وترشقه بالشعر، وحولهم الجـدران والشبـابيك والأشجار العالية، وباب المدرسة الذي يغلقه كاظم آغا بعد دخولهم في الصباح ويفتحه بعد العصر، عند انتهاء الدوام المدرسي.

بعـد تسـويف طويـل ووعـود كاذبة نشر المفوض بونسو الدستور الذي أقرته الجمعيـة التأسيسيـة مضـافـاً إليه المادة /١١٦/ التي تجمد المواد الستة، ولم ينجح مديـر المـدرسـة ولا الأسـاتذة والمشايخ في أن يبعدوا الاضطراب والتململ اللذين اعتملا في الخارج، واضطر كاظم آغا أن يفتح الباب كي تخرج منه مظاهرة طلاب مكتب عنـبر، انطلقـوا إلى القيمـريـة ومنهـا إلى النـوفرة، ثم تابعوا الى القباقبية فالقـوافـين وسوق الحميدية، وتسلق كريم الحجار سلماً وخطب في الناس، يمجد الحـريـة ويلعن الاستعـمار، فيـما أنزل التجـار أغـلاق محلاتهم، ولما وصلوا سوق الأروام تسارع الباعة ينضمون إليهم، وفي ساحة المرجة كانت البلد كلها معهم، أحاطوا بالسرايا، والأرض ترتج تحت أقدامهم.

قبض عليه وأوقف في النظارة، في غرفة صغيرة حشر فيها مع ثلاثين طالباً، لم يتم يومه فيها اذ افرج عنه بعد أن توسط شفيق العجان موظف العدلية لدى أبي رياح الكلسلي رئيس قسم التحري، ولام أبوه صديقه العجان بلطف «دعه يتعلم»، كان يريد أن يكويه بالنار حتى يتابع أو ينكص، تلك التجربة كانت حافزاً كي ينغمس في دروسه ويطوي يوم التوقيف وكأنه لن يتكرر أبداً.

عندما حدد المفوض السامي موعد الانتخابات، بادر الوطنيون يدعون الناس لخوضها، ولم ينته اليوم الأول من الاقتراع حتى تكشف التلاعب بالقوائم وتزوير الأصوات، لم يستطع أن يمنع نفسه من المشاركة بالمظاهرات التي جرت أمام صناديق الاقتراع والتي فرقها الجيش بالضرب بأعقاب البنادق والرصاص، وكان نصيبه أن شج رأسه واحتجز في سجن القلعة عشرة أيام، ولدى خروجه شد أبوه على يديه. وعلى الرغم من فوز الوطنيين بسبعة مقاعد فقط فقد كان أبوه معتدل المزاج وعلق قائلاً لضيوفه:

- هذا لا يهم، البلد كلها معهم.

عندما عقد الاجتماع الأول للمجلس، ظهر التبدل على ملامحه سريعاً، ثقل لسانه وتاهت نظراته، كلا... لم يعد يعذبه الجسد الرخو الذي لا يطاوعه، وإنما حيّرته اللغة البديلة في هذا الحوار القاسي والمائع، ضلال المناصب والزعامات، نواب الشمال يدعمهم «لافاستر»، ونواب الجنوب يدعمهم مندوب المفوض السامي «سولمياك»، وتسارعت الأحداث دونما انقطاع، الوطنيون رفضوا مشروع معاهدة «بونسو»، وأوقفوا التعاون مع الفرنسيين واستقال وزراؤ هم الثلاثة من الحكومة، وعمت المظاهرات شوارع البلاد.

كان كل ما يجري في الخارج يجد أصداءه السريعة والمتوترة داخل القاعة التي رفعت ستائرها وفتحت نوافذها، وتدفق إليها عبق الياسمين وزهر الليمون، سقسقة العصافير وخرير مياه بحرة «الديار»، وأبوه يبلل شفتيه بالماء المعطر بورق

الليمون وقد شد أوتار جسده، وجاء مؤتمر الكتلة الوطنية بارقة أمل أخذت تنضج على مهل.

ما الـذي كان يختمـر في رأسه في تلك الأيام، أيام الصيف اللاهبة، وهو في القـاعـة الـرطبة يرمق من خلال النافذة شلالات الياسمين عراتلي وعروقها تتسلق الجـدار وتتعلق «بـدرابـزين» السطـح، كان قد أنهى دراسته في مكتب عنبر عندما فاجأه بقراره.

«سوف تذهب إلى فرنسا لدراسة الحقوق».

أجـابـه بأنـه لا يستطيـع أن يتركـه وهـو مريض، لكنـه كان أمراً لا يحتمل الرفض أو المناقشة والشهر المتبقي فرصة كي يودع الأزقة والحارات والمقاهي وليالي الصيف، ورفـاق المـدرسـة، كريم الحجـار الـذي انضم إلى اسـرة تحرير جريدة القبس، وصبحي طاهر الذي توظف في دائرة الطابو.

وكـان هنـاك لقـاء ووداع يبحث عنهـما بوعي وبلا وعي، وراها خارجة من جنينـة النعنـع، تواجهـا من بعـد وكأنهـما على موعد، تلقف نظراتها وتابعهامرتج الفؤاد حتى غابت عن عينيـه عنـد محطـة الحجاز، وفي اليوم التالي تحقق الوداع في سوق الحميدية على صفحة الزجاج، كانت جميلة ورصينة، شاحبة وساهمة، كما لم يرهـا من قبـل، وقـرأ على وجهها كل الكلمات التي لم تقل، لم يحاول أن يلحقها، بات مؤمناً بموعد مكتوب في الغيب، وبات مؤمناً بلغز الحب القادر.

عنـدمـا سافـر كان هنـاك رئيس جمهورية يدعى «محمد علي العابد» ورئيس للوزراء يدعى «حقي العظم» ومفوض سامي يلقب بالكونت «داميان دي مارتيل» وهيئـة سيـاسية تسمى «الكتلة الوطنية»، زعيمها «ابراهيم هنانو» ورئيسها «هاشم الأتاسي»، غايتها تحرير البلاد السورية المنفصلة عن الدولة العثمانية من كل سلطة أجنبيـة وإيصـالهـا إلى الاستقـلال التام، وتوحيد أراضيها المجزأة في دولة ذات حكومة واحدة.

رحل وهو يلهج «الطاعة لله والكتلة الوطنية».

في باريز، المدينة الحارة والحالمة، المبهرجة والحقيقية، توهجت في عينيه روح فرنسا الحرة والعلم المثلث الألوان، داخل القاعة الكبرى في السوربون، وفي الشوارع الخلفية لبيجال والحي اللاتيني ومقاهي اللوكسمبورغ، وعبر الأخبار تصله مناورات مندوبها وفظاظة جنودها.

كريم الحجار يكتب له عن معاهدة «حقي العظم ـ مارتيل» التي ولدت ميتة ولم تتضمن أي بند يشير إلى الاستقلال والسيادة، أو وحدة سورية المجزأة إلى خمس دول!! اذن بماذا يتعهد الفرنسيون؟! ثم... كيف أسقط النواب المعاهدة عندما طوقت مظاهرة النساء مبنى المجلس وتمكنت من اقتحامه على الرغم من حصار الدبابات. ويتابع في «الفيغارو» سقوط وزارة حقي العظم وتكليف الشيخ تاج الدين الحسني بتشكيل وزارة جديدة، وتخيل ما كان يرتسم على وجه أبيه وهو يستمع لاصدقائه عن إغلاق بيوت الكتلة، والجوامع التي أصبحت بيوتاً للكتلة، وفخري بك البارودي الذي أعلن مشروع «الفرنك» ووجه نداء إلى الشعب يدعو فيه إلى حماية الصناعة المحلية ومقاطعة البضائع الأجنبية، ومبادرة السلطات الفرنسية إلى اعتقال الوطنيين وتقديمهم أمام محاكم مختلطة أصدرت عليهم أحكاماً تتراوح بين السجن والنفي.

في تلك الأيام كانت الكتلة الوطنية روحاً واحدة وهي تقود الناس من مقاطعة شركة التنوير والجر البلجيكية الى الاضراب الستيني، وتجبر المفوض السامي دي مارتيل على رفع شعار التفاهم مع الكتلة.

عندما أعلن عن الاستعدادات الجارية لتشكيل وفد من الكتلة الوطنية برئاسة هاشم الأتاسي للسفر إلى باريز للاتفاق مع الخارجية الفرنسية على دستور يضمن للبلاد وحدتها واستقلالها بموجب معاهدة تعقد بين البلدين، كان في حانة النوكتامبول، يتلقف الأخبار، وصوت المغنية الحاد ينهدّ متطامناً بانسجام، رقيقاً يطأ شغاف قلبه، يمرر الرجاءات الرهيفة إلى روحه، كتغريد الكناري المسجون في قفصه المعلق على مسمار في الليوان، يسلسل نغمات طويلة لا تفتر.

وصـل الـوفـد إلى باريـز في آذار، وفي مايس كانت الأقـاويـل تؤكـد أن المفـاوضـات قد وصلت إلى طريق مسدود، فيما كانت دمشق تعيش حرارة نصر لم يأت بعـد، فخـري بك يشكـل فرقـة «القمصـان الحديدية» ويمولها من تبرعات الـوطنيـين، تجري تدريبـاتها في الشوارع واستعراضاتها في الملعب البلدي، وكريم الحجار يتساءل في رسائله، ما الذي يجري في باريز؟!

بقي ساعات ينتظر الوفد عند مدخل «الكي دورسيه» وعندما رآهم خارجين اعترضهم متوجهاً إلى الشيخ الجليل النحيل ذي اللحية الصغيرة:

- هاشم بك، ما أخبار المفاوضات؟

اقترب فارس الخوري وحجز بينهما وهو يتفحصه:

- صحفي؟

- طالب سوري في السوربون.

ربت هاشم الأتاسي على كتفه:

- بارك الله فيك يا بني.

عاد يلح:

- والمعاهدة؟

أجابه فارس الخوري:

- كان الله في عون سوريا.

كان واضحاً أن المقترحات الفرنسية غير مقبولة، لكن الوفد السوري تعمد تأخير رده عليها مدة اسبوعين، انتظاراً لنتيجة الانتخابات العامة في فرنسا، وكان فوز «الجبهة الشعبية» وتأليف وزارة جديدة برئاسة «ليون بلوم» ذي النزعة اليسارية واستبـدال فلانـدان بدلبـوس وزيراً للخارجية قد أتاح للمفاوضات أن تتم وسط أجواء جديدة، وعقدت المعاهدة بعد ستة أشهر من وصول الوفد، وطير برقية إلى كريم الحجـار «في السـاعـة الثـامنـة عشـرة والـدقيقة الأربعين وقع الرئيس هاشم الأتاسي المعاهدة باسم سوريا كما وقعها فينو باسم فرنسا».

بينما جماهير الكتلة تتهيأ لاستقبال الوفد، والناس يحتشدون في محطة حلب والمحطات التي سيمر فيها القطار، والزينات واللافتات التي تمجد الاستقلال والوفد تعم الأحياء، في عرس لم تشهده سورية من قبل، كانت أمه ذات الشعر الكستنائي الذي يزحف الشيب إلى خصلاته المتموجة بطيئاً، قد أتى عليها الموت سريعاً، أخذ ـ وقد منعه أبوه من العودة ـ يخرجها من الزوايا التي فاءت اليها، ومن الظلال التي تلاشت فيها، يرامقها محتمية وراء دموعها بإزار الصلاة الأبيض، تمسك براحته وتنزله الدرج، درجة . . درجة، تحضّر له الشطائر في الصباح الباكر قبل أن يذهب إلى مكتب عنبر، تحمل اليه «مطبقية» الطعام وهو في سجن القلعة، يعود ليراها تغسل رأسه بصابون الغار، وتودع في حقيبة السفر التين والمشمش المجفف، وتُحمِّله قطرميزي المكدوس والزيتون، يلاحقها حتى الكانون، ويتعلق بملابسها في بيت المؤونة، يقرفص معها وهي تنفض الرماد عن جمر المنقل، يرتد إلى الصباحية بعد أن شطفت الليوان والديار ومسحت أوراق الأصص الخضراء بقطعة قماش مبللة بالزيت، ويتأمل صورتها على أديم الماء والزجاج، حول جيدها طوق الياسمين الأبيض وفوق أذنها وردة حمراء، الخدود متوردة، والشفتان رقيقتان، وفي العينين ألق وحنان. أي مرض غادر هذا الذي لم يعلم به أحد؟!

أبعدت طشت الغسيل عنها، وضعت يدها على صدرها وأطلقت صرخة خافتة، وقفت بصعوبة وتأودت فوق أرض الديار، اقتربت من الصاليا واستندت إلى جدار الياسمين، أجالت بصرها في البيت، ثم ركعت متكئة بيدها إلى الأرض، تمددت فوق البلاط. فتحت عينيها على الأشجار المشوقة والأغصان المشرئبة والثمار المتدلية، وخيوط النور الغزيرة، ولم تغمض عينيها.

في تلك الأيام التقى ماري تيريز بين لفيف من الأصدقاء عند محطة مترو سان ميشيل، بقامتها الفارعة وتسريحة شعرها «اللاكارسون» البسيطة وثوبها

الخفيف، وقد بدا من ورائها الدرج الذي يصل بالنفق الكبير وكأنها خارجة لتوها من المشهد الأخير الذي لم يسدل عليه الستار بعد، ظن أنها ستعيده إلى الفصول الأولى، امرأة تقوده إلى امرأة. دعاها إلى مقهى الكابولاد، تناولا طعامهما في زاوية هادئة، وسألته عن الشرق تلك الأحجية الملهاة، وحدثها عن دمشق، فتح أبوابها وابتدأ من النهر الصغير وعرج على الميدان والشاغور، وتوقف عند الرجال المثخنين بالهزيمة والآمال المجهضة، ودوريات الأقليات الأفارقة الذين يرتدون البزات العسكرية الافرنسية، وتابع إلى الحارات الضيقة المتعرجة، هناك في باحات البيوت المفتوحة للنهار والليل لم تستطع ماري تيريز أن تفهم ذلك التناقض بين واجهات البيوت الطينية العالية والباب الخشبي المحفور الذي يحجب خلفه الجنة الصغيرة، بين هيمنات متواليات الزخارف المتلوية والحادة، وفوضى الورود والألوان والروائح.

أمسكته من يده وعادت به إلى محطة سان ميشيل ترخي ستار الختام، امرأة تقوده إلى مدينة، إلى باريز الليل والأرصفة، عبر مقاهي الأدباء وآتيليات الفنانين ومسارح الأوديون والليدو والكوميدي فرانسيز، يرشف نبيذ بوردو المعتق ويرقص على أنغام الفالس، يشم شذى عطور شانيل ورائحة حساء البصل في سوق الهال، يتسمع إلى أغاني الحب ونشيد المارسييز، وباريز تبدل أزياءها على ضفاف السين وشارع فوجيرار والشانزيليزيه، في غاب بولونيا وشرفات قصر التريانون. وتحت قوس النصر تخلع رداء الساسة والعسكر وتلبس من الحلم، يختمر فيها النزاع بين الله والشيطان، تدافع عن الشرف المسيحي والفرنسي والسريالية، تبحث عن العدالة في الحياة، ترفع شعارات البطولة وصناعة التاريخ والحضارة، وتعلو فوق فجاجة النهار وخشونة الليل، في أوصالها تسري أهواء التمرد، تعيد الاكتشاف الشعري للعالم، تعزف عن المال وتغرق في المتع، تلهو بالاشتراكية ورقصة الكان كان والروليت، تكره المصانع وتقدس البنوك، تفلت من الوهم وتتعثر بالخيال، عالم من الأضواء والنزوات.

تلخصت الدنيا في باريز، وتلخصت باريز في ماري تيريز، العاشقة والمعشوقة.

بدت دمشق بعيدة لا مكان لها على الأرض وهي تترنح حائرة بين مؤيدي المعاهدة ومناهضيها، والرجل المستلقي على ظهره مثبتاً عينيه على رؤيا لم تبزغ بعد، محاصراً بالهجران الأبدي، ذليلاً، قد قصمت روحه مرة ثانية، وليس هناك من يعوضه عن المرأة التي جعلت مجلسها عند قدميه دائماً، والتي أعاد الموت اعتبارها.

لم تستطع سميحة بتفانيها وحدبها عليه أن تهشم الفراغ الذي خلفته وراءها، كانت ـ وقد بدأت تتكشف له، بعد أن تخفت عمراً بأكمله ـ روح البيت المتأججة والمتوارية، عادت تسرد باللمحات الخاطفة والمسترقة حياتها الطيبة من النظرة الأولى الخائفة إلى النظرة الأخيرة المطمئنة، تؤكد حضورها في الجمادات والنباتات، في غبش المساء ورواء الصباحية، لم يخلو فضاء في البيت من أنفاسها وبسملتها، ولم تسلم «النمالي» وموقد زيت الكاز والقدور من حبات عرقها، كانت غير موجودة وأصبحت موجودة، كانت موجودة وأصبحت غير موجودة، أحس بالغبن من تلك المرأة التي سبقته، متنكرة بالموت، وقد كان ينتظر أن تكون هي صاحبة الوجه الأخير الذي سيغلق عليه جفنيه، وفيما كان ينسل من أيام الخميس والاثنين إلى الأيام التي مضت، كان أصدقاؤه ينقلون له التعريفات والتصريحات الأدبية الجميلة التي وصفت بها المعاهدة، «معجزة القرن العشرين» «عروس الشرق» «لم يبق على فرنسة إلا أن تعطينا مارسيليا» واللقب الجديد «حضرة السفير» الذي أصبح هاشم الأتاسي يدعوبه المفوض السامي، وفي الوقت ذاته أخفوا عنه سقوط الليرة السورية التي تدهورت مع الفرنك الفرنسي.

بات يعيش المعاني القلقة للأوقات، الصباح المصمت والضحى الممل، الظهر المتراخي والعصر المقبض، الغروب السقيم والليل الموحش، والمظاهر البائسة للأشياء، الأزهار الذابلة وأوراق الشجر اليابسة، طين الأحواض الجاف،

واشنيات البحرة، «الدرابزين» المخلخل وزجاج النوافذ المكسور، والغبار الذي غطى منسرح النظر.

اعتصم بالصمت على الرغم من فوز رجالات الكتلة فوزاً ساحقاً في الانتخابات النيابية، وكأن الدائرة قد اكتملت باستقالة «محمد علي العابد» وانتخاب «هاشم الأتاسي» رئيساً للجمهورية، وتصديق المجلس النيابي لمعاهدة التحالف والصداقة، في ذروة لن تتكرر ابداً، وأصبحت هناك صورة وحيدة، تسمرت على الحائط، أرضها الساحات التي ازدحمت بالناس المبتهجين وقد رفعوا رايات النصر، وفي مقدمتها الرجال الذين تقاسموا المناصب يخطرون ببذلاتهم السوداء وقمصانهم البيضاء والياقات المجنحة وربطات العنق الصغيرة، وخلفهم المحسوبيات ومساومات الانتخابات ورشاواها، عند هذا المشهد قطع اتصاله الفاتر بالشوارع الساخنة، لكن. . . لم تتوقف جلسات الأصدقاء، ومازال فيها محافظاً على اضطجاعه متصنعاً الاصغاء والتأمل، شارداً بنظراته الباردة، لذا فاته أن يسمع بالعفو الذي أصدره دي مارتيل عن المسجونين السياسيين والمبعدين، وعودة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر واستقبال الجماهير الحافل له، وفارس الخوري الذي لقبه بـ«الزعيم الأوحد» فيما أجاب الشهبندر وفي مقر الكتلة، معرضاً بهم «انني أرمي إلى توحيد الصفوف ولا أريد أحزاباً ولا أعني بالشخصيات»

علق عبد الرزاق السباك ممتعضاً:

- إنه يمزق الصفوف ولا يوحدها.

وانزعج شفيق العجان:

- الشهبندر يريد أن يتزعم الناس.

وهز الشيخ عبد الرحيم رأسه آسفاً:

- لن يتعاون الشهبندر مع الكتلة وإنما سيعارضها، سامحه الله.

لم يخلف الشهبندر ظن المتسامرين الثلاثة، ألف لجنة «التعاون الوطني السياسي» ودعا الناس لقراءة نصوص المعاهدة المعجزة وتفسيرها، مهاجماً الكتلة

«لقد كبلت المعاهدة سوريا بالقيود، عندما أعطت فرنسا حقاً مزعوماً بحماية الأقليات وحق سن القوانين المتعلقة بأحوالها الشخصية». ولم يرض بديلاً عن الاستقلال التام، فيما بادرت عصبة العمل القومي تؤكد «ان المعاهدة ما هي إلا ثمن ابتلاع لواء اسكندرون، دفعته فرنسا من أرض سوريا لارضاء الأتراك».

وعلى الرغم من سفر رئيس الوزراء جميل مردم بك إلى باريز عدة مرات وتقديمه الضمانات باحترام الأحوال الشخصية للأقليات واقامة نظام خاص للخبراء الأجانب، وطمأنة المتظاهرين لدى عودته بخطل الشائعات حول عروبة لواء اسكندرون، كان الفرنسيون يماطلون في التوقيع على المعاهدة.

لم يستطع الشيخ عبد الرحيم بعد استقالة شكري بك القوتلي من الحكومة أن يتجاهل ما يجري وأبدى شكوكه بالمعاهدة لأول مرة، فيما تجرأ السباك وأخذ يتهم الكتلة بالتهاون والتفريط في حقوق الأمة، أما العجان فقد أخذ يتحدث عن سوء ادارتها وتعطيلها شؤون الناس ومعاملاتهم، وأبدى الرجل الراقد مزيداً من الروحانية العابثة، المبالغ بها والمتكلفة، رافعاً رأسه ومتظاهراً بالاصغاء إليهم وهم يعيدون بإضافاتهم المتكررة والعقيمة ترتيب صورة كان قد طواها دون أن يعني بالرجوع إليها والتأكد من محتوياتها الناصلة، وعلى الرغم من ازدياد الأمور سوءاً وتعقيداً بتشكيل دولة لواء اسكندرون، وظهور نتائج زيارة رئيس الوزراء الأخيرة على شكل شائعات قوية، تنازلات جديدة من أجل تطمين فرنسا القلقة، لم يفلح الوصف اليائس للشيخ عبد الرحيم الذي أجمل به المعاهدة:

ـ إنها أحط من الانتداب.

ولا الأحاديث المفجوعة التي كانت تدور أمامه وتلتف حوله، تأخذ بخناقه وتطبق على انفاسه، تضرب عظام صدره وتقرع قلبه، أن تخترق عزلة الرجل الذي صم أذنيه عن الأقاويل التي كانت الأحداث تبرهن على صحتها كل يوم، مصمماً على متابعة بذرة غامضة نبتت في داخله وأخذت تنمو ببطء وعناد، كان يرجىء الموت، يستمهله ويتلكأ، كيف له أن يموت؟! يوسف في باريز وسميحه وحيدة إلى جواره في البيت الكبير، كان ينتظر من الأزهار أن تخرج من أكمامها كي

يحدد موعداً لذلك القادم الذي لا ريب فيه، يتفادى الحاحه ويؤجل ميقاته، رفع رأسه وقد تفتحت، وسأل سميحة:

- كم عمر أمينة؟

أجابته:

- ستة عشر عاماً.

كان قد عثر عليها، تلك الطفلة التي لم يشهد ميلادها، تدرجها وبلوغها، وانما رآها بالخيال، أخرجها من زقاق البركة وجعلها تتمشى في باب سريجة، وعندما وصلت إلى الجادة الرشادية، أراد التأكد من ملامحها، وعاد يستفهم:

- صفيها لي.

أعادت سميحة إلى ذاكرته ملامح الراحلة، . . . وكان على أمينة أن تحل محلها، غاب لأيام عن النوم والطعام، ثم قال لها:

- اكتبي ليوسف كي يعود.

احتجت سميحة. كرر دون أن يصغي اليها:

- قولي له أن يعود.

عندما قال له ستتزوج أمينة، كان الوهم المتماسك أشد وقعاً من الحقيقة البعيدة، قرر أن يفصم علاقته بأمينة قبل أن تبدأ، وأن يتملص من رؤى أبيه وأوجاعه وطيف أمه الرؤوم وسميحة التي ترقب مايجري صامتة، ودمشق. . دمشق التي بدت وقد لامست قدماه ترابها، قصية عن العين والقلب، باهتة العقل والروح، تعاند أقدار الحضارة، تبتدع مآسيها وتذوي كالحة، يهرب منها وهو يغوص فيها مقارباً يفاعته في مكتب عنبر ويلمحها حلماً عزيز المنال، وكان متأكداً أنها ستغيب عن قلبه قبل عينيه في اللحظة التي سيدير لها ظهره.

أمران كان عليه أن ينجزهما، أمينة التي رآها منذ ثماني سنوات، طفلة ناعسة، والآن فتاة ناضجة، قد توهج وجهها بحمرة الخجل وتلونت عيناها بالخوف. أطفأ الأضواء وأغلق الستائر على ضوء القمر، ثم . . . وأصبحت أمينة امرأة في السادسة عشرة من عمرها، تجربة مبهمة، مريرة ومؤلمة كان عليه

اجتيـازهـا، كي يواري العجوز التراب، العجوز الذي أبقاه ليلة بكاملها مواجهته أرقاً، فيما هو مفتوح العينين يسلسل بنظراته عقوداً من الحياة والبيات، لم يجرؤ أن يفند تأملاته الخارقة وهو يحاول أن يكتب له مصيره، فيض من الرجاءات والآمال التي عزم أن يحبطها دونما انتظار وهو يقاومه بالصد والقصد، وعند الصباح أسلم الروح.

انطلق إلى باريز خالعاً عنه النوايا والمصائر، معافى من الحسرة والبكاء، كان وهـو يرقب لجج البحـر يتـلامح على صفحتها ماض بأسره، بشهده ومره، يتقلب مسهـداً بين القـرارة والثبج، يخرج من الماء ويدخل في الزبد، يفلت من أبيه وتتلقفه ماري تير يـز، لاحت اليـابسـة وانسـل من التخمينات مخلفاً وراءه البقايا الأخيرة من الرجل المقعد، لكنه عندما دخل غرفته وركن حقائبه، استدار ليجده أمامه.

كان الـرجـل المقعـد الذي تركه تحت التراب، واقفاً على قدميه، خاله يريد أن يبثـه نجـوى فاتـه أن ينشدها وهو بين الحياة والموت، والآن وهو في الموت، يأتي إلى الحياة كي يؤنبه بلطف ثم يقسره، لكن الرجل المنتصب القامة تجاهله وتقدم نحو النافذة. فتحها على مصراعيها وأشار بيده إلى المدينة الوالجة في الليل وسأله بخفة:

ـ ما الذي سوف تفعله هنا؟

كان خفق أقدامه على أرض الغرفة، ايذاناً بأن على واحد منهما أن يمثل دور المقعـد، جلس قبـالـة النـافذة يفكر طوال الليل، والخيال يذرع المكان جيئة وذهاباً، يجدد بخطواته وصمته، التساؤلات والأمانات والتكاليف.

من أين يبـدأ من دي مارتيـل الـذي انهيت مهمتـه وسبقه إلى باريز؟ أو من الكتلة التي بدأ عقـد أفـرادهـا ينفـرط بين الوزارات والبيوت، وتتحـلل في شوارع يملؤها الصراخ وأبنية تضج بالمهاترات؟ أم من ماري تير يز؟ اذا كان هو في جانب فماري تير يـز في الجـانب الآخـر، ومـا يربطـه بدمشق ليس الحب والكره، وانما المصير، والوطن ليس بقعة الأرض التي يقف عليها.

في ظلام الغرفة كانت ماري تير يز تهمس في أذنه مواسية

- المعاهدات ما وضعت إلا لتخرق.
يجيبها:
- العدالة ليست فرنسية.
تجيبه:
- الوطن مأوى.
يسأل:
- وأين تجد الروح مثواها؟
تقول:
- الأرض واحدة والفضاء واحد، والدنيا أماكن نطلق عليها الأسماء.
قال:
- اللغة كلمات ومواجيد.
تجيبه وهي تتخفف من ملابسها، تطلق الجسد وتشعل رائحة الوله.
- للحب لغة واحدة.
تغطي ساحة المرجة بساحة شاتلييه وتخفي جنينة النعنع تحت حديقة اللوكسمبورغ، تبدل كراسي القش في مقهى «علي باشا» بمقاعد «الكابولاد» الأنيقة، تموه شهداء الغوطة بشهداء فردان، والفرنسيون الغلاظ يتنكرون بملابس الفرنسيين اللطاف
أوقفها:
- الحب لا يتكلم بلغتين.
كانت وهي تتألق برعشات جسدها، ونبضات قلبها ونعومة أصابعها، تمتح من الليل حلكته ويستل من جسدها بياضه، يُغيبه ويُغيبها.
عند الصباح استوقف الرجل الذي لم تكل قدماه وأجابه:
- سأعود إلى دمشق.
أغمض عينيه وأسلم الروح ثانية.
أمام قبري والديه اللذين تجاورا في المهات كما في الحياة، وقف مع سميحة

ممسكاً بباقة الزنبق الأبيض التي انتزعها من الأصيص المغمور في مياه البحرة، وزعها على الشاهدتين وربطها، ثم أخذ يقرأ الفاتحة على روحيهما، فيما سميحة تسكب الماء على أعواد الزنبق، مسح وجهه وأرخى يديه. أتاه من صمت القبر ترتيل أبيه وهو يقرأ القرآن، وارتد واقفاً في الدوار مصغياً عبر باب «الفرنكه»:

«ولما فصلت العير قال أبوهم اني لأجد ريح يوسف لولا أن تُفَنّدونِ».

«قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم، ولما أن جاء البشير ألقاه»

«على وجهه، فارتد بصيراً، قال ألم أقل لكم أني أعلم من»

«الله ما لا تعلمون».

- ٣ -

أبعدت اللحاف ووطأة الأرق عنها، وانسابت بقميص النوم حافية القدمين فوق نعـومـة وبر الصوف، تتنقل بين الضوء الشاحب وطراوة الظلال، وتتماثل من السهـاد على أصـوات اللغط الآتية من الحارة، والنور الذي تكسرت مفاصله عند الشبابيك المغلقة.

ـ مزيداً من الضوء يا دادا.

تحاوطتهـا الأنوار والرجع البعيد لجلبة البشر والعربات والسيارات، جلست على المقعـد الصغـير. أمـامهـا المـرآة وخلفها دادا خديجة متشاغلة عنها، تشهد من طرف خفي عودة الخـانم إلى المـرآة متـوردة الخـدين قد نفضت آثـار الجفوة عنها، تهجـر الخص وتلتجىء إلى صورتهـا المؤطـرة بالصـدف، أصابعها تلتقط المرود، تدســه في الكحـل والعـين تطبق عليـه، تسحبـه وتفتـح عينيهـا ويظهـر في المقلة رجل... رجل رآه صبي في طاسة..

ترددت دادا خديجـة ثم انحنت تبسـط المسبل الأبيض عـلى الفراش، فيما خرج الرجل من المقلة المأخوذة وأخذ يتجول فوق السطح الصقيل، هيئته تتوضح وملامح وجهه تغيم، تمرر قلم الحمرة على شفتيها وتمعن النظر فيه، ترش الذرور على عنقها وتلاحقه بعينيها.

تُفلت دادا خديجـة طرف المسبـل من يدهـا وهي ترى امـرأة المـرآة تستـدير

نحوه، كاشفة عن زنديها ومفرق ثدييها، تاركة الثوب ينزاح عن ركبتها وهي تضع قطرة من زيت الفل على راحتيها تمسح به وجهها وجيدها، ترامق الرجل وترقب سكناته. تنتفض دادا خديجة وتبرز، تقاطع الرجل الذي كاد يتكلم، يتراجع، والمرأة تسارع وتخفي ما ظهر منها، تصفو المرآة ودادا خديجة تتظاهر بترتيب المخدات والمساند، والمرأة تتلفت باحثة عن الرجل الذي توارى في لمعانها.

باتت الحركات حذرة ومتوترة، الخانم ترسم ذيلاً رفيعاً لحاجبيها والرجل يرسم طريق أوبته، ودادا خديجة لا تستسلم للهدوء المشحون، تخشى الأسرار المخبوءة ولا تطمئن لمراوغة المرآة، انكفأت متراجعة عن صرير النهار ترصد الصرير الأملس، لكن لم يبزغ من المرآة!!

أيّهم هذا الذي يتقدم من الركن الداكن جوار الخزانة، يزيح ستره ويقتحم فرجة الترقب ويبطل المحاولات المكتومة والمفضوحة؟!

وقف متهدل الأكتاف، عليل البدن ومنطفىء النظرات، سعدي العاجي... يرجع غير آبه بالموت الذى طاله منذ خمس سنوات، يستعيد الصباحات الخوالي دون أن يلقي تحية الصباح، يستعير مواعيده ولا يخرق مواقيته، سعدي العاجي الذي أنكر الشيب وفارق العمر والأوجاع الدورية، يجلس على حافة الفراش، يشكو من رطوبة القبر ويعاتب، متسائلاً بحزم عن الرجل الذي نسج من الخيال وتجلى على المرآة، الرجل الذي أعلن العطار عن وجوده بدلاً من أن يؤكد بطلانه، ثم خط له اسماً وأبصر له تاريخاً.

تهدئه دادا خديجة:

- ست الشام تعتصرها الوحدة والكآبة.

يعترض غاضباً، وتتابع بأسى:

- هفوة يا سعدي.

أعادته هفوتها وقد غض الطرف عن موته إلى الحياة التي لم تغفله، عندما قال له المختار وسط جمع من وجهاء وأكابر الحي:

- هل تقضي دون ولد يحمل إسمك وأنت شيخ كار!؟!

ـ زوجات أربع لم ينجبن، أخليت سبيلهن، والنفس لم تعد طلب الأنثى.
ـ ولد يحيي ذكرك.
ـ عروقي نشفت.
احتجوا قائلين:
ـ اعزم وتوكل على الله.

تدفقت الخاطبات وكل منهن تدله على واحدة، وعشق ست الشام بالسماع، شنف أذنيه لملامحها أطربته تقاطيعها وكبلته أوصاف أعضائها التي تتلون في الغداة إلى الحمرة وفي العشي إلى الصفرة، انقطع عن الخانات وأهمل حمولات القمح والبرغل والسكر وبات مربوطاً معها في الديار وهي تحمل المكنسة بيد والسطل باليد الأخرى، على السلم تنفض الغبار عن الزجاج الملون، وفي المشرقة تصف صواني مربى البندورة.

كانت وحيدة أبيها بعد أن فقد ولديه، الأول في «جناق قلعة» في حرب البلقان، والثاني في ميسلون بمدفعية الافرنسيين، وماتت زوجته في مجاعة السفر برلك كي تطعم صغيرتها. تقدم من أبيها يطلبها، لكن أباها رفض مصراً أن لا يزوج صبيته لعجوز في السبعين من عمره، وبذل المال والوساطات دون جدوى.

تدله في حبها ولم يرها بعد، وأوشك أن يطوي خيبته وجرح آخر العمر... إلى أن لمحها في جمع من النساء يقصدن حمام «الجوزة» عرفها على الرغم من الملاءة السوداء، أيقظته التقاسيم المحجوبة التي اكتملت، وانبرى متعطشاً يتسقط تفاصيل جسدها، لكن الاجابات لم تشف غليله.

اشترى الحمام... وفي النهار الذي تحل فيه ست الشام، كان يحجزه ويحل به طوال الليل.. بين الجدران الساخنة والأرض الحامية، تحيط به عاملات الحمام، يأخذ أنفاساً من النارجيلة مستمعاً اليهن، ومقتفياً آثارها.. من اللحظة التي تكشف بها عن وجهها إلى اللحظة التي تدير ظهرها خارجة، متدرجاً في النار والماء والجمر، والكلمات تحرق أسماعه وتخيلاته.

تستقبلها المعلمة في البراني، تخصها بالترحيب وتأخذ عنها ملاءتها، تبدأ

بنزع ملابسها فيما ترفع المعلمة الفوطة البيضاء المقلمة بالأحمر عالياً تحجز بينها وبين العيون، تترك آخر قطعة تسقط على الأرض، ويلمع جسدها ومن ورائها النوافير، عروس من البحر قدت من المرمر، تشق الماء وتلتحق بالبشر. في الوسطاني لا يلمحها من القمريات بل من عيون البلانة وزقاقة البارد والناطورة، يراها منتصبة الجذع عند المصطبة تتشرب بالدفء والوهج، وفي الجواني تنتحي في مقصورتها، جوار الجرن تخلط الحار بالبارد، شعرها الفاحم ينسدل على نحرها يغطي صدرها وبطنها، والفوطة تستر فخذيها، تغسل شعرها والبلانة تفرك لها ظهرها، تتخمر بالحر والبخار، والحجر «المزّاوي» يختلس لونه من جسمها المورد.

يصفون له الروائح الزكية لجسمها وفمها، ويعرضون له نضارة ملامحها وصلابة ثدييها، ليونة بطنها وثقل ردفيها، امتلاء فخذيها وانسكاب ساقيها، وبشرتها التي تتبدل من الأبيض إلى الزهري إلى الارجواني، وعندما تلفها المعلمة بالفوطة الحمراء المقلمة بالقصب تبدو وكأن الشمس شاطتها بخيوط من ذهب.

. . . هنا داست قدماها الأرض وإلى الجوار رمت شلحتها، وهذه البقجة ضمت حمالة ثدييها وقمصانها وسروالها، وفوق المصطبة تراخت اعضاؤ ها وبدلت مناشفها، وهذه هي المناشف التي بللتها، وهنا تأودت فوق تربيعات الرخام المشقف واستلقت على الرخام والحجر، وتلك مقصورتها التي شهدت عريها وسهوها، وهذا جرنها الذي أخذت منه ماءها، وهذه أمشاطها وملاقط شعرها . . وهذا . . . وهذه . .

. . يلتف بفوطها وينتعل قبقابها، يأوي إلى مقصورتها ويصطفي جرنها، يمرر فوق صدره ليفتها ورغوة صابونتها، يتدلك بكيسها ويفرك عقبيه بحجر خفانها، يلتصق بالجرن ويرش جسمه بالماء الذي سال على جسدها، ولا يخلطه، الساخن لا يلسعه والبارد لا يرطبه، يطلي بطنه وظهره بالشّدّاد ويمشي فوق بيت النار، يتقمص الشباب ويتحرر من أرذل العمر.

مات ابوها وأصبحت وحيدة بين الأعمام والعمات، وارتد يطلبها، صمت الجميع، وارتفع صوت ست الشام . . . أقبل به زوجاً.

استلهـا من الجمـع الصـامت وأودعهـا البيت الكبـير بين خزائن وكنبـات المـوازييـك والصنـاديق ذات الأدراج الموشحة بالرقش العربي والنقش الفرنجي، أسـرة النحـاس ومخـدات ريش النعـام والفرش المحشوة بالصوف والقطن والمغلفة بالصـارمـة المخملية الـزرقاء، وهي في وسطهم تحفة خارقة من لحم أبيض وعيون براقة، مزينة بحبال الذهب وضفائر الحلي والكرادين والمناطف، مزخرفة بالأثواب المـزركشـة والقـزيات الخمرية، والتلي الأسود ومدربيات الأطلس، والأكمار المفرّاة والقبـاقيب الشـبراويـة المطعمـة بالصـدف، نضـدت جوار تحف الصيني والأواني البّلوريـة وثـريـات النجف، ورسـوم الفـراديس، تضيئهم شركـة التنـويـر والجـر البلجيكية وقناديل الكاز.

لذائـذ العمـر كله لم تكافىء متعة السنة الوحيدة التي أمضاها معها، يرتعش من مسـراهـا ويصمت في حضورها، ترتجف يداه وركبتاه عندما تقدم له القهوة، تقعـد على مقـربـة منـه بثـوبهـا الحـريري وقد انبسطت أكمامه في حضنها وانطوت فتحاته في باطن فخذيها، ونفر الغزال المطرز على صدرها. كان جدب السنين لا يبـدده الا ملاءة اللحظـات السـرية وبهجتها، لم يحس أنها ملك يمينه، ولم تستطع الأصداء الوانية من العمر المديد أن تجعله يظفر بها حتى يظفر بالولد، خاف على الجسـد الـريـان من الجسد الأعجف، وغار عليها من عينيه وأصابعه، وصانها من رغباته، وكاد أن يقول لها مراراً:

ـ . . . انت لم تخلقي لي، لكنها أهواء.

والليـالي تمر مترعـة بـأشواق لا يجاريـها، وشـآبيب من الـوجـد لم يألفهـا، وشهـوات لا يجربهـا، صبـابـة العـين والفؤاد، وهي دائـماً فوق الـزخرف والأشياء والتمنيات، هادئة ووديعة، نزقة وأنفة.

صرخ في وجه دادا خديجة:

ـ ست الشام لم تخلق لي ولا لغيري.

كيف تحبـط نزوة جامحـة، لمعت من نقطـة حبر؟! وأين يكمن لها وقد اختار مكـانـه، معلقـاً ومصـوراً على جدران القـاعـة، عنـد جداول اللبن الـرقـراقة،

والطـــواويس المـزهـوة بين الأشجـار الـوارفـة التي لامست سماء السقف الـزرقـاء الصافية، والأعشاب الخضراء المتوغلة في أنحاء الغرفة الأربعة، بين عصافير الجنة والحمـلان الـوديعـة والحيـوانـات الضارية المتآلفة مع أشباه الرجال والحور العين، وإلى متى ستـواصـل أسرة العاجي تخفْيها، تبدل ألقابها من القباني إلى البيطار، من الحفـار إلى الشـريف، ومن الصـافي إلى السمان. . ؟ وست الشام تنبذ النعيم وتتلمس الجحيم؟!

ـ أعيدوه إلى الطاسة.

تجيبه دادا خديجة في سرها:

ـ حميتها من الواقع ولم تحمها من نقيضه.

كانت المرآة وهي تتسع ويترامى اطارها، تقسر الخزانة والبير و والنوافذ على الابتعاد، وسعدي العاجي يخطو فيها ضائعاً ومتحيراً، يتشبث بملاستها ويغور في قعـرهـا، عـاد الرجل يبحث عن المرآة التي كشفت له عن مفاتنها، تتوضح هيئته ويخطر وحيداً في لب المرآة، يتلفت يمنة ويسرة والمرأة تتابعه بعينيها، تحاوره بالهمس وتختبىء، تظهر تناديه وتختفي، ثم تتقدم نحوه ولا تنتظر.

هبت دادا خديجة تنبه الخانم إلى ألعاب المرآة التي تُغيّب الرجال:

ـ تخلصي منه يا خانم.

تتفاداها وتدس مشبك الماس في شعرها، وعندما ترفع رأسها تفقده.

ـ دعته امرأة أخرى وجرى وراءها.

استعادت قلق الليل وخداع السحر، وأدركت أن من عاد وتزوج لم يغلق في وجههـا اللقـاء فقـط، وانما أشهر عبث الموعد والوعود، مدت يدها حانقة وأزاحت زجاجات العطور وأقلام أحمر الشفاه والأساور والأقراط والأطواق.

ـ يا خانم افهمي، يوسف سرحان عاد ولم يعد.

ـ قولي للعطار أن يقتله.

ـ اذا كان داؤ ك فلن يكون دواءك.

ـ قولي له أن يعذبه قبل أن يميته.

ـ ستنجين منه **وترتاحين**.

والمرآة تعكس على صفحتها الخانم ودادا خديجة، وتعيد توزيع الأشياء داخلها.

ـ أريـد أن يشغله عن النـوم ويجعله يهيم بين الصـالحيـة وسـوق الحميدية، يضرب رأسه بالجدران، يبكي ولا يعرف لماذا.

خفتت الأصـوات ونشيجهـا يعلو فوق الكـلام، يبعثـر النهـايـات ويعيـد ترتيبها، . . . لا يكاد الرجل يقف حتى يسقط متخبطاً بدمائه . . . لا يكاد يأخذ نفسـاً حتى يختنق . . . لا يكـاد يتلفت حتى يُغمـد خنجر في ظهره يرديه قتيلاً، ولم يعد هناك في أسماعها سوى الصوت المدندن بحشرجة النزع.

حينـما اطمأنت للدم والأسلحـة، رأتـه ينجو من نهاياته المتوالية ومن عثراته المتتـاليـة، وبـدا هذا الـذي يتظاهر بالموت . . . لا يموت، وانما ينهض من كبوته، المـرة تلو المـرة، مبعـداً عنـه تراكيب الاحتضـار المفتعلة. يـدفـع البـاب، يعـبر الدهليز، يتخطى الدرجة الوحيدة، ويسير فوق هندسة البلاط، المربع يؤدي إلى دائـرة . . . والـدائـرة إلى معين . . . والمعين إلى مربع، سلسلة شُكلت كي تقوده إليها، يتردد أمام شجرة الكباد، لا يبعده عنها سوى الدرج الذي يصل بالفوقاني، وكـل خطـوة تقـربهـا إلى الـرجـل الذي شغل التحتاني ووضع قدمه على الدرجة الأولى، تتصل به وهي تجهد كي تنفصل عنه، تستسلم بين ذراعيه وهي تتهيأ كي تنشب أظافرها في صدره، زفرت بحرقة:

ـ أريد أن أراه.

ورأتـه كما لم تره من قبـل، جليـاً ناصـع الصـورة، لا ينظر إليها وإنما يشيح ببصـره عنهـا، لا يقـترب منها وانما يبتعد عنها، منسحباً من أشيائها، ويقف حيث يجب أن يكون، عند مدخل بناء العابد، ثم يغذ خطاه مسرعاً في طلعة «رامي»، يمـر أمـام سينـما الفـاروق وينعطف في اتجاه موقع الدرك، يتابع سيره ولا يتوقف، ويدخل دائرة «الطابو».

نزلت عن الرصيف وانتقلت إلى الجزيرة المواجهة في منتصف الشارع، وتوارت بين اشجار الزنزلخت والعفص، ترقب مدخل دائرة «الطابو»، خرج عائداً أدراجه في شارع جمال باشا وهي تتابعه من خلف المرجان والشمشير، ماراً أمام المدرسة الحربية والمولوية، حتى وصل ساحة الحجاز وأكمل سيره إلى فندق فكتوريا، ألقى نظرة على مقهى «اوليمبا»، ثم دخل وانضم إلى جماعة من الرجال المتحلقين في زاويته.

تمشت على الرصيف الملاصق، تتلهى بالتفرج على معروضات محل شفيق فرن للأدوات المنزلية، والصور السياحية لشركة الطيران الشرقية، وفندق خوام وقد ظهرت فسحته السماوية تتوسطها بركة ماء تحيط بها الأشجار، وهي تتلفت نحو المقهى.

تحيرت دادا خديجة:

ـ ما الذي يجري؟

ـ أنتظره.

ـ من؟!

ـ لقد ترك «اوليمبا».

دهشت دادا خديجة من الخانم التي تنشط محمومة في الشوارع وهي مسترخية على الفراش.

ـ سيفوتك طعام الغذاء يا خانم.

خرج مع صديقه يتمشيان على ضفة بردى، قطعا ساحة المرجة ثم توجها إلى طلعة السنجقدار، يتجولان على غير هدى ثم دخلا مطعم علوان.

. . . والخانم تتسكع بين الفنادق، تتلكأ عند الأموي وعابدين، وتتباطأ بين قصر الزغفران ورغدان، ثم تجري وراءه في الحارات والأزقة، وتلحق به بين الأبنية والمكاتب.

ـ دخلنا في الليل يا خانم.

يحث خطـاه وحيـداً في زقـاق البحصــة الجـوانيـة، ينعطف في دخلة الشيخ رمضان، يخرج مفتاحه، يفتح الباب ويدخل:

ودادا خديجة ترجوها:

ـ دعيه.

تطـالعـه امـرأة، يدعـوهـا سميحـة، ويتحدثان عن أمينة، تلتصق بالباب مصغية اليهما، تتراجع وتطلق صرخة مخنوقة.

ودادا خديجـة، تمسـك قنـديل الكاز بيد، وباليد الأخرى تمسح لها عرقها، والخانم تلهث ثم تنجح في أن تطلق صرخة مذعورة وقد أدركها اليقين:

ـ أمينة.. أمينة في المخاض.

- ٤ -

أحجم يوسف سرحـان متـوجسـاً في «الـداور» وقد انقطعت صرخات الألم المجنونة، ولبد الصمت المتوفز بينه وبين باب الحجرة المغلق، حواراً كثيفاً ومتوتراً، وهـو محبـوس بين درابـزين الـدرج وأشبـاح أغصان النارنج والليمون المتلاحمة من الشبابيك، عندما شقت السكون صرخة الوليد الباكية.

لم تستطـع أذنـاه أن تؤ نث الصـرخة أو تذكرها، أدار مقبض الباب، وبدا الضـوء المـرتعش للفـانـوس مخنوقاً بلهاث البسملة والحوقلة، وأمينة المستلقية على ظهرها فوق الفراش الممدود على أرض الغرفة قد أفلتت من الدورة المؤلمة للوجع صامتة.

أخفق في هذه العجـالـة السـاكنـة أن يستجمـع عنـاصـر المنظر القاتم وقد اختلطت خواطـره بلون الـدم، وامتـزجت العتمـة المشوشة بظل القابلة أم حسين الـذي استطـال إلى السقف وهيمن على الجـدران، فيـما تبعثـرت حولهـا الكتـل المبتهلة للنسـوة الثـلاث، مستكينـة في الظـلال، وصـرخات المخاض الجارحة ما زالت تخفق تحت السقف العالي ذي العوارض الخشبية.

انتصب بقـامتـه المتحفزة، مسلطا فوق الرؤ وس، وعيناه تقدحان شرراً من المحجـرين الـداكنين، مضيئاً الهمسات الجذلة والجسد الغض المتلوي بين اليدين

العجفاوين وقطعة اللحم الصغيرة المتهدلة بين الفخذين، انقطع صوت الوليد فجأة، ورزح الهلع على الوجوه الباهتة، كان الوليد يختنق.

سارعت أم حسين تبعد حبل الخلاص عن رقبته وتقطعه، ثم امسكته من عقبيه، دلته وصفعته على اليتيه، وعندما علا صوته، التفتت وأعطته البشارة، ولد يبكي وزوجة ما زالت تحت ألطاف الله.

تناول الطفل بيد، وباليد الأخرى أخذ الفانوس وانسحب تاركاً الأشكال تتبخر، فيما كانت المرأة التي ولدت بضعة اللحم والعظم تدلف مستريحة في الموت، متأبطة البشارة والوحدة، تخطر بين ظلمة المكان وظلمة العدم، معتقدة أن الليل الطويل المضني قد أفل وبرق بعده النهار الجميل في صرخة الوليد التي ما زالت، وما زال صداها يتردد في أنحاء الزمن القادم، وها ابتدأت الليلة التالية التي لم يلح صباحها بعد.

لم تتمكن أيدي النسوة التي أخذت تتلمس الأشياء وتصطدم بخيالاتها أن تكتشف الخطوات المتسارعة للمرأة المتهاوتة لتندس في الزمن المقفل، إلا عندما أحست أم حسين أن ما يبلل مؤخرتها لم يكن عرقها المتصبب من ظهرها، أوماء الطشت الفاتر، وانما هو دم الولادة اللزج.

بينما وقف يوسف سرحان معلقاً الفانوس عالياً على مسمار في الحائط، محتضناً الطفل، يتأمل تقاطيع وجهه المنمنمة، متشمماً ضوع زهر الليمون مقترناً برائحة حياة تستهل لحظاتها الأولى. انكشف قماط الشاش الرقيق وظهرت الأعضاء النضرة، لم يتمالك نفسه، ضمه اليه بحنان غير مفهوم، وعبق صدره بحب أعمى، وقرب شفتيه ملامساً خده.

كانت تكمن في هشاشة اللفافة الصغيرة، البليغة والمستعصية، أسرار الخلق والخالق، في هذه النجمة اللدنة التي يحملها بين يديه والملقاة اليه من السماء المغلفة بالليل والحكمة، هدية حافلة بالفتنة والسحر، مضيئة القلب والزمن في حياة جفت عروقها ونزعت عنها ألغازها، كان يتلمس ونظرات الوليد تشرد على وجهه، مشاعر غامضة وممتنعة تعيد اليه روحاً هجرته منذ زمن.

. . . وكأن وجـوده الآن وبعـد ثلاثـين سنـة في الـدنيـا قد اكتسب في هذه اللحظـات معنى مؤلمـاً وشـائقـاً، عمـره قد انتهى لكن هاهـو يتكـرر ثانية، يبدأ بالتكون من جديد، في هذا الذي خرج من الوعاء الذي أودعه فيه.

علا صرير الباب، اقتربت سميحة منه:

ـ أمينة تنزف، يجب نقلها إلى المستشفى.

أدار وجهه عنها، تابعت:

ـ هذا اذا لم تمت ونحن في الطريق اليها.

أيقظته من خواطره، لكن ما أراده من أمينه أخذه قبل قليل منها.

ـ افعلوا ما تريدون.

وقفت أم حسين جوار الباب، ولحقت أم أمينة بهما وهي تتوسل اليه بعينيها، ناول الطفـل لسميحـة، كان تتـابـع المنـاظر قد انتهى، توجه نحو الدرج دون أن يعنى باللغط الذي أثاره.

كانت الحـارة ساكنـة وخيـالات الأنـوار الخـافتـة للشموع والقناديل متناثرة من زجـاج إلنـوافذ العالية وخلف الأخصاص، تابع الى «البحصة البرانية» ألقى السـلام على الحـارس أبـو عبـدو وهو يدق بعصاه على أغلاق المحلات يتأكد من أقفـالهـا، وامتد الزقاق مشبعاً بالقتام وهو يحاول أن يتلمس بقدميه الطريق، سمع مواء قطـة حاد، أحس بالـرهبـة وسـارع خطـاه، لمح بصيص الشمعة عند مدخل بنسيـون «مـدام كورينـا»، انحـرف وطـالعه محل الكواء أبي أنطون، تنهد بارتياح وصوت خرير مياه السبيل عند جدار جامع «الخانقـاه اليونسية» يصافح سمعه.

أطـل على شارع فؤاد الأول وظهـرت أعمـدة الفـوانيس المطفأة على امتداده، وقف في وسطه يتنشق عبير ليل مفعم بالبهجة، محـدقاً في الأشجار التي تمايلت على طرف الـرصيف بنشـوة مبهمـة، أدار ظهـره لذبـالات الشمعـدانات المترامية من فندقي فكتوريا وخوام، وضع يديه في جيبيه، وسار فوق سكة الترام، مدمدماً:

قلبـي لو مال لغـيرك يبـقـى على الجـسـم غريـب
وانـت لو تسأل ضـميرك ما تلاقـيش غيري حبـيـب

اشتعلت في داخله «ليـزا» في الشـارع الـذي خلا من السكـارى ودوريات الـدرك، وتخيلهـا فوق الكـرسي الـدوار عنـد البار، تترقب دخوله من باب الملهى وهي ترمق المـوجـودين في المـرآة الكبـيرة، تعب من الصـودا ريثـما يصل ويقدم لها الويسكي، لكن في هذه الليلة سوف تعوز ليزا الكلمات وتعوزه التفسيرات، ومهما أطنب في الشـرح فلن يتفـاهما بالفـرنسيـة التي تجهلهـا، ولن تفلح الإشـارات والكلمات القليلة التي تعلمتهـا من العـربيـة، والتي تعلمهـا من التشيكيـة، أن تشـاركـه المعـاني الطـارئـة التي لم يستـوعبها بعد، سيكون وحيداً بين الارتيستات والندل والرواد المترنحين، والموسيقى الخفيفة، لن يؤنس ليله سوى كريم الحجار.

تابع يضرب بقدميه في أزقة سوق ساروجة الضيقة، وهما ترتطمان بالأحجار الصغيرة، في حارة النهر أمسك بحصاة طوح بها إلى نافذة، ونادى على كريـم.

التصق بالجدار الطيني الرطب، وكريم يسمع منه الخبر، لم يلبث أن أطلق صوتاً قوياً وهو يكبت ضحكة عالية:

ـ أصبحتَ أبا!!

مضيـا معـا، يتـوكأان الـواحـد على الآخـر، يشقـان الليـل ويتـوغلان في تعرجات الحارات المتلوية، ويوسف قد انبسط لسانه:

ـ لن أستطيع النوم ولا القعود، كأن شيطاناً رجيماً قد ركبني.

* * *

رجعت سميحة إلى البيت بعد أن أخفقت مرتين، الأولى عندما لم تعثر في ساحـة المـرجـة على عربـة خيل أوسيارة، والثانية، أنها لم تجد في عيادة الدكتور ملكيـان سوى خادمتـه العجـوز نائمـة، خيـل إليها أن هذه المصادفات السيئة قد

دبرت بحذاقة ورتبت بالقسر كي تجبر أمينة على الرحيل دون مماطلة، واستسلمت أم حسين صاغرة للقدر الذي خبرته مراراً يضرب ضربته القاضية بحمى النفاس، والآن وجدت التفسير الملائم، لقد انتهى عمرها، وما خلاء الشوارع، والنزيفُ وغيابُ الدكتور ملكيان عن عيادته سوى أعذار واهية.

بينما كانت أمينة قد خرجت من الغيبوبة الصغرى وداست في الغيبوبة الكبرى، ثم تراجعت مترددة ولبثت في الفرجة الصغيرة بينهما، تختار وتحتار، والنسوة الثلاث حولها هلعات، يسمعن أناتها ويلمحن خورها تحت الضوء الواني، مكبلات بالافتراضات الربانية، واعتقدن واجمات انها ستمضي دون أن تتلفظ بحرف واحد، وتتركهن أمام جثمانها حيارى، لا يفهمن كيف قفزت هذه المسجاة التي لاتبدي حراكاً تلك المسافة الغامضة الفاصلة بين الحياة والموت.

على حين غرة، أجهشت أم أمينة بالبكاء، طاش صوابها، أيقنت أنها تشهد اللحظات الأخيرة من الاستلام والتسليم، أخذوا ابنتها الصبية وأعطوها لفافة صغيرة من اللحم بدلاً منها، ورأت بعينيها المخضلتين بالدمع حياة متكاملة، مبتداها كانت هنا في بطنها، ومنتهاها الآن على الفراش جوارها، وكأنها تخلت عن ابنتها ليوسف سرحان في ذلك اليوم وإلى الأبد، يحبسها في غرفة ريثما يقبرها عارية من الدنيا كلها في مقبرة «الدحداح»، هبت واقفة تجأر بالشكوى، تضرب بيديها على صدرها وقد سكن في روعها أنها تقرع أبواباً مغلقة لن تفتح لطارق، واستيقظت سميحة من شرودها على وقع قبضتيها، ووجدت أن وساوسها أشد سواداً من العتمة التي في الخارج، ونفرت من فكرة رحيل أمينة المضطجعة بكل هدوء، وبهذه السهولة المحيرة، مشيعة بهذا الجعير الحزين الممسوس، وخطر لها فجأة ذلك الطبيب الذي أقسمت أمها على ألا يدخل البيت ثانية، وقررت أن تحنث بيمينها، نفضت عنها خبلاً، لبد في مؤخرة رأسها، وقبضت بكل قوتها على معصمي أم أمينة، غارزة أظافرها في رسغيها، وهزتها بقوة، تسكتها بأعلى صوتها، لكن الأم التي فهمت شيئاً لم تفهم اشياء، ما الذي

سيفعله الطبيب بعد فوات الأوان، وهل ستنتظره المخلوقات النورانية ريثما يأتي، يفتح حقيبته ويخرج نظاراته وساعته ثم يبحث عن قلب ينبض؟!

اعتقدت سميحة وهي تهرول في الأحمدية وسوق العتيق وقد أمحت منهما الباعة والنداءات والدواب واختفت عربات الفواكه والخضار، وجللت بسطاته بالشوادر، إن الأغطية نذير شؤم يرافق سعيها ورجاءها الأخيرين. رفعت السقاطة وهوت بها على الباب، ظهر الطبيب حسن حكمة حاملاً حقيبته ومرتدياً ملابسه الكاملة، تراءى لها أنها على موعد معه، أغلق الباب خلفه ومشيا معاً دون أن يطلب أية إيضاحات، اعتقدت أنه يظنها امرأة أخرى، وحتى تزيل اللبس أوضحت له أنهما ذاهبان إلى البحصة الجوانية، بيت أبي يوسف سرحان، اكتفى بهذا القدر مستنتجاً أن مهمته هي التوقيع على صك وفاة العجوز الذي تأخر موته عشر سنوات عن الموعد الذي حدده له، كان مريضه الأول وصدمته الأولى ولهذا لم يغفر للعجوز الذي توافرت فيه شروط الموت كافة أن يستمر بالعيش على الرغم من الأعراض التي لا تخطىء، أغفل كل الأسئلة الضرورية، وتركها ـ وقد عرته نعسة ـ تتكلم وحدها من القرماني إلى البحصة الجوانية، دون أن يدنس أصداء سهرته بالاصغاء إلى وصفها المتهدج لملامح عجوز في النزع الأخير، أو يفقد تواصله مع العائلات الفرنسية المهذبة التي التقاها في النادي السوري الفرنسي وهم يرقصون على أنغام الغراموفون ويلعبون البريدج، كان اللويتنان ـ كولونيل «كويتو» والكولونيل «كولبير» وعدد آخر من الضباط والمسؤولين الفرنسيين مع زوجاتهم وقلة من الموظفين السوريين قد تبادلوا عدة أنخاب لاحياء النادي السوري الفرنسي بعد أن صفي نهائياً اثر تعطيل اجتماعات الجمعية التأسيسية، وكان للكلمات التي أسرها له الولونيل كولبير مفعول أقوى من النبيذ الأحمر والأبيض، عندما لمّح له عن الموافقة المبدئية بقبول أمر تعيينه طبيباً مساعداً في الصحة وانتدابه لمعاينة عسكر الأقليات الافريقية.

هذه البادرة اللطيفة والمثمرة جعلته يطلب من سائق سيارة الرينو أن يتجول به في الطرقات الفارغة لمدة طويلة من الزمن وهو يستعيد أجواء سهرته، ولم تنته

نشوته وارتباطاته التي نشأت فجأة، وتعمقت بسرعة، حتى عندما نزل من السيارة عند دكان «برو العطار» وأكمل سيره مشياً على الأقدام.

وقف في غرفته دون أن يخلع ملابسه، ينظر باحتقار إلى الخزانة التي فتحت أبوابها وأدراجها، ومنامته وأغراضه المبعثرة فوق الفراش، عند تلك اللحظة والنظرة المستهينة بالغرفة القميئة وما تحويه. . طرق الباب.

صمّ أذنيه عن الصوت متابعاً نظرته الفاصِلة، وأشعلت سميحة شمعة كي تنير الديار، كان المكان وقد اتسع وتجمل بالأشجار والشبابيك الخشبية المزخرفة جعله يدرك أنه أصبح في مكان آخر تماماً، لفلف نظرته على عجل وقد وجد نفسه يدوس في المكان ذاته بعد عشر سنوات، لكنه والمرأة تتوجه نحو الدرج تذكر أن العجوز المقعد كان مضطجعاً في القاعة سألها مواسياً ومتطفلاً عن سبب نقله إلى الفوقاني في أيامه الأخيرة، أجابته بأن العجوز قد مات منذ سنة، لم يعد لديه شك في أنها أخطأت بجلبه ولم يعد هو الشخص المطلوب، أو أن هناك عجوزين أحدهما سبق الآخر إلى الموت، وكي يتأكد استوضحها بلطف عن سبب وجوده.

من فرط تشوشها غاب عنها أن تذكر له حال أمينة، لكنها حينما رأته ينود صاعداً الدرج، أدركت أن الطبيب سكران ونصفه في النوم أيضاً، قربت الشمعة المشتعلة من وجهه وأجبرته على أن يستيقظ ويعي أن هناك امرأة ولدت منذ ثلاث ساعات وهي في خطر الآن، ارتعد مستشفاً من لهجتها الصارمة والمهددة عبث النكوص أو الاعتذار وإلا أطفأت لهب الشمعة في عينيه، وكان من المستحيل وهو يجهد كي يتوازن على الدرجات العليا المائلة أن يجعلها تفهم أنه طبيب لا تتعدى أدواته سماعة وميزان حرارة وخافض لسان وقلماً لكتابة الوصفات، أما الجراحة والكسور والنزوف فعلاقته بها نظرية، تقدم متباطئاً في الداور، يحاول أن ينشط مهاراته كي يلعب دوراً ما، حصيفاً ومقنعاً، اصطنع ملامح العبوس والعلم، وبين الجدران الأربعة فاته الدور لأن لون الغرفة الأدغم منع الأشباح الثلاثة من التنبه لملامحه الرصينة.

طلب علبة أدوات الخياطة، التقط منها خيطاً من الحرير، أدخله في سم ابرة

ثم عقده، وانحنى يضمدها، ارتخى رأسه وثقل وأخذته غفوة لم يكن هذا أوانها، فيما كانت أصابعه تخيط جرحاً فاغراً، صحا وهو يقطع الخيط بأسنانه ثم يعقده بابهامه وسبابته، والتفت إلى النسوة اللواتي أخفين وجوههن ولم تبدُ منهن سوى عيونهن الغائرة والمظلمة، يطمئن على التمثيلية التي أداها في وقذة النوم، وعندما لم يحظ بكلمة أدرك أن مهمته انتهت، أبعد علبة الخياطة وحمل حقيبته وقبل أن يغلق الباب خلفه لمحهن يزحفن على ركبهن ويتحلقن حولها، فيما كانت أمينة تتهادى، تترك الفرجة الضيقة وتفتح عينيها، تحاول أن تدرك ما الذي جرى وانتهى.

نجح الطبيب حسن حكمة في انتزاعها من ظلمتها الحالكة دون أن يعني باستظهار الدروس التي تلقاها بالفرنسية، وانما استقى بداياتها الجريئة من شطارات أبي سليم الحلاق الثرثار في حارة «السمانة» والذي يتقن استعمال العلق وقلع الأضراس وختان الأطفال أكثر من تزيين الرؤوس وتشذيب الشوارب.

نظر إلى وجهه في مرآة المغسلة، وفارقه الوسن، وبدأت معلوماته تتجلى وهو يتذكر تلك الشذرات التي التقطها من لابسي الأرواب البيضاء وهو يتسكع في مهاجع المرضى في المستشفى الايطالي والفرنسي، عن مبادىء وأساليب التعقيم، تلك التي لم يستعملها، عبثاً حاول أن يسترجع المراحل العمياء للعملية التي نفذها مغمض العينين، ولم يفتحهما الا حينما فرغ منها، ماالذي فعله للنازفة التي غطوا جسمها بالشراشف البيضاء؟!

والهوة الصغيرة تلاشى ملمسها من رؤوس أصابعه.

حل ضوء الصباح في الوقت المناسب، دليلاً على أن كل ماجرى، مازالت شواهده في أماكنها، نقر على الباب وطلب من المرأة أن تجس لها جبينها، طالعه والشروق يرسل أنواره في جنبات الغرفة منسلاً من بين فتحات الستائر، الجبين العريض والوجه الرائق السمرة في أجمل وجه رآه في حياته، وتخيل دون مبالغة، وساعة عينيها تحت الجفنين المسبلين، تراجع هاذياً بالمخلوقة ذات الأهداب الطويلة والوجنتين الشاحبتين، هل يعقل أن يكون هو الذي كبا بين ساقيها ومس بأصابعه وأظافره القذرة نبع انوثتها؟!

أدرك وقد أغلق الباب برفق، أنها تخلصت من الحمى في الوقت الذي اشتعلت فيه، غسل يديه وبلل وجهه بالماء مختبراً الحلم الضاري والرقيق الذي تلبسه، وواثقاً وهو ينشف وجهه أنه كان مسيراً مذ التقى المرأة التي أتت به، ولو كان صاحياً والتيار الكهربائي غير معطل لارتكب خطأ مميتاً، لكن. . . كان هناك من أمسك له يديه واستعمله.

سمع صرير الباب ورأى المرأة تخرج، تقترب منه، تمد يدها وتناوله مخمسة رشادية، لم يصدق ما لمع في كفه، هتف:

ـ هذا كثير.

أردفت محذرة وهي تشير بإصبعها إلى الدرج:

ـ لا تقل لأحد أنك أتيت إلى هنا.

تراجع وهو يدسها في جيبه:

ـ لا أحد، لا أحد.

نزلت الدرج فيما اتكأت على الدرابزين وبقيت في مكانها تتسمع خطواته حتى سمعت صوت اعلاق باب البيت.

في الفجر الهادىء لاح ثمة بريق، لمع واختفى، توقف يوسف يسمع أذان الصبح، عند دخلة المملوك ظهر رجل يحمل حقيبة، يمشي ساهماً ومتقدماً نحوه، تفاداه وقد كاد أن يصطدم به، تابع يوسف سيره مترنماً ومترنحاً دون أن يلقي بالا اليه.

جرح قلبي والعواطف كل ده محسوب عليك

يمكن الأيام تصادف واشكي جالي بين ايديك

توقف عند الباب، أخرج المفتاح، تراءى له أن الرجل صاحب الحقيبة قد لحق به، يراقبه، استسخف الفكرة، وأدار المفتاح في القفل.

اعترضته سميحة وهو يهم بالدخول إلى غرفته:

ـ سترحل أمينة.

هز رأسه ولم يجب.

ـ سوف تأخذها أمها معها.

ـ فلتأخذها.

وارتمى بملابسه فوق الفراش.

عادت سميحة حاملة كوباً من الحليب، قدمته لأمِينة، سمعتها تقول لأمها:

ـ سأبقى في بيتي مع ابني.

التفتت إلى سميحة مبتسمة:

ـ لقد أسميت الطفل.

ساد الصمت لحظات، وتمنت سميحة أن يحمل الطفل اسم جده، سألتها:

ـ ماذا أسميته؟

ـ عبد الله.

انحنت سميحة وقبلت وجنتيها مغرورقة العينين بالدمع.

. . . فاتها ذلك اليوم ولم تمت فيه، لأن موعد موتها لم يأزف بعد، وخلد في نفسها والبياض عليها ومن حولها، والطفل بين ذراعيها، أن ما كتب على اللوح المحفوظ في العالي، لا يستطيع البشر أن يمحوه قصداً أو خطأً، واذا كان رجلها لم يتمكن من أن يقتلها مصادفة فلن يستطيع أن يقتلها عامداً متعمداً عندما تسنح له الفرصة ثانية.

ألقت نظرة على طفلها وأحست أن الشاس الرقيق لا يحجبه عنها، وهو لا يعدو أن يكون سوى قطعة من جسمها وروحها، غابت في تقاسيم وجهه الوضاءة ورهافة ملامحه ودقة أصابعه، وهي تهدهده على وقع حكاية ترددها في سرها.

. . . في الليل وقد تعطلت الكهرباء، وأصبح للأشكال لون الستائر المخملي الأسود، وأنا أغوص في عتمة لا تنتهي، أخذت تنقر لي جدار بطني تريد أن تخرج.

- ٥ -

خال أن كل ما دار في الليـل قد استـتر بيسـر فيـه، لكن ساعـات الصبـاح فضحت دون عسـر ما يجب أن يبقى في الخفـاء، وعند الضحى كانت التخمينات تتمظهر بتنويعات محيرة. .

. . . النازفة التي موهت حجم بطنها لتسعة أشهر وولدت ابن زنى، وكتل النسوة العجيبات اللواتي غاب رجالهن، يغطين وجوههن ويتستر ن على الحرام، ينقذن الخاطئة من الموت بدلاً من أن يكتمن أنفاسها، والمخمسة الرشادية ثمن سكوته!!

كان موعـده مع الكلونيـل كولبـير يقـترب، فيـما كان يبتعـد، النـوم عانده والصحو أطبق عليه، والجميلة المغمضة العينين قد تمددت بأرديتها الموشاة بالدم، وكي يطـل عليهـا وجـد ركنـاً في مواجهتهـا، وكانت المعضلة الجديدة. . . أنها لا تفارقه، روح عمياء تتلامح تحت أبصاره وتتجلى بوجه ناعم ومكدود.

أليس هو الفأل الحسن الذي جعله يسهر في النادي حتى ساعة متأخرة من الليـل؟ ألم يكن في حينهـا داخـلاً في الـرؤى المـرائيـة مرافقـاً المـرأة التي جرته إلى البحصة الجوانية دون أن يستفسرها؟ تدابير المصادفات الطائشة أم الأقدار الهازلة؟

كلا، لم يكن ما جرى تحت جنـح الظـلام لغزاً، وانما ابتكاراً لاهياً للحياة،

ودعـوة لا يخطئهـا القلب البليـد الـذي جهل الحب واعتاد الوحشة، والطريق إلى دخلة الشيخ رمضان ما زالت في بدايتها.

لذا بدت مقابلته للكـولونيل كولبير في غاية الملل والسقم وقد أحكم الطوق حوله، يحدثه عن طبائع الجنود المغاربة وأطوارهم العجيبة، وهو يحاول أن يتملص منـه ويـرجـع من حيث أتى، تاركاً الكولونيل يعدد تلك الخصال النادرة، مقاتلون أكفاء، خشنون وأجلاف . . . لكنهم ذوو نزعات غامضة ورقيقة!

- هل تدري انهم يحتفظـون بكـل ما قبضـوه من مرتبـات ومـا غنمـوه من المداهمات في أكمار يلفونها حول وسطهم؟

عندما لم يظهر الطبيب استغرابه، عاجله بسؤاله مغلقاً في وجهه طريق العودة:

- ومن أجل ماذا؟

أجابه الطبيب من منتصف الطريق ساهماً:

- من أجل ماذا.

- كي يقدموه لضابط أو طبيب يعفيهم من الجيش، هل تصدق هذا؟ ثروة متنـوعـة من الليرات الـذهبيـة والمصـاغ والحـلي لقاء جرة قلم، موافقة على عدم صلاحيتهم للخدمة العسكرية.

ألقمه تلميحه الصارخ والطبيب راجع على مضض ثم لم يمهله بل رمى في وجهه سؤاله التالي:

- لقاء ماذا؟

أجاب دون أن يخرج عن جادة جهله:

- لقاء ماذا؟

- لقـاء مطـامح غريبة، أحدهم يريد أن يقضي البقية الباقية من حياته إلى جوار قبر النبي ذي الكفل، وآخرون امنيتهم ووصيتهم أن يدفنوا على مقربة من مقام الشيخ محي الدين بن عربي، عدا الذين يتوقون إلى حج الكعبة مشياً على الأقدام، تحت زعم أن الثواب على قدر المشقة!!

تابع مسهماً بتفسير هذه الميول الشائعة:

- ألم يسبقهم الأمير عبد القادر الجزائري واختار دمشق منفى له، ثم تصوف وجاور الأولياء؟

توقعَ تعقيباً ما، أحبط وقد لاحظ انصراف نظراته عنه، استفهم بلطف:

- هل تؤمن بهذه الأمور؟

أجابه مباغتاً:

- كلا، بالطبع لا.

أطلق العنان لأفكاره، مرتاحاً للطبيب الذي تنصل من معتقدات العوام والمغاربة:

- شام شريف... ما الذي يجعل هذا المكان مقدساً، الجامع الأموي الذي بناه العرب فوق انقاض كنيسة، أم قبر السيدة زينب وصلاح الدين الأيوبي، أم التكايا والقبب التي شيدها الأتراك؟

كان قد أضاع وهو يمسكه ويفلته المسافة الصحيحة التي يجب أن تفصله عنه وبات وهو يسمعه ولا يراه تارة، ويراه ولا يسمعه تارة أخرى، واقفاً عند الوصيد يرامقها، الأعياء باد على أطرافها، وحبات العرق تبلل جبهتها وصدغيها، والكولونيل أخذته حمى التاريخ ورعشة الجغرافيا وتكاليف الحضارة الباهظة.

- سوريا تسقط في واقعها، وما هي الا فسيفساء غريبة وغير متجانسة من الديانات والمذاهب والأجناس والأقوام والعشائر، المسلمون بفرقهم المتعددة وخلافاتهم المعقدة، والمسيحيون بمللهم المتنابذة، حتى أن البر وتستانت وجدوا لهم مكاناً فيها، هذا عدا اليهود والأرمن والأكراد والشركس والتركمان والآشوريين والسريان والبخاريين والروس البيض.

تمنى في هذه اللحظة أن يعيد أداء ما جرى وقد ساوره الظن في أنها لم تكن مشرفة على الموت، على الرغم من حيل الوهن والسبات، ونزفها لم يكن سوى مسوغ كي يراها.

ـ يجب فهم هذه الكيانات الصغيرة، ولا نسعى لطمسها كما فعل الأتراك.

لام نفسه على طلبه من المرأة ان تجس لها جبينها، وبادر يجري تعديلاته، تجاهل المرأة، واقترب من الفتاة واضعاً راحته على جبهتها، متحسسا بشرتها التي تنضح بالعرق، ثم أمسك معصمها، وغار في صمتها، يستنطقها، يظهر عدم ارتياحه، يفتح حقيبته ويتناول السماعة، يضعها على أذنيه ويكشف فتحة الثوب..

ـ فرنسة لن تخرج من سورية، ورسالتها هي تأهيل السوريين وادخالهم من جديد في التاريخ الذي يصنع على الطرف المقابل، لا يفصلهم عنه سوى البحر.

يضع السماعة على القلب تماماً، باحثاً عن صوت نبضاتها دون جدوى. صمت الكولونيل فجأة، معجباً بالروح العالية للطبيب الذي يصغي بانتباه كامل دون أن يقاطعه، أحس أنه يستطيع التفاهم معه دون محاذير كبيرة وقد اكتشف الأرضية المشتركة التي يقفان عليها، ووجد أنه من الأفضل أن يبدأ من فوقها، شارحاً له أن العلمانية التي أنقذت اوربا من الكنيسة ومحاكم التفتيش، مدعوة الآن كي تنقذ سورية من أوهامها كافة دون تمييز، وأن مهمة المسيو بيو في سورية، تبدو شاقة بعد تصريح غاستون في البرلمان الفرنسي بأن «فكرة المعاهدة خاطئة في حد ذاتها»، ولكننا اذا دققنا النظر فسوف نجد أن النكول عنها ما هو إلا إعادة الأمور إلى نصابها الحقيقي، لا معاهدة، والمعاهدة التي يصرون على ابرامها لا تؤهل سورية للمدنية بقدر ما سوف تفلت العنان لانقساماتها وتناقضاتها كي تظهر على السطح، وانما سلام حقيقي وصداقة دائمة بين سورية وفرنسة، في هذا الجو من التفاهم الكامل يستطيع السوريون أن يمخروا عباب البحر الأبيض المتوسط.

لم يفلح الطبيب والفتاة تسخر من سلسلة فحوصاته المرتجلة من جهة والكولونيل يشده بسياساته المتحررة والطموح من جهة أخرى، أن يجاري المواقف المغلقة والمفتوحة التي نشأت على حين غرة من التداعيات الطريفة التي أوقع نفسه

فيها . . لكن والفتاة تفتح عينيها، شدهته، ظهرتا أكثر اتساعاً وأشد جمالاً مما كان يتخيل، إلا أن يعقب بشكل مقتضب حتى لا يفسد روعة مشاهداته :

ـ كولونيل كولبير، ليس المهم أن تكونوا صريحين وانما أن تكونوا مفهومين، ان ما يفصلنا عنكم شرخ أعمق من البحر الذي أشرت اليه، ان النوايا الطيبة والسيئة معاً لا تكفي لفرض مصير ما على سورية دون موافقة السوريين انفسهم .

اعتقد الطبيب أن هناك رجلاً ثالثاً صاغ هذا التعبير الموفق، واعتبر الكولونيل أن العبارات الطائشة والحكيمة التي سمعها كانت في منتهى الرعونة ومع ذلك لم تخلُ من متعة، لكنها أفسدت على الطبيب المنصب العلني الذي قارب أن يسنده اليه، ومنصباً آخر لا يقل أهمية عنه، وهو أن يبقى على اتصال شخصي معه، كصديق مقرب لفرنسا. ضرب صفحاً عن هفوة الطبيب مؤجلاً حكاية المناصب والعلاقات الخاصة، وفضل المحافظة على الجو الودي مبدياً ملحوظة في سره، السياسة منحة لا يستحقها الطبيب في الوقت الحاضر على الأقل، أكمل متظاهراً إنه لم يسمع ملاحظاته الجافة :

ـ إن تعاوننا مع الشيخ تاج قد أثمر خطوات عمرانية مهمة في البلاد، ان بناء مدرسة التجهيز ووزارة الصحة والمعهد الطبي ما هي إلا نتاج حكمة الشيخ تاج .

لم يظهر الطبيب تقديره لتلك السابقة العاقلة، وانما انصرف بكليته عن المكان، وتبادر للكولونيل أن الشخص الجالس مواجهته قد وضع على وجهه قناعاً من اللامبالاة، لذا علا صوته بحيوية محتجاً على التغيرات الملموسة التي طرأت عليه بعد ليلة البارحة :

ـ هل تستطيع عناصر الكتلة الوطنية وعصبة العمل القومي والشهبندر بخلافاتهم المستحكمة، أن يقودوا سورية إلا إلى مزيد من الفوضى؟ لا تنسى أن فرنسا على أعتاب الحرب، ولديهم الآن فرصة نادرة ومحدودة لبداية جديدة واذا كانوا يهيئون لشغب يعم البلاد، فهم مخطئون، الاضطرابات لن يدعمها الانكليز الذين سوف يدخلون الحرب معنا ضد المانيا والأتراك سيقفون على الحياد

متفرجين ومتذرعين بشتى الأكاذيب، ولواء اسكندرون تلك المشكلة العالقة سوف نستغلها سلباً وايجاباً.

ظل الطبيب ساهماً على الرغم من أنه كان يسمعه بوضوح، هذه حالة لم يكن الطب مدعواً لايجاد علاج لها، والكولونيل يساهم عن قصد بتعقيد الأمور المعقدة، مستغلاً الحرب والاتفاقيات السرية، محاولاً أن يزجه داخلهم دون مبرر، عدا أنه يمنعه من التركيز المتأني على ابتداع الحجة المعقولة التي سيطرق بها باب بيت سرحان.

في الجانب المقابل لاح الكولونيل متحفزاً وهو يتهيأ للاصغاء إلى الطبيب الذي أخذ يستعد للكلام، ولم يستبعد أن يتحفه بتعقيب مماثل أكثر فجاجة مما سبقه، وفاجأه تماماً عندما سأله بهدوء:

- ما هو المطلوب مني فعله؟

بدا السؤال باهتاً ومدعاة لاثارة عشرات من الاحتمالات المتناقضة، الغثة والحاذقة، غض الطرف عنها كلها متهماً الطبيب بالخرف المبكر، لكن أن يكون محدثه طبيباً معروفاً ومريضاً مفضوحاً في آن واحد فهذا ليس بالأمر الذين يمكن الاعتراف به أو تصديقه، وليس من الرصانة أن يقفز الطبيب دون رشاقة هذه القفزة السخيفة ويظهر وكأنه يخون وطنه بجلافة، او ان ينقلب مرة واحدة، معتقداً نفسه ممثلاً شخصياً للكتلة أو الشهبندر وأن باستطاعته التحرك وبكياسة على مستوى هؤلاء الرجال والتفاوض معهم. لم تعد التبدلات السريعة على شخصية الطبيب مقنعة أو قابلة للتفسير، إلا بأن الشرقيين ليسوا خاضعين للجاذبية الأرضية وانما متأثرين بالخطوط والحظوظ المرسومة في السماء، المتآلفة مع حركة الكواكب والأبراج والأفلاك، لذلك تجاهل السؤال الماكر والمرن، ونهض بعجلة ينهي الزيارة وقد رسم على وجهه ابتسامة لطيفة وتائهة. مد يده اليه وصافحه معرضاً عن استكناه اغراضه الباطنة، وهو يعيد على مسامعه كلماته المتسارعة بحيث لا يتيح له الاجابة، وانما يدعه يفكر فيها فيما بعد.

... إن أمر تعيينه قد عرقله الروتين الاداري، وسوف ينجز بعد أيام

قليلة، أما خلافاتهما فمشروعة، وهي لا تعدو سوى اختلاف في زاوية الرؤية لمظاهر الأمور، ومن حسن الحظ انها لا تمس الجوهر، ومزيداً من الاخلاص كل إلى قضيته سيجعلهما يتقاربان ويتعاونان في القريب العاجل دون أدنى شك.

توقف لحظة وقد راقه طرح الموضوع بهذا النفاذ، ثم تابع بعصبية:

ـ يجب أن نمنع كارثة، فرنسا لا تريد استعمال القوة، والسوريون يجب أن يفكروا على هذا النحو، ولكن..

وأخذ يلقي كلماته بحرص وروية:

ـ نحن بحاجة لمن يفهمنا دون تعنت، ودون اسراف.

كان الكولونيل راضياً وهو يودعه بعد أن ترك بينهما فسحة سوف تتيح للطبيب أن يفكر باتزان ثم يتقدم فيها بثقة، وتمنى في تلك اللحظة بالذات أن يغادره دون أي تعليق أو حماقة تفسد هذا الاتفاق الضمني.

لم يتنبه الطبيب لتلك الفسحة الآمنة، بل كان برماً بهذا الدرس المشوش الذي ألقي في غير أوانه، والفتاة قد نفد صبرها، والكولونيل يراوغه بالكلمات، والمطلوب منه واضحاً، أن يتعاون معه لقاء أن يسند اليه منصب مساعد طبيب في وحدات الأقليات، مطلقاً يديه في الطب والذهب.

رد على السؤال الذي طرحه قبل قليل على الكولونيل ولم يجب عليه وانما تهرب منه ببراعة ودون لباقة، قال مفترضاً أنه حصل على اجابة واضحة:

ـ لا أدري اذا كان بامكاني القيام بما تطلبه مني، يجب أن أجد مسوغاً لذلك، أنا لن أخدمكم، بصراحة أنا آمل أن استخدمكم.

تراجع الكولونيل مشدوهاً، وتمنى مرة ثانية لو لم يتكلم الطبيب في اللحظات الأخيرة، لم يفسد شيئاً وانما خلخل الأدوار وعبث في الترتيب المفترض، وكان من الأفضل أن يكتم سره بدلاً من أن يبوح به، ولاح الطبيب أمام عينيه على حقيقته، أحمق أو داهية، واحداً من اثنين لا توسط بينهما.

* * *

سألتـه من فرجـة البـاب دون أن تظهـر ـ عن غرضـه، أجابها بأنه عاد كي يطمئن على المريضة، ردت بعجلة.. أنها بخير.

تحير في وقفته وسارع يقول:

ـ إن حالتها ما زالت في خطر.

جاءه صوتها حاداً:

ـ إنها نائمة ولا تشكو من شيء.

حاول بالحـاح ان يشـرح لها متلعثـماً أن المـريضـة تلزمهـا بعض المقويات، اجابته بجفاء:

ـ إياك أن تعود إلى هنا مرة ثانية.

وصفقت الباب في وجهه.

أدرك أن المـرأة التي سحبتـه من بيتـه في الليل، وأسلمته إلى الخيالات التي لعبت به طوال النهار، هي المرأة ذاتها التي طردته الآن.

- ٦ -

أحس أنـــه يقتبس أوربـــما يتقمص أمـزجـة أبيـه الصعبـة، يستعيـد روح جلسـات الخميس والاثنـين، التأمـل والنشـوة السـريـة، القيـود والغيظ المكتوم، محاصـراً بالصمت ومنطـويـاً في الاصغاء، بين الصور القادرة والمجهضة، وفناجين القهـوة وأكـواب الشـاي، مستبدلاً بالسباك والشيخ عبد الرحيم والعجان، كريم الحجار وصبحي طاهر، وبيو بعد ديجو فينيل وبونسو ودي مارتيل، وجميل مردم بك بعد الشيخ تاج وعطا الأيوبي، في مقهى البرازيل عوضاً عن القاعة.

ألقى نظـرة على مدخـل زقاق الصخر والنادي العربي، أزاح بصره قليلاً، كان هناك قلة من الشبان أمام سينما «روكسي» يتفرجون على اعلانات فيلم «يحيا الحب»، ومحـل «غـراوي» والمخزن الهندي يطفئان أضواءهما، والمارة يغذون الخطا مسرعين باتجاه جسر فكتوريا ودخلات سوق ساروجة.

كان كريم جالسـاً إلى جواره صامتـاً يحدق في الـزجـاج، فيما دخل صبحي وجلس بينهـما وطلـب فنجـان قهـوة من أبي اليـاس، اتكأ على الطـاولة بساعديه مقترباً برأسه من كريم وسأله عن اجتماع الوزارة.

عزف كريم عن التفكير موقناً أنه لن يضيف شيئاً إلى معلومات طاهر الذي حضر اجتماعات الطلبة في الجامعة، وشارك في المظاهرات، وقال:

ـ ليس هناك من أخبار.

- جميل مردم يطمح إلى الاحتفاظ بالوزارة والمعاهدة معاً.

تراجع بظهره إلى مسند الكرسي، ثم أضاف:

- لكن ما الذي سيبتدعه للرد على انذار بيو؟

تدخل يوسف:

- الوزارة ستجيب اليوم على الانذار.

كان اجتماع الوزارة ما يزال منعقداً، وبيو مع الكولونيل كويتو في دار المندوبية ينتظران نتيجة فض الاجتماع، والرئيس هاشم الأتاسي يحاول الاتصال بلطفي الحفار، أردف صبحي حانقاً:

- ماذا بوسع حكومة «حملنا التبعات الجسام» أن تقدم سوى مزيد من التنازلات الجسام؟

وعبد الوهاب يشدو سائلاً ليلى مراد... قولي لي خايفه ليه.

تتهيأ ليلى مراد للغناء، ويتلمس الشبه بينها وبين أمينة.

- من سيرضي وقد أصبح وحيداً، الكتلة ضده والشهبندر والمشايخ.

خرج كريم عن صمته:

- بيو يريد ازاحته بعد أن بات العقبة الوحيدة أمام الغاء المعاهدة.

- اذن هل نقبل بنظام الطوائف؟!

- جميل مردم يناور ويجب أن تتاح له جميع الوسائل والأساليب لابرام المعاهدة، ما لا نقبله اليوم بمقابل سنقبله غداً دون مقابل، وما نرفضه اليوم سنطالب بنصفه في الغد، أتعرف ماذا قال صاحبك الشهبندر عن اتفاق فيصل - كليمنصو، انها فرصة نادرة أضاعها المتهورون، ومن هم المتهورون؟ انهم كل الذين كانوا حول فيصل من المؤيدين والمناوئين له، في ذلك الوقت قال كليمنصو لفيصل، انه قد عرض عليه معاهدة لن يجد سياسياً فرنسياً مسؤولاً من بعده يعرض مثلها، واليوم من لديه الجرأة كي يطالب الفرنسيين باتفاقية كليمنصو؟ نحن بحاجة إلى سياسيين معتدلين، المعاهدة أساس بيننا وبينهم وهي مقدمة الاستقلال.

ـ إنها قيود على الاستقلال وتكريس للانتداب .
ـ ألم يذهب الشهبندر منفرداً إلى باريز لابرامها؟
ـ لكنه اشترط حق الاحتفاظ بمعارضتها كي يتمكن في المستقبل من تعديلها .
ـ اذن لماذا الشهبندر وليس جميل مردم؟ !
ابتسم يوسف . . . لقد وضع بيو الجميع في مأزق .

. . . بيو الذي قطع البحر محملاً بمهمة أكيدة ، الاجهاز على المعاهدة السيئة السمعة ، المعاهدة التي مزقت سورية إلى دويلات وطوائف وقيدت استقلالها الجمركي وأمنها الخارجي والداخلي ، ووسعت صلاحيات البعثة العسكرية الافرنسية التي ستصبح دولة فاعلة داخل دولة مقيدة ، عدا الوضع الخاص لجبل الدروز والعلويين والمستشارين والموظفين الاجانب ، بالاضافة إلى ضمانة فرنسا لحقوق الأقليات ، ثم أضيفت ملحقات وذيول إلى المعاهدة ، اتخاذ نظام داخلي خاص بالجزيرة يهدد صلتها بسورية ، وقبول اتفاق البنك السوري طبقاً لوجهة أصحابه الأساسية ، عدا عن شروط النفط وتجديد عقود الموظفين والمستشارين الأجانب ، ثم الاعتراف بحق فرنسة في الدفاع عن الأقليات وسن قوانين خاصة لأحوالهم الشخصية وتوابعها .

ما الذي كان يدور في خلد بيو عندما استقبل رئيس الوزراء جميل مردم بك ، الرجل الأخير الذي ما زال يدافع عن المعاهدة ، أن يتخلى عنها؟ !
دفع إليه بالقرار التشريعي الذي أصدره دي مارتيل واعتبرته وزارة عطا الأيوبي السابقة ، بدعة للمسلمين والمسيحيين على السواء ، نشرته ولم تطبقه ، قانون الطوائف الذي يتدخل في نظام المواريث والزواج ، ويجيز لكل من أدرك سن الرشد وكان متمتعاً بقواه العقلية ، حرية الاعتقاد الديني والمذهبي والانتقال من طائفة إلى أخرى ، في الوقت الذي لا يرغب فيه أي رجل عاقل ، مسلماً كان أم مسيحياً بتبديل دينه ، ولدهشته أعلن رئيس الوزراء قبوله تنفيذ القانون أملاً بابرام

المعـاهـدة، مشـترطـاً تصـديق مجلس النـواب، ومطـالبـاً بيـوبالاسـراع بتسليم صلاحيات المندوبية الفرنسية في دمشق للحكومة السورية.

لم تنتظـر جمعيـة العلماء تصـديق المجلس أوعدمـه، أو نوايا بيو المؤجلة بل أصـدرت احتجـاجـاً شديـداً غير قابل للمناقشة أو التراجع عنه، «الاسلام فوق القـوانـين الـوضعيـة» وقـوانـين المفـوض السـامي ليست شريعـة الله. انـدلعت المظاهرات صاخبة وعارمة بقيادة الشيخ سليم القصاب وعبد الرحمن الشهبندر، لا نقبـل بمعـاهـدة لم يعـد لها وجـود لقاء نظام الطوائف، وفات جميل مردم ـ الرجل الـذي لم يعـد يرى في يقظتـه ومنـامه سوى رؤ يا واحدة لا تتغير، البرلمان الفرنسي يصـادق على الاتفـاقيـة السـوريـة الفـرنسية ـ أن يدرك ان المعاهدة مع ملاحقها وتفســيراتهـا وحتى بدونهـا، ليست حلماً عسـير التحقق وانـما حلم لا يستحق أن يتجسـد، صحـا وهـو في صحـوته، عاد إلى حلمه، وعهد بدراسة نظام الطوائف إلى اللجنـة الحقـوقيـة علّهـا تجد مخرجـاً قانونياً لقبوله، فيما رفض بيو مذكرة رئيس الحكومة، ووجه إليه إنذاراً قاسياً ومهيناً:

«الشـرقيـون يفكـرون بطـريقة الصور المجسمة وكان من الملائم أن تفرض صورة السيف على ذهن رئيس الوزراء».

ـ جميل مردم سيرفض الإنذار ويوجه لبيو رداً أمضى من السيف.

غاب عنهم للحظـات وقـد تراءى له أن العتمة في الخارج تتشقق عن امرأة متسمـرة على الـرصيف وارتـد يلتقـط صوت صبحي وهـو يؤكـد بهزء، أن رئيس الوزراء الماهر في صياغة التصريحات لن يعثر على السيف الذي سيحارب به.

اقــتربت من زجــاج المقهى وألصقت جبهتهـا به، تبحث بعينيهـا، تجده وترمقه بنظرة حادة، كاد أن يهتف... أمينة، تردد.. لم تكن هي، حدق فيها ملياً وهي تختفي، وعــربـةُ خيـل تخترق الشـارع، ورجـل مسـرع معتمـر طاقيـة من الصوف، أين رآها من قبل؟ هذه المرأة التي تتلفع بالسوادين.

وكريم يطرح الحل:

ـ على الكتلة أن تتجمع من جديد وتعيد تنظيم صفوفها.

وطاهر يرد عليه :

ـ ما هي الكتلة؟! تجمع أم هيئة؟ إنها أحزاب بقدر عدد رجالها، وكل منهم يريد أن يحكم وحوله وجاهات وأزلام وزعران.

فتحت الباب ودخلت، ألقت عليه نظرة وعبرت المقهى خارجة من المدخل الخلفي.

ـ . . . الكتلة التي قادت سورية ومن ورائها الأمة جمعاء، يتساقط زعماؤها الآن وهم يساومون وليس من ورائهم أحد.

عادت من المدخل الخلفي وخرجت دونما توقف، وكريم لا يتراجع :

ـ هذا زمن الكتلة، ومهما كانت الأخطاء فعلى جميع الفرقاء أن يعملوا من خلالها وليس بعيداً عنها، وخلافاتنا يجب تأجيلها إلى ما بعد الاستقلال، لماذا نتشرذم أمام عدونا الواحد؟!

وصبحي لا يكل :

ـ ستطوى المعاهدة وتطوى معها صفحة الرجال الذين آمنوا بها، دون أن يعرفوا كيف يدافعون عنها، وسوف يسجل التاريخ أنه في زمن الكتلة أضعنا لواء اسكندرون وأصبحنا نحتكم الى الفرنسيين في شؤون عقائدنا، وفي زمن الكتلة أيضاً كان الأحرار يتعرضون لقمع السلطة الفرنسية والوزارة الوطنية.

تدفع الباب وتدخل، تلفحه بنظراتها ثم ترجع خارجة، تلح بمجيئها ورواحها وتوقعه في الدوار، اراد أن يقول لهما إنهم مراقبون، لكنه كان متأكداً من أن ما يشهده، لا يراه أحد سواه.

ـ ألن يعيد الشهبندر عندما ينفرد بالسلطة تمثيل أدوار رجال الكتلة فرادى ومجتمعين، إنه يراهن على الانكليز. وماذا سيمنحنا الانكليز؟! . . . وعد بلفور آخر.

كانت المرأة التي خرجت ووقفت على الرصيف قد ابتلعتها الظلمة. وأبو الياس يمسح الطاولات ويرتب الكراسي، خرجوا من المقهى ووقفوا أمام محل «فيليب خير» يحكمون أزرار معاطفهم، والليل والبرد يلفان الشارع الهادىء

الذي خلا من المارة، فيما تناثرت الأضواء الصغيرة مبعثرة في بوابة الصالحية، قال يوسف، انه سيكمل سهرته في بانسيون مدام كورينا، اعتذر كريم وصعد إلى مكتب الجريدة في المبنى المجاور كي يتسقط الأخبار، وانسحب صبحي إلى بيته في باب سريجة.

* * *

هشت مدام كورينا في وجهه ضاحكة:

ـ مسيو يوسف.. ما هذه الغيبة الطويلة؟!

كان هذا استقبالها المعتاد، تخلص من معطفه وجلس على الأريكة العريضة جوار مدفأة الحطب، مواجهاً لها وهي على كرسيها ممسكة بسنارتيها تستفسر عن أحواله، كان في الوقت متسع كي يبادلها الحديث ريثما تأتي ليزا مع رفيقاتها من ملهى «كازانوفا».

لم تكن هذه غرفة الجلوس التي عهدها تعج بفتيات الفرق الليلية والضباط الفرنسيين والموظفين والتجار السوريين، وتغص بالمأكولات والمشروبات المتنوعة والمازة اللبنانية واليونانية، وطالة القمار المفتوحة في الغرفة المقابلة، وانما غرفة شبيهة بغرفة الجلوس التي تؤدي إلى غرفته التي سكنها في أيامه الأولى في باريز، فيها عجوز ترفو الجوارب وتتحدث بدهشة عن ارتفاع أسعار الفحم الحجري وخلاعة الشابات الصغيرات السن، لكن بنسيون مدام كورينا عالم كبير وواسع، مترفع ومتشعب، لا يهتم بالغلاء وأعباء المعيشة والشرف الأنثوي، خلائط من البشر واللغات واللهجات، وقد انتحى كل اثنين أو ثلاثة زاوية في حديث هامس وحار، ومدام كورينا تتجول بينهم، تدير الأحاديث ببراعة ودراية، تقارب بين الحضور، تزجي عبارات الترحيب والمودة، وتطلق صيحات الدهشة والتعجب العالية والمصطنعة.

ابتسمت بخبث وهي تراه يجيل بصره في الأبواب المفتوحة.

ـ انهم ينتظرون اجراءات بيو، حتى العشاق تذرعوا بالصبر . فتحي بك يعتقد انه سيجد طريقة ما للتفاهم مع بيو دون أن يعقد صداقات جديدة .

انحنت فوق المدفأة، امسكت بالملقط، ترفع المتراس، تنفض الرماد وتدس حطبة في جوفها، تعود إلى كرسيها، تضع نظارتها الطبية على أرنبة أنفها، وتتشاغل بالصوف والدمدمة، تبتكر جلستها الطارئة بين اشيائها، تكمل تسلسل الصور التي انتظمت خلفها على الحائط، شابة هيمى، ربة بيت متزوجة، مطلقة ومتزوجة للمرة الثانية، أرملة حزينة ثم أرملة لعوب، مع بائعي أجواخ وصيارفة وضباط من جيوش متعادية ومزينين مخنثين وسماسرة، وقد بانت زنودها البضة من وراء كتف مرافقها، الخد على الخد والساق على الساق، وباليد كأس شمبانيا وبين أصابعها سيجارة، والآن جدة طيبة بناتها من جنسيات مختلفة، يتبدلن كل عرض جديد.

ـ يريدون أن يعرفوا في أي قاع أو على أي شاطىء سيرسو بيو، ومن سيجمع حوله، مسيو يوسف. . . هناك أناس جدد سوف يظهرون وصلات جديدة.

. . الشال الكشميري يغطي مرفقيها، وعقد الفيروز ذو الحبات الكبيرة يستر صدرها، والأساور والخواتم ذات الفصوص الخابية والمزيفة تملأ يديها، وعلى خاصرتها ما زالت تربط مريولة المطبخ وتنتعل خفاً مزركشاً بالوبر الملون الناعم، وجوارها على الرفوف شمعدانان من بوهيميا، وحصى وأصداف من شواطىء البحر الأبيض، وأيقونات منهوبة من كنائس شرقية، وتمثال للمسيح المصلوب، معذب وهزيل الجسم، وعلى الطاولة غطاء مطرز من بودابست.

المرأة التي أحبت الترحال والمتع، أودعت زوجها الثاني قبره في سالونيك، وخلفت عشاقها في القارات الثلاث، وحطت رحالها في دمشق قالت له مرة. . . إنها تأنس هذه المدينة الوادعة، فيها السكينة التي تفتقدها المدن الكبرى، وتتجمع داخلها الأنماط الخالصة والشرهة للدول العظمى. قال له كريم عندما جاء به إلى مسكنها لأول مرة:

ـ مدام كورينا هذه، لم يستطع أحد أن يعرف هويتها الحقيقية، زعمت مرة أنها من منكوبي الأرمن، ومرة أخرى انها سائحة تجمع الذكريات والتذكارات، ثم متعهدة ارتيستات، لكنها لم تكن واحدة من هؤلاء، انها في حقيقتها عصبة أمم مصغرة، يدعي الفرنسيون أنها تعمل لحساب الانكليز، والانكليز يزعمون أنها عميلة ألمانية، والأصح أنها جاسوسة عالمية. في بيتها تعقد صفقات وعمولات واذونات استيراد واعفاءات من الجندية، حتى يقال إنها انقذت متهماً بالقتل العمد من حبل المشنقة، وتقام لديها حلقات للقمار وسهرات لهو ودعارة، تشجع علاقات الحب العابرة. وتمانع في اقامة علاقات حب جارف بين زبائنها وبناتها المقيمات.

بدت مدام كورينا لغزاً مفضوحاً، لها أهواؤ ها الخصوصية، وعلى الرغم من شدتها وحرصها كانت تبدي ضعفاً جميلاً ونزوات بريئة، وكثيراً ما كانت تجمع بين قلبين، تعجب بالفتاة وتختار لها، يستهويها الشاب وتختار له.

. . . وكان حظه أن انتقت له ليزا، وقالت له باعجاب:

ـ هل تدري، ليزا تحبك.

أغرم بليزا وأغرمت به، ووقفت مدام كورينا عقبة في وجه زبائنها من المولهين الدائمين ومراسيل الغرام، وتعهدتها بعنايتها، قالت له وهي تبتسم بأسى:

ـ كنت ليزا في فترة ما من حياتي وعشت حباً رائعاً، كان يشبهك، ومنحني حباً دون غيرة أو فجيعة.

في مكان من أثينا، تعود مساء من عملها في أحد مقاهي الأرصفة إلى غرفة صغيرة فوق سطح، تحضر له العشاء، ثم يتلاقيان حول المائدة، يتفرغان للطعام، تلقمه ويلقمها، ثم للحب، تبذل له جسدها ويبذل لها عواطفه وقوته في النعاس والحلم والصحو. التحق بالجندية اما هي فقد تزوجت، ولم يشاهد أحدهما الآخر مرة أخرى، لم تبحث عنه ولم يبحث عنها، ولم تتخيل أن تكون زوجة له، ولم يتخيلها كذلك، هوى لا يمكن أن يتكرر ولا يصح أن يستمر.

باتت علاقته مع ليزا تداعيات ناعمة لطيوف براقة تلمع في عيني مدام

كورينـا الحـالمتـين، وأصبـح لهما ركنـاً هانئاً في حياتها وبيتها، تغدق عليهما الهدايا الصغيرة والتذكارات الحنونة، وتصطفي لهما الجبنة الفرنسية والجن الانكليزي.

وقـدم لها كل ما تبقى من غربتـه، العطـور النسـائيـة والمنـاديـل الحريرية، اسطـوانـات بارتـوك وجوليفيه، والملاعق الفضية ونسخا مصورة للوحتي المستحمة لرنوار والغذاء فوق العشب لمانيه، هدية للبانسيون العالمي، وفيه بات يتنزه مع ليزا بين بطاقات معالم باريز الملونة والمصقولة، برج ايفل وقوس النصر، أطلال الذكرى وروائحها القاطعة، ضلال الغرب وميوعة الشرق.

سألها مرة:

- ما الذي جاء بك إلى دمشق؟

- الحب.

- وكيف؟!

وكان من سخرية الأقدار انها فقدت في دمشق الحب والحبيب.

- ولماذا بقيت؟

- لسهولة جني المال.

كانت قد أضـاعت ثروتهـا كلهـا في برلـين، حصيلة عمـر من طيش القلب وخداع الحب، لذا كانت تكره كل ما يذكرها بألمانيا.

- من ألمـانيـا بلد الكـوارث يظهر الحزب النازي، ولكن.. أتدري أن باريز كانت في ذلـك الـوقت تبـدو شاحبـة اذا ما قيست بالحيـاة في برلين وميونيخ، كنت أقضي الليـل بطـولـه ساهـرة في المقـاهي الجانبية والمخيمات الصيفية وعلى سطح البواخر النهرية في الراين، ومع هذا تبقى برلين موحشة في قلبي.

باعت مصـاغهـا وحليهـا وبـدلت ما تحمله من دولارات وفرنكات بماركات ألمانية، كدستها في غرفتها، في الخزائن وتحت الأسرة.

- جمعت أكواماً منها.

وكان انهيار المارك...

- تصـور أصبحت قيمـة الـدولار أربعـة بلايـين مارك، ثم ارتفع الرقم إلى

«الـترليـونـات» ولم تعد تلال الورق الملون تكفي كي أدفعها أجرة يوم واحد للغرفة التي أنام فيها، أصبحت بلاييني صفرا لا تساوي وزنها.

باعت جسدها بالدولار كي تشتري تذكرة سفر إلى أقرب محطة في بولونيا، وبـواسطـة الهـوى الـرخيص اشـتـرت التذاكر الغالية الثمن وتنقلت من محطة إلى أخـرى، وبعـد سنتـين تمكنت من أن تصـل لندن، كانت وقد عرفت قيمة المال، أخذت تتعلم كنزه وتوظيفه، ولم تعد تثق إلا بالبنوك الانكليزية.

- آل روتشيلد... أنهم يهود ولكن ما العمل؟

ومنـذ ذلـك الـوقت وزعت أموالها بين الذهب والدولار والجنيه، وفي دمشق كانت تحول كل ما تدخره عن طريق صير في في سوق البورص إلى بنوك روتشيلد.

- لنـدن مدينـة كئيبـة وأهلهـا يكـرهـون كل ما هو غير انكليزي، يتباهون بأخطائهم وسيئاتهم ويدافعون عنها بصلافة وعنجهية، رجـالها صنفان، صنف لا يأبه بالنساء، والصنف الآخر يخضعهم لنزواته الغريبة، لم استطع أن أحصل على عشـاق، فما بالـك بالأصـدقـاء، المـرأة تنشد الحرارة وتقنع بالدفء، ولندن باردة وسياسيوها جديون، ماهرون بالكذب، لم ابق فيها طويلاً، سافرت إلى امستردام وبـروكسـل ثم إلى باريـز، باريـز أنت تعـرفهـا، مدينـة خلقت للحب، لـديهـا تنويعات خارقة للفرح والحزن، اللقاء له سحره والفراق له جماله، وطقوس للبهجة والمرح والتعاسة، لذلك يخرج منها عشاق موهوبون وسياسيون رديئون وعسكر فاشلون.

- ونابليون؟

- نابليون كان فاشلاً في الحب.

- والسوريون؟

- السوريون كرماء، وعشاق جامحون مفرطو العاطفة، ليس لديهم صبر ولا يهتمون بآداب المائدة، لكن أنت شيء آخر... لقد صقلتك باريز.

في باريز أطلقت العنان لنزوات الروح وتهتك الجسد، لكن هذا لم يعصمها من الـزلـل، أحبت ضابطاً فرنسياً يصغرها بخمسة أعوام، أخلصت له، ودت أن

تقضي بقية حياتها معه، أرسلوه إلى سورية، وقبل أن يسافر أهداها كلب «شيان لو»، هذا الكلب ذكرها به أثناء غيابه، لم تستطع نسيانه ولحقت به بعد ستة أشهر إلى دمشق.

ـ كان هذا هو خطئي الوحيد والجسيم.

خلال تلك الأشهر القليلة فقدت نعمة النسيان التي لم تتخل عنها قط.

ـ عندما وصلت كانوا قد دفنوه قبل أسبوع، مات من جراء ضربة شمس، أدركتني الأحزان والأوجاع حتى ظننت أنني سأموت بضربة شمس وأتبعه، كان عاشقاً ممتازاً، وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي تمنيت فيها أن أستقر مع رجل... رجل ذي مطالب متواضعة، يحترمني كزوجة، يطبع قبلاته على وجنتيّ بشوق.

عاجلتها الكهولة والتأملات في دمشق وحولها الضباط الفرنسيون...

ـ مسيو سرحان، يجب ألا نبالغ بأوهام الحب، الحب حالة لا تدوم، والمدن كلها خدعة، هناك روابط أقوى من الحب.

خرجت من وحدتها وعقدت صداقاتها مع رفاقه المحرومين من الشقراوات، ساعدوها وجعلوا من بيتها مأوى للفتيات الشقراوات، وعلى الرغم من التجاعيد والمرارة حافظت على طولها الفارع وجسدها الملفوف وصوتها الرنان، متمسكة بإيمانها المسيحي واختياراتها السليمة لمشدات البطن والأرداف وحمالات الأثداء، وتذوقها الأصيل للأنبذة المعتقة، وحقيبة تمتلىء بصور وحكايات عن رجال وسيمين، رفيعي المقامات ونكرات، وذكريات متوزعة بين الفنادق والمطاعم والغرف المفروشة والقطارات، وتجارب شائقة تحيلها تعاليم تبثها فتيات الفرق العابرة والمتنوعة الجنسية، في جمع المال والاقتصاد في صرفه، في التدلل واصطياد الهدايا، في التمنع وادعاء العفة.

وأصبح في مدخل حارة البحصة البرانية بانسيون تديره امرأة بلون الثلج، فرنسية أو يونانية، أرمنية أو ايطالية، يرتاده الوجهاء والضباط تحت جنح الظلام، في دخلة مسدودة جوار مقام الشيخ محمود البحصلي، في الحارة التي لم يخل بيت فيها

من «شيخ البحرة» يقرقع بقبقابه في الصباح الباكر وهو يتوضأ من ماء البحرة، ويذرع أرجاءها مجذوب اسمه فالح يلغو بالنار والعذاب والأموات والحساب.

لم يعترض أحد على وجودها وكل هؤلاء البكوات والعسكر يسترضونها، ولم يستنكروا شراسة الكلب الذي بات يمنع زوار المقام من إشعال الشمعة اليومية فوق قبر الشيخ البحصلي، وإنما احتجوا على وجود الكلب النجس مقابل جامع الطاووسية، يعكر بعوائه صوت المؤذن خمس مرات في اليوم، قدموا له وجبة دسمة من اللحم والعظم دسوا فيها الزرنيخ، وعند الصباح كان صوت المؤذن صافياً ونقياً وطاهراً، والكلب يحشرج لافظاً أنفاسه الأخيرة أمام عينيها، جاء العسكر السنغال وعلى رأسهم ضابط برتبة كابتن، وأغلقوا الحارة من طرفيها، نصبوا أسلحتهم وفرضوا على أهالي الحارة دية القتيل بالليرات الذهبية العثمانية.

خرج الرجال بقنابيزهم وشراويلهم، والنساء بملاءاتهن السوداء، والأطفال بمناماتهم «وشحاطاتهم»، وشدهت مدام كورينا أمام الناس الذين خلقوا واقفين دفعة واحدة، أين كان هذا الحشد مختبئاً، وخرست وهي التي كانت تشتم القتلة بسبعة لغات معروفة، ما عدا العربية.

- لم أتخيل هذا العدد الكبير، أدركت أنني لست دخيلة فقط وإنما وحيدة أيضاً، وأصبحت مخيرة بين أن أحزم حقائبي وأرحل، أو أبقى . . .

صرفت الكابتن مع عسكره، ودفنت الكلب في المقبرة الافرنسية، سالت دموعها فوق كومة التراب، وعندما ودعته تذكرت الضابط الذي أهدى اليها الكلب وكان سبب موته ووجودها في دمشق، عادت وألقت نظرة على قبره وتخيلته كما رأته لأول مرة، فتياً وجميلاً، شكرته على كل ما قدمه لها، ثم غادرت المكان وقطعت صلتها بالمقابر.

باتت مدام كورينا جزءاً من الحارة تتجول عند الضحى حاملة سلتها، تشتري أغراضها من دكان أبي عبده وأبي أسعد، تلقي تحياتها بالعامية المكسرة، تستفسر من الرجال عن صحة المدام، وعند المغيب تشعل شمعة تضعها في كوز من الزجاج الشفاف، تبقى مضاءة طوال الليل فوق مقام الشيخ محمود البحصلي

. . . سمع نقراً على الباب، تخيل على الفور امرأة منكبة وراء الخص، تكشف طرف الستارة وتدعو الله أن يستر على مدام كورينا وبناتها.

دخلت ليزا تتبعها سلافكا وايفيت، التفت اليهن، تحاشته ليزا واندفعت إلى غرفتها دون ان تتفوه بكلمة، أجالت مدام كورينا بصرها بينهما متحيرة، ثم سألت ايفيت عن مارغو، أجابتها بأن فتحي بك مر بالملهى وأخذها معه، وقفت ولحقت بليزا، فيما دخلت البنات إلى غرفهن، لم تلبث مدام كورينا أن عادت إليه قائلة:

ـ مسيو يوسف، ليزا تعسة، لقد وصلتها أخبار حزينة هذا المساء، اذهب وواسها، إنها بحاجة إلى عزاء.

كانت متكورة فوق الفراش، تخفي وجهها بالمخدة، مس شعرها وناداها، لوت وجهها وأجهشت بالبكاء، أحس وهو الذي لم يرها تبكي من قبل، أنه استعاض عن المرأة التي قبلها في زوايا ملهى «كازانوفا» ـ وهي تضحك بصوت عال ومنغم، وعلمها كيف ترشف العرق ـ بامرأة تمتح أحزانها المفتعلة من رياء الموسيقا والأنوار الخافتة. في الغرفة ذاتها التي ناما فيها متماسكين، أحس بها تبتعد عنه، أدار وجهها نحوه ورآها تزداد قرباً منه أكثر من أي وقت مضى، كان قلبها الأبيض يشهق والدموع السوداء تسيل على خديها. . . . ترثي أهلها وبراغ، المرأة التي هربت من أهلها وبراغ، ومسحتهم من دنياها المتنقلة والمتبدلة، ترجع اليهم وتستقر هناك على الحدود، ترقب بعيون واجفة، الحشود الألمانية في سكسونيا، وهتلر يماطل بضمانة حدود تشيكوسلوفياكا.

ما الذي يتكرر الآن. . . وليزا تحدثه عن عودتها القريبة إلى براغ، وتتمنى ان تصلها قبل أن تدخلها الجيوش الألمانية، عبد الله سرحان يقف بينهما يصغي مشيراً اليها، وماري تيريز تودعه ثانية وقد جفت دموعها، وصبحي طاهر وكريم الحجار يحيطان به، استدار نحوهم، وواجهم وهم فوق الرقع الغامضة المتباعدة وهي تتوضح. . . تتدانى بالسحر وتتجلى كالقضاء. . . . يترجلون عنها ثم يمتطونها. . . وهكذا. . . وهكذا. . . رحلة الأجساد والأرواح.

. . . كانا وهما يلتصقان ببعضهما بعضاً يحتميان بأعضائهما، يتبادلان رعشات الخوف ومتاهات الرعب، ويسريان مغلوبين ومقهورين في دنيا مغلقة الرجاءات، يتمسك بخاصرتيها . . . هذا جسد أخرى . . . . . وتلك هي المرة الأولى التي يتلمس فيها منخفضاتها وتلعاتها، والمرأة تتقمص الجسد المرتجف المعطل بالأنين، يبعد ما حدث مرة في العتمة القاسية، ويستعيد جسدها برمته تحت الضوء .

. . . تعتصره وتجول فوق جسده، تبسط يديها على صدره، تمسد كتفي رجل هناك . . . كان أوسيكون في براغ، تضحك وتنوح، تنتشي وتئن، تغمغم بالتشيكية، ويرد على فورانها وتقلباتها بالعربية، يتفاهمان باللغتين ويتباعدان بالجسدين .

* * *

جاءه صوت مدام كورينا من خلف الباب :

ـ مسيو يوسف، صديقك كريم ينتظرك .

رنا إليها وهو يرتدي ملابسه على مهل، يودعها صامتاً، ليزا وقد تحررت من ادعاءات أحمر الشفاه والمساحيق والخطوط الرفيعة، وشردت من فراشها إلى أحلامها، لا تتهيأ للرحيل وانما تحمل حقائبها وتركب سكة العودة، تمضي على وقع صفير قطار ينهب الأرض ويجتاز الحدود، المحطات تتوالى، ولا تتوقف في أي منها، تقصد محطة تراها قبل أن تلوح .

أمسك كريم بيده، وقال له إنه لم ينم الليل بطوله، اعتمد على ساعده وتقدما في المدخل، وأخذ ينهي إليه آخر الأخبار .

. . . الوزارة ستقدم استقالتها إلى رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي هذا الصباح، والذي سوف يقبلها ويكلف لطفي الحفار بتشكيل الوزارة الجديدة .

الزقاق الفارغ يتململ والبيوت تصحو على خفق الأريج الرطب، وهما يتمشيان ساهمين، برفق وأناة، ساكتين، يتسمعان صوت أقدامهما على الأرض .

من بعيــد لمح يوسف أولاداً يغـــادرون الفـرن وقـد بسطـوا أيـديهم يحملون على سواعدهم الخبز التنوري.

ـ ما زال أمام الكتلة تجربة جديدة يقدم عليها أحد زعمائها بمعزل عنها.

كانت تلك هي الكلمات الأخـيرة التي أطلقهـا كريم الحجـار تعليقـا على الأخبـار التي ستنشـر صبيحـة هذا اليـوم، انفصـل عن يوسف عند دخلة الشيخ أحمد، واتجه صوب طلعة «جوزة الحدباء»، فيما تابع يوسف طريقه مسرعاً، وقد كاد أن يصطدم برجل يخفي وجهه بين ياقتي معطفه عند دخلة الصعب.

- ٧ -

أخفقت في أن تقـوده من مقهى الـبرازيـل إلى حي القنـوات، وأضاعته في منعطف نزلـة البحصـة الـبرانيـة، ولبثت تترصـده صاحيـة طوال ساعـات الليل الحالكة دون جدوى، مرتدية المدربية المخمل في انتظار الرجل الذي سيوافيها دون وعد ويخلف الموعد.

عنـد انبـلاج الصبـاح وجدته، يمر وحيداً جوار دخلة الشيخ أحمد، أحجية قاسية أحدقت بها روائح الشد والرخي لامرأة عريانة وقلقة، صرخت متوفزة:

ـ ماذا في مدخل البحصة البرانية؟!

أيقظت دادا خديجة وأعادت عليها السؤال:

ـ جامع وسبيل ومقام الشيخ بحصلي، ودكاكين.

ـ وماذا أيضا؟

ـ عيادة الدكتور ثريا فوق العادة ودكان أبي شفيق حادي الخيل، وطاحونة أبي أمين والكواء أبو أنطون، ونجار وحلاق، وخطاطين.

ـ وهل هناك بيوت؟

ـ الحـارة تمتـلىء بها، بيـت الـعظـم والمـارديـني والحـداد والمـهـايـني وسركيسيان...

ودت لو تبثها مخاوفها وشجونها، رجلي يعذبني يقترب ويبتعد.

فكت شرائط المدربية، واخذت تنزعها ملامسة القطن والمخمل، تطوي تطاريز الأزهار المنمنمة في التدريبات الشائكة للبطانة، وتظهر بالسترة السماوي والرقيق الهندي، امرأة تتشكل من خيوط الحرير والسقم، تنهض ولا تتمكن من وقفتها، تتكىء على حشية الريش مستندة برأسها إلى مرفقها، تتأهب في انتظار اليدين اللتين ستحلان الزمة عن كاحليها وترخيان الدكة عن وسطها.

أدركت دادا خديجة أن الخيال الذي لم يلب الدعوة، فاته لقاء أجمل من الخيال، وكأن سعدي العاجي الذي احتل الديار بطولها وعرضها، بنحنحاته وسعاله، منعه من غشيانها، متوسطاً الليوان، منتحيا جوار الأحواض، واقفا عند البحرة وخلفه عرائش المجنونة، يسد الدهليز ويسكت الماء، مطلقا شكوكه:

ـ ست الشام تشعل نارها في البيت.

مرتديا الشروال البني والميتان المطرز بمربعات ومخمسات القصب، وتحته الصدرية المزررة بخمسين من الخيوط المفتولة، يضرب بجزمته على البلاط مهدداً:

ـ العاجي لون

كان وهو يبدل ألوانه، يخرج من العاجي ويدخل في الأخضر، ينفلت من الأحمر ويرتد إلى الأخضر، ويفسر لها:

ـ العاجي لون التقية.

ـ الخانم لا تقنع والألوان لا تفلح.

ـ ست الشام مخيرة وليست مسيرة.

تمعن التفكير وتتخلى عنه:

ـ الخانم مسيرة.

يشق الألوان ويشهدها:

ـ انظري.

«... الرجل وقد اعتمد على ركبتيه وأطراف أصابع قدميه فوق السجادة، يقترب بوجهه نحو الرضيع محيطا المهد بيديه، الأصابع الصغيرة

والطرية تلهو بوجهه وتعبث بشعره، وامرأة يممت وجهها شطرهما، ترمقهما بحنان».

تستوقف الخانم المنظر، تثبته، تختبره.

«. . . جالسا بين الأم والصبي، حائراً من المعاني الخفيفة والثقيلة، الصبي يفتق أصواتاً ضعيفة، فيما تشخص المرأة ببصرها إليهما، نظراتهما تتقاطع، تتلاقى ولا تتلاقى، وكل شيء يتكرر جافاً وخشناً، تتوامض هينهات من القطيعة والاتصال وكأنها لم تحدث قط، يشتاق إليها وهو منفرد عنها، في مشرب الشباب على ضفة بردى، في مطعم فيفا فيلا في شارع الكلية، وبين ذراعي ليزا في بانسيون مدام كورينا، ومواجهتها يحس بعبث النجوى والتصافي، ما الذي سوف يتصل؟! ومن الذي ينفصل . . . هو أم هي؟!».

يتأمل سعدي العاجي ما يراه بريبة، وينكره:

ـ تزوير، ست الشام تختلق النوايا.

ودادا خديجة تمنعه:

ـ دعها يا سعدي، الخانم تطرق مسالكها.

والخانم تمضي ولا تتردد، تقدم ولا تنكص، تتمدد على الفراش وتترقب مفتوحة العينين، ويوسف يضطجع على السرير مفتوح العينين. يلبثان محملقين في السقف. أغمض يوسف عينيه، وعاجلته الخانم وأغمضت عينيها.

أصبحا هناك، مفترشين الأرض، تعتمد بزندها على الأعشاب الخضراء، مسندة رأسها إلى كفها، وجهه يمس صدرها، وعيناهما الواحدة تراود الأخرى، لم تسأله أين كنت، وأين قضيت ليلتك. في تلك اللحظات المختلسة من الوسن وقد أصبح قريباً منها ودت لو تتملى ملامحه، فيما تداعى مدهوشاً يتذكر الوجه الذي لم يفارقه قط، تخلص من حيرته، ألم يكن هذا مكانها دائماً؟!

قال لها:

ـ ما الذي تغير؟

أجابته:

ـ لا شيىء .

وبرر لها سبب غيابه :

ـ قضيت خمس سنوات في الغربة .

ـ أدري .

ـ وما الذي تعرفينه أيضا؟

ـ كل شيى .

ـ كل شيىء؟ !

كان وهو يسألها من باب توما ، ترد عليه من باب الفرج ، ويتحزر هل تتكلم بلسانها أم بلسانه .

ابتسمت بأسى ، وعاتبته :

ـ لماذا لم تبحث عني؟

ـ وأين؟

لم تجبـه وهـو يلح عليهـا ، تغيب في باب شرقي ، ويلاحقها من باب الجابية بين الأسواق والأزقة والخلق ، ويجدها . . . متلاصقين عند باب الصغير .

قال متعجبا :

ـ لا يفصلني عنك شيىء .

يتسـابعـان سيرهما حتى باب السلام ، وعند باب الفراديس كانت تعنون له الـدروب السبعـة للبـدايات ، اللهفة والشوق والعشق والشغف والوصال والحرية والحياة ، تصاغ داخل السور وعلى أطرافه .

انتفض سعدي العاجي حانقاً :

ـ ست الشام تمارس ألاعيبها .

ودادا خديجة تحذره :

ـ ابتعد عنها .

الخانم تفتح عينيها ويوسف يفتح عينيه .

. . . باتوا وهم يتسابقون ، يتلاقون ويتباعدون . . سعدي يرتطم بالأبواب

ودادا خديجة توصدها، تسارع الخانم مغمضة العينين ويوسف يجيل بصره في أرجاء الغرفة، سعدي يرتعد من الغيظ والزبد يرغي على فمه ودادا خديجة تمسك به وتدفعه، تحلق الخانم فوق الأبواب والأشجار الباسقة ودوي البشر، يوسف يهرع خارجاً من الغرفة علّه يلحقها على الدرج، سعدي يتوعد:

- سأعود إلى الحياة.

ودادا خديجة مشفقة عليه:

- أين الحياة التي ستعود اليها؟!

الخانم تتعثر بشهيق الأصوات والرغبات والأثواب، ويوسف يلقي نظرة من شباك الداور إلى الديار ثم يعود منصتاً للحوار الذي انقطع فجأة والتصق على الفراغ، أعضاؤه ترتجف والكلمات التي يستعيدها تزلزل كيانه.

وكنت أقول وصلك أوهام بادلت روحي حنين بحنين

يؤوْب سعدي منهكاً، متوكئاً على جدار البحرة إلى غرفة التصاوير، يرتاح ويستجم في جنائن الجدران، يغرغر بأنفاسه ويقعقع بجلده اليابس بين عواء الذئاب وسجع القمري وشخب اللبن، يرفع يده محملا دادا خديجة تبعة أحيحه:

- ست الشام أمانتك.

أمانتك..؟ كيف؟!.. ودمع ست الشام لم يجف مذ زعق وأبعدها عن صورة كادت أن تكتمل، وأعادها إلى النفس القصية والمكان الذي بان، وجفناها لا يفلحان في استعادة من أفلت من دائرة مآقيها إلى تعرجات بحجم الدنيا.

- دادا خديجة... ما هو الموت؟

صعقت من وهج السؤال وحرقته والخانم تقفز إلى الخاتمة، وهي تريد أن تثنيها عن دموعها وغصتها.

- سأجعله يكبو عند قدميك ويقبل مداس نعليك.

لم تكن تلك هي الصورة الملائمة للرجل الذي لم تعد تتخيله إلا ملتصقاً بها ومحاذياً لها، تتطاول كي ترى وجهه، وينحني برأسه كي يضع فمه فوق فمها.

ويـوسـف . . يلملم مخلفـات ومضـات سنـوات بعيـدة ويشتتها ، عن امرأة مجهولة تتذرع بلحظات قصيرة مبتورة دائماً ، مصنوعة من وهم وهناء ونزق ، تشغل فلوات في قلبه وخيالاته ، يفارق الواقع ، يدعه ويكتفي بأضغاثه ، وأمينة تبعد عنه مسافة من بضع خطوات ، وهو بالقسر يحاول أن يجعل هذه البلاطات هوة تغوص إلى ما لا نهاية .

والخانم تجد جواباً لسؤالها . . أليس الموت لقاء لا ينتهي؟

ودادا خديجـة لا تستسلم لعشى الأمـانـات وكفـاءات المـوت ، كانت وقـد عثـرت على العطـار ثانيـة بين حصـار النهايات اليائسة ، العطار الذي كشف عنه وتبرع كي يشفيها منه . واثقة أنها ستجد عنده أيضا «الجلب» الذي سيقوده صاغراً من مكـامنـه ، عاشقـاً متيـماً ، ومـدلها دنفا ، ومحبا شغفا ، أعمى البصر والبصيرة ، ينسـخ ما قبلهـا ويسقـط ما بعـدهـا ، تأسره بغِلّ الجوى وأغلال الهوى . . . مجنوناً بست الشام .

* * *

- ٨ -

تاق الطبيب وقد تفاعل بالأزمنة الدقيقة والحاسمة إلى تصحيح مسار الحركات التي جعلته عند الشروق الجميل يغادر بيت سرحان دون أن يرسم النقلات الضرورية والبسيطة التي ستعيده اليه.

. . . في الصباح والشمس تبزغ ملقية سهام أشعتها الناعمة على الظلال المتواطئة والهمسات الكئيبة، لدى ذلك الفاصل الذي أضاء الحيرة المتلفعة بالغموض، كانت الثغرة واضحة، لم يكن عليه أن ينسحب وانما أن يبقى في المكان الذي تركه خالياً، ما زال ينتظر من يشغله، والآن. . . حان الوقت كي يعود ويدس شخصه فيه، يستعيد اللحظة ويبدأ منها، متجاهلاً الأيام التي فصلت بين الحركتين، مستدركاً تلك البرهة دون أي خطأ في التوقيت، ذلك ما أسماه توارد الأزمنة والأفعال.

. . . يمرر من فرجة الباب زجاجة الشراب المقوي وينتظر، وعندما يتساءل الصوت عن الزجاجة، يجيبها بثقة:

ـ ألم تستدعوني؟

تنفي الأمر، عندئذ يبادر إلى رأب الالتباس الحاصل، متقمصاً دور فاعل الخير، معيداً حكاية النازفة، ومعولاً على دمها الذي امتصته الشراشف القطنية

البيضـاء، الـدم الـذي يضخه القلب ويوزعه على سائر أنحاء الجسم، لا ليزيت الشرايين والأوردة بل ليهب الحياة ذاتها على شكل سائل أحمر قان.

- . . . وهذا الأكسير الشافي ما هو إلا تعويض للدماء التي فقدتها.

يدع الـزجـاجـة بين يديها، ويدير ظهره وينصرف ونداءات الشكر والعرفان بالجميل تلاحقه، كانت تلك فاتحة موفقة، لكنها لم تبدأ.

اذ في الـوقت الـذي تصـوره مواتيـاً كي يطـرق فيها باب بيت سرحان، لمح الـرجـل الـذي رآه قبـل أيام متزناً وسكران في المكان نفسه مسرعاً وصاحياً. تباطأ متوجساً وتشاغل بنقل حقيبته إلى يده اليسرى. مر الرجل جواره وكاد أن يصطدم به، ثم تجاوزه متـابعـاً طريقـه إلى دخلة الشيخ رمضان. وقف عند الباب. أخرج مفتـاحـاً أداره في القفـل ودخـل في اللحظة التي كان يفترض فيها أن يكون هو من يرفع السقاطة ويقرع الباب نفسه.

كان الرجل الذي غاب وراءه قد أفسد عليه الدور الذي تعب في إعداده، وجعله يكتشف أمـراً في غايـة الأهمية والسخف، ظهور رجل لم يكن له وجود على الاطـلاق، ثم أصبـح له مكـان غامض ومقلق داخـل تركيبة طارئة وغير مرضية، كان الـرجـل الـذي حاذاه ولم يستطع أن يلتقط ملامحه بوضوح قد انتزع منه كل ما كان على وشـك التحقق. رفض المفـاجأة، وتخيـل على الفـور فتاة سجينة بحوزة قوادة وهذا الرجل يبتزها ويمارس معها صنوف الحرام.

كان خياله الذي أربكه مراراً بتجاوزاته وسبب له كثيراً من المآزق الحرجة في المـاضي، قد أنقـذه بتعليـل سريـع يتماشى مع الأحداث، عدا أن التسمية التي أطلقهـا عليـه قد استهـوته، «فاعل الحرام»، متأكداً من أن شطحاته التي لم تشتط وتتجـاهـل الـواقـع، لم يساهم القدر في حـبكها فقط وانما أحكم تفسيرها أيضاً، فاعـل الخـير في طرف، وعلى الطرف المقابل فاعل الحرام، وأجرى تعديلاً بسيطاً وأصبـح فاعـل الحـرام يمثـل الشـر. وفي غرفتـه الضيقـة أدار بكـل عنف وحيوية الصراع الخالد وغير المتكافىء بين الخير والشر، دون أن يغمط نفسه مظاهر الطيبة والبـراءة، وأن يجعـل الشـر يتجلى بأبشـع صوره وأحقرها، وعلى الرغم من ذلك

انتصر الخير. واقتنع بعد أن أنهى جولته مظفراً أن عليه استكمال المعلومات التي تؤيد الأوصاف الخسيسة للرجل الذي هزم.

خرج إلى سوق العتيق، وابتدأ من «مجيد الفوال» و«برو العطار» وانتهى بأبي سليم الحلاق وتحسين الخضري، لكنهم لم يضيفوا لمعلوماته الزهيدة ولو نزراً يسيراً.

- رأينا عبد الله سرحان منذ عشر سنوات ونيف، ثم سمعنا أنه أصيب بالفالج، وقبل حوالي سنة شيعنا جنازته.

استلفت نظرة في مقهى الخديوية، مجموعة من الكهول متحلقين حول طاولة، يقرقرون بالنراجيل ويصعدون آهات من الدخان، يتابعون بعيون نصف مغمضة الباعة المكدودين المتسربلين بالبرد والنقع، وراء بسطات اللفت والبطاطا. نصب نارجيلة وأخذ شهقات متلاحقة ثم علا بصوته فوق رشفات الشاي وبلادة الندل.

- رحم الله عبد الله سرحان.

أطارت التعويذة المرتجلة الفاصل النعسان من الرؤوس، رموا عنهم المظاهر المتهالكة من الكسل والغبار، وتسارعت أصواتهم.

- رحم الله أبا يوسف، كان رجلاً لا كالرجال.

بعد أن ألقى بالمفتاح الذي بقربه المعضلة الكتيمة، أخذت الأحداث تنثال متلاحقة وطلية ثم متشعبة وحامية، وعبد الله سرحان يتوسطها.

- انضم إلى عبد القادر سكر في جوبر، اشتبكوا مع الفرنسيين وشتتوهم ثم لاحقوهم حتى باب توما.

- ... لولا تدخل الطائرات في جسر الغيضة لكانت الغلبة لهم، اسقطوا طائرة ثم انسحبوا إلى حران العواميد.

- ... ودمروا الخط الحديدي في جديدة الشيباني وهزموا الجيش المتمركز فيها.

- بعد قصف الشام بالقنابل، رجع أبو يوسف إلى دمشق وباع دكانين له،

واحداً في سوق الهال، والثاني في سوق التبن، اشترى بثمنهما بنادق مصادرة، مساهماً بالغرامة المفروضة على الأهالي، ثم عاد واشترك في معركة يلدا.

ـ . . . وعندما حوصر حي الميدان . . .

تنبه عند حي الميدان.

ـ لم يتبق لدى سليم عبسه سوى خمس رصاصات، قتل أربعة جنود وانتحر بالرصاصة الخامسة.

ـ أحاط بأبي محمود الهندي أكثر من مائة جندي وهو متمترس بزقاق ضيق، أجبرهم على التراجع بعد أن قتل سبعة منهم، ولما التجأ إلى بيت النشواتي حاصره الجنود من جديد فقتل تسعة منهم، عندئذ وجه الكولونيل كليمان دبابة ضده، هدمت باب المنزل، وعندما انكشف مكمنه سلط سدنتها رشاشاتهم عليه حتى قتل، ثم صبوا البنزين على جثمانه وأشعلوا فيه النار.

تفادى البطولات ولم يعبأ بالتضحيات، ودفع من خلال وقفة قصيرة من القرقرة، سؤاله الهامس وقد جف ريقه:

ـ وأين كان أبو يوسف؟

ـ في حي الميدان وعاش الحصار من بدايته حتى نهايته.

عندما عادوا يروون معارك حفير الفوقا وزملكا، كان قد انسحب من المعارك كلها، وارتد إلى ما قبل شهرين ونصف من الحصار، إلى الرابع والعشرين من شباط من عام **١٩٢٦** عندما قتل رقيب فرنسي في حي الميدان. أراد الفرنسيون تطويق الحي والقيام بحملة تأديبية واسعة، لكنهم اضطروا لتأجيلها حتى شهر أيار بانتظار وصول فيلق الرماة الخامس والستين لدعم حامية دمشق.

أرسلوا راضي حكمة الموظف الكفء في إدارة تموين الجيش إلى الميدان، متنكراً بلهجة فلاح من الغوطة وزي بائع خضار، اكترى عربة تسلل بها إلى الأزقة، يتشمم أخبار العصابات التي تغلق المحلات بالقوة وتفرض الأتاوات على أصحابها، غاب لأسبوع ثم عاد على محفة.

أودعوه المستشفى الافرنسي وهو مطمئن إلى شفائه، واثقاً من أن رجاءه لن

يخيب في الأطباء والممرضات الذين سيحجزون بينه وبين الموت، وديجوفينيل الذي سيمنحه رتبة إضافية ومكافأة مالية.

من فراشه روى له أحداث الليلة التي أغلقت بالظلام وعفن الخضار، وهو يغالب سعاله وجرحين، كيف جر عربته المحملة بالسلق والسبانخ إلى دخلة مسدودة عندما سمع صوتاً أجش يناديه، تظاهر أنه لم يسمعه وتابع دفع عربته بيد وبالأخرى تحسس «الطبنجة»، وعاد الصوت قوياً ومنذرا:

ـ إلى أين يا خائن؟

دفع العربة بعيداً عنه، وانحنى بجذعه مستديراً نحوه ويده تحت الكمر ممسكاً بالطبنجة، لكن الرجل الملثم كان مشهرا مسدسه وصوته يرعد:

ـ خذ يا خنزير.

مفرغاً رصاصتين، واحدة في بطنه والأخرى في صدره، واختفى، سحب يده من تحت الكمر، أمسك بطنه وركض عائداً إلى ساحة السوق صارخاً:

ـ قتلني... قتلني...

انهكه النزيف، وهوى على الأرض فوق القمامة وروث الدواب، غاب عن وعيه... والموت يعلوه...

... أغفل الجملة الأخيرة، وخامره الظن أن الموت قد ربض فوق صدره، وما لم يتحقق في ساحة السوق، يشهده الآن وهو في كامل وعيه، أحس برأسه ثقيلاً، رفع اليه عينين خائرتين وأدرك أنه كان يروي قصة إصابته واحتضاره التي تختتم الآن بين روائح القيىء والمعقمات تحت السقف العاري إلا من حبابة صغيرة، يرفل بالوحدة والألم، وملائكة الرحمة قد أفلن بعيداً وراء الجدران بأرواحهن البيضاء، وقد فاتته رائحة الأرض والنجوم اللامعة في سماء فسيحة.

عوضه المفوض السامي ديجوفينيل عن أبيه، بأن أبعده عن دمشق إلى بيروت ليتم دراسته ثم أرسله إلى باريس ليدرس الطب منحة من سلطات الانتداب. بينما أخفق القومندان كوليبه مدير الاستخبارات في تقصي هوية الرجل الملثم الذي لم يترك خلفه سوى صوته الأجش ورصاصتين، متذرعاً بأن هناك آلافاً

من الرجال الملثمين، المتوارين عن الأنظار، وأوصافهم تنطبق على قاتل أبيه . . . لكن أيهم؟!

القـومنـدان كوليبـه لم يسأل نفسه، كيف تمكن القاتل من تمييز بائع الخضار المتنكـر في سوق الميـدان؟! ألم يتبـادر لذهنـه أنـه قبـل سـتـة أشهر مضت، بعد أن قصفت المـدفعيـة الافـرنسيـة دمشق لثـلاثـة أيام متواصلة، قامت بتغريم الأهالي بمبلغ مائة ألف ليرة عثمانية ذهبية وثلاثة آلاف بندقية. دفعت الغرامة النقدية في الوقت المعين، لكن المندوبين لم يتمكنوا من جمع البنادق، مما دفع القومندان كوليبه لانتداب بعض من موظفي الادارات التابعة ومنهم راضي حكمة، وتكليفهم ببيع كميـة من البنـادق القـديمـة المصادرة بأثمان باهظة كي يتمكن الأهالي من شرائها وتسليمهـا إلى السلطـات. في ذلـك الوقت بعد أن باع عبد الله سرحان الدكانين رأى راضي حكمـة يبيـع البنـادق ممثـلاً عن السلطـة الفرنسية، وبعد ذلك بثلاثة أشهر، رآه ثانية في الميدان. . وأعدمه

والآن بعـد ثلاثـة عشـر عامـاً في مقهى الخـديـويـة، ينجـح فيما فشل فيه القومندان كوليبه، وهو يلملم أشتات صورة من زحام الكلمات والرصاص.

« . . . يوسف سرحان حصل على اجازة في الحـقوق من باريز، وتزوج من ابنة عمه، وهو يؤثث مكتباً للمحاماة في بناء العابد، لم يمارس عمله بعد، ورفاقه من أيام مكتب عنبر كتلويون وشهبندريون».

كلا . . لم يكن يوسف سرحـان أزعـر وإنما هو زوج الفتاة التي يتمنى أن يسمع صوت طرقات قبقابها على البلاط.

والضـورة الشـريـرة تلاشت مع دخـان النـراجيـل، وظهـرت بدلاً عنهـا أخـرى، مخيبـة ومفجعـة للتركيبـة الـداعرة، وعلاقته بيوسف سرحان قد تعقدت بشكل مرير، تداعت القصة الماجنة وحلت قصة أخرى تفوقها ضراوة وقسوة.

عبـد الله سرحـان قتـل أباه، وابنه يوسف يحتجز الفتاة التي تمتلك روحـه، تحت زعم عقـود الـزواج وكأن قوانـين الـوراثـة تتـوافـر شروطها في الأخذ والعطاء

أيضـاً، وهـا هوذا يوسف يكمـل المسار الملعون وينتظم فيه، بادئاً بانتزاع روحـه، لكن عطالة المنح والمنع لن ترسم دورانها الغلاب.

بدت وجـوه الـرجـال متـآزرة بخبـايـا صمتهـا، وهي توجه الاتهام ليوسف سرحـان، ادانـة كاملة لا تقبـل النقض، وأصـوات النـدل الرفيعة والموسقة تبدد وحشـة الاعـتراف السخي، وعلى امتـداد النظـر تترامى المشـاهد العميقة محملة بالرموز الصارخة، تنتقل باحكام من التهتك المفضوح إلى القتل العمد، تؤكدها العنـايـة الالهيـة معلقـة على الحـائـط «ولسوف يعطيك ربك فترضى»، جلية في الاشـارات المتـلاحقـة والغنيـة، التي قادته من الوسن إلى الحلم، ومن الحلم إلى اليقظـة، ومن اليقظـة إلى الســرنمـة، ينجيهـا من المـوت المحتم، إلى الحيـاة المحتمة... لماذا؟!.. كي يعقد الله الأواصر بينهما.

* * *

بعـد أن أمسـك بتـلابيب القـاتـل في الخـديـويـة، لم يفلتـه خلال الطريق القصيرة من جوزة الحدباء إلى زقاق القرماني، وقد أعد العدة كي يتخلص منه في الغرفة الموصدة دون قضاة وشهود ومرافعات مضيعة للوقت.

تربع فوق حصيرة القش وسط هشاشة السرير والخزانة وكراسي الخيزران، وعندما كادت المأثرة أن تنجز في لحظة واحدة، استعصت عليه الضربة القاضية!!! لم تنفرط حساباته وانما بانت عنه، أصابه الذعر من الخيال الذي لم يخذله من قبل، وقد تخلى عنه في الوقت الذي ملك فيه سراً خصباً، ارتبك واستحال عليه الربط بين المقدمات السيئة ونتائجها الخيرة، وتحير من ذهوله الجاحد المنبثق دون حجج مقنعة، فيما طفا خموله فوق أفكاره وبدأ يعطلها.

... بالكـاد استطـاع أن يسبق البـلادة وهي تستشـري في أعضـائـه، ويستـوعب تلك اللمحـة قبـل أن تغيب، ويدرك العلة في انطفائه التدريجي، كان السبب هو الفـول المـدمس الـذي أغـري بتنـاوله مرتين، الأولى عند مجيد الفوال صباحاً، والثانية في مقهى الخديوية ظهراً.

كانت أبخرة الفول بكثافتها قد عبقت في قمة نافوخه ولبدت هناك وأخذت تؤتي مفعولها، تخدره وتسد أسماعه، وتلجمه عن التفكير العميق والشرود اللين، وأصبح المأزق الخانق هو أن يبقى ليومين كاملين اسيراً في جلسته هذه، واضعاً يديه على ركبتيه، لا يبدي حراكاً ولا يرف له جفن، مسطولاً، مقيداً بأغلال الفول الثقيلة، داخل تخريمة من الصفاء العكر واللزج، فيما تنتظره مهام كبيرة وحاسمة، لم يكن هناك من خيار والخطوة الأولى هي أن يجتاز باب الغرفة.

تطامن بجذعه معتمداً بمرفقه على الحصيرة ثم بساعده الأيسر، زاحفاً حتى الوصيد، لمس الحائط ثم أخذ يتسلقه.

تخطى العتبة مطلقاً قدميه فوق الأرض، وتاه عن الزمن الذي يتمدد ويختزل بين الحارات والدخلات، يتوقف عند الفيجة، يشرب طاستين من الماء البارد ثم يبحث عن أخرى، يتنبه إلى موقعه في سوق الزيت وخان الباشا، يتساءل... لماذا أنا هنا؟! يعود أدراجه ويجد نفسه في سوق السروجية وفي سوق الخجا. لماذا أنا هنا؟! ويضيف... وليس هناك؟ كان هناك شيء مفقود في هذه الأمكنة المقفرة.

رجع يخترق الشوارع، في محطة الحجاز، لبث واقفاً ينتظر قطاراً لم يأت، وحوله ليل يهبط فوق الفوانيس المضاءة وسكة الحديد وقاعة السفر، أدرك أن القطار الذي لم يقف عند الرصيف، ولم يفرغ ركابه، لم يكن يحمل اليه أحداً.

نزل درج المحطة، طالعه مدخل وشرفات فندق «الاوريان بالاس» تذكر شيئاً يتعلق بالزمن استدار ورفع رأسه، كانت ساعة الحجاز تعلن السابعة، وبات للرقم معنى، لقد تأخر ساعة كاملة على موعده مع الكابتن راغب صولاني في مطعم «الشانوار» محطتهما الاسبوعية ريثما يذهبان إلى تياترو زهرة دمشق.

* * *

لم يُظهر الكابتن صولاني انزعاجه من تأخره، وإنما تضايق منه لأنه أصرّ فور جلوسه على طلب إبريق من الشاي المخمر!! وأين؟! في الشانوار. ولماذا؟ كي

يتحـرر من ربقـة الفـول، ولأن إجـابته كانت واضحة تماماً، ولديه ما يشغله عنه، غض الطرف عن حماقته.

بعـد أن شرب الطبيب كوبـين من الشـاي السـاخن، تراجـع بجذعه إلى مقعـده وتهيأ للكـلام، امتعض صولاني مفضـلاً أن يكتفي صديقه برشف الشاي حتى دون أن يعلق على مذاقـه الـرديء ـ كي يتمكن من متـابعة التفكير بعواقب مشـاجـرته الليلة الماضية، لكن الطبيب أزاح الشاي جانباً وأخذ يسرد بتؤدة قصة قصيرة تمتد حوادثها سنوات طويلة!! ولم تنته بعد.

نجـح صديقـه في أن يقـاطـع أفكـاره، لأن تلك القصة لم تعد قصيرة وانما انتفـخ حجمهـا وتـرهلت أبعـادهـا، بعـد أن استساغ الراوي عناصرها المأساوية والطيعـة في شخصي القـاتـل والقتيـل دون أن يلقي بالاً للزمن الذي لفظ القتيل وأخفى القاتل، ولم يكتف بذلك وإنما ألقى القبض على القاتل متلبساً بجريمته، ملثماً، وهـو يضغط على الزناد مرتين، ومتى؟! بعد مرور ثلاثة عشر عاماً!! ولأنه كان معتاداً على أمزجة صديقه التافهة وخياله المتعب الغث فقد أسكته دونما انتظار للذروة المفتعلة:

ـ اصفح عنه.

أعتقـد أنـه أوجد الحل المناسب لهذه المشكلة التي لا وجود لها، على الرغم من أن القتيـل هو أبـو الـراوي والقـاتل واحد من أفراد العصابات التي ما زال عدد كبـير من أفـرادهـا على قيـد الحياة، كانت تلك هي المشكلة التي استعصى على الزمن حلها، وهي الحادثة التي يعرفها بحذافيرها مذ كانا معاً في السنة الأخيرة من الـدراسـة الثـانـويـة لكن دون مزاعم واهية، وذيول عاطفية، والآن يعيدها على مسامعه مضيفاً اليها حميته في تتبع آثار الفاعل الذي لم يترك وراءه أثراً يدل عليه.

تابع الطبيب استنتـاجـاته اللامنطقية وهويبتدع أحزانه ويبالغ بها، مؤكداً أن القـاتـل قد كشف اللثـام عن وجهـه وعبث بقسوة وبلا رحمة في جراحـه التي لم تندمل قط، فيما تفادى الكابتن صولاني نظراته الحادة وأدار وجهه صوب الجالسين وقد ازداد يقينه في أن صاحبه الذي يطبق فمه في أغلب الأحيان بلا مبرر، ويبدو

مشوشا رغم صمته، يتجلى الآن وهو ينتقي ألفاظه بحرص أكثر سخافة مما كان يعرفه عنه، وتدخل مرغماً حتى لا يفسد عليه الطبيب سهرتهما في التياترو، وكي يقنعه، اصطنع ملامح الجد ونصحه أن يستعين بالشرطة.

لكن الطبيب لم يكن بحاجة إلى نصيحة وهو يركز على إيراد التفاصيل الثانوية بدقة، . . . أبوه يتشحط في دمه والشقي يمنع عمال التنظيفات من حمله داخل عربة القمامة، ملامحه الاجرامية وابتسامته المتشفية، قامته الفارعة، ومشيته . . . مترنماً ومترنحاً، كان يعاين الحادثة بروح جديدة تحت أنوار الشانوار الرقيقة بين الضباط الفرنسيين الصغار، وموظفي الادارات وهم يجرعون البيرة، ويتناولون الأطعمة الخفيفة ويلهون بالسياسة، يجدد اكتشافه المثير ويكسبه واقعية خشنة بعيدة عن الوهم الشفاف، لم ينف موت القاتل فقط وانما أعطاه هيئة واسم يوسف سرحان، ذلك التماهي الرفيع لن يتنبه له الكابتن صولاني، ولن يفهم قوانينه، قوانين وراثة الجزاء والعقاب وتقاص الأرواح والأجساد.

أثبتت التعديلات تماسكاً وسط نشرات الأخبار الخافتة، وصولاني لم يعترض على كلمة واحدة منها، تذكر الطبيب نصيحة الكابتن وأجابه بحزم:

ـ أنا لا أنوي أن أبلغ الشرطة(وإنما أن أقتص منه بيدي، العين بالعين والسن بالسن.

فوجىء صولاني بحرارة عبارات التهديد، واختبر بحذاقةٍ الطرفة التي نتجت من تداعيات الفول، بدت مسفة في الخيال وسقيمة، وعلى الرغم من الانفعال المحزن الذي ظهر على وجه الطبيب، اعتقد جازماً أنه من المستحيل على صديقه البليد أن يلعب هذا الدور الجريء والعنيف . . . يمسك مسدساً ويطلق منه طلقتين يصيب فيهما خصمه في صدره وبطنه، أو يلعب الدور المؤلم ابن يتقطع قلبه لمقتل أبيه ويتمخض الثأر بين أعطافه، ومن يقوم بذلك؟! الطبيب الذي لم يقدس الطب ولم يحترمه، ولم يهتم بجسم الانسان إلا على أنه آلة صماء لا تعرف إلا الأوجاع الكاذبة، دوران لا يطيقهما جسد الطبيب الخرع، لذلك لم يسقط من حسابه فصلي القتل والثأر فقط بل القصة بكاملها، واثقاً أنه يخترع

القصة ويلفق حوادثها مومئاً إلى قدرات لا وجود لها، ووجد أنه من الصواب أن يدع الطبيب يتابع مغامرته اللفظية منفرداً، ويبتعد بأفكاره عنه وينغمس في مشاكله الواقعية التي لا غبار عليها، إلى مشاجرته مع اللويتنان الفرنسي في كازينو رويال من أجل أرتيست ألمانية شقراء.

لم يكن ما جرى صداماً عادياً أو عابراً تبودلت فيه بعض الكلمات غير المهذبة والشتائم، وإنما مشاجرة حامية كاد أن يودي فيها بحياة الليوتنان، أعجبته الشقراء الألمانية وهي ترقص مع الليوتنان، هز لها برأسه مبتسماً، وردت على ابتسامته من خلف ظهر مرافقها، تقدم منهما مستأذناً في الرقص معها، لكن الليوتنان نظر إليه شزراً وتابع الدوران معها، لم يملك نفسه، شده من كتفه وصفعه على وجهه، ثم أشهر مسدسة وطلب من مرافقيه أن يجردوا أصدقائه من أسلحتهم وأمر الندل بإغلاق باب الكازينو، وكان من حسن الحظ أن الليوتنان لم يفكر بالمقاومة وإلا لأرداه قتيلاً، أحاط بذراعيه خصر الألمانية التي تصلب جسدها من الرعب، ورقص معها لساعة أو ساعتين تحت تهديد السلاح، عندما صحا من سكرته، خطر له الليوتنان المحتجز في مرحاض الكازينو، أطلق سراحه وأعاد إلى أصدقائه الغاضبين أسلحتهم، ثم غادر الكازينو ونام إلى ما بعد الظهر، وبعد الغذاء تذكر الحادثة برمتها، وتخيل عواقبها فيما اذا تقدم الليوتنان بشكوى ضده، ستكلفه المشاجرة عدة سنوات من السجن أو تأخير ترفيعه لسنتين على الأقل اذا لم يسَّرح.

.. ثم يأتيه الطبيب الذي يعاني من فاقة مزمنة في المشكلات الشخصية والهموم العامة، يحاول أن يلهيه بثرثرته الفارغة عن مأزقه، فكر في أنه لو استطاع أن يعرف اسم الليوتنان أو مركز قطعته، لأرسل له اعتذاراً مهذباً مبطناً بتهديد لا يخطئه المرسل إليه، يحذره فيه من مغبة الشكوى.

نظر إلى ساعته، كان الوقت يمضي والمقصورة التي حجزاها في تياترو زهرة دمشق بانتظارهما، كان قد عزم على اصطحاب مطربة الجوقة فريدة لدى مغادرتها المسرح، ينتظرها عند الباب الخلفي وينتزعها من بين رجلي شرطة وقحين وعشاق

سكـارى وسميعـة نشـوانـين. وفي غرفتـه بالفنـدق، يكسـر ليال طويلة من البعد الشاسع للدلع والغمزات، يحتويها بين ذراعيه، تغني في أذنه، فيما التلاصق يبتدع أفـانـين من اللهـو والمـلاعبة. لكن ومزاجه معتكر الليلة، لا يود أن يرتكب مخالفة ثانية خلال يومين متتالين دونما فاصل معقول، وعليه في التياترو أن يكتفي بتوطيد مزيـد من الغـرام والهيـام عن بعـد، ريثـما تنجـلي غمامـة الليـوتنـان الـذي أطاح بمخططاته الغرامية التي رسمها في موقع كتيبته في حمانا.

* * *

أشـرفـا على الصـالـة الغـاصة بالضجيج والزبائن، من موظفي الدواوين الحكومية وشباب الأحياء وطلاب المدارس العليا، متجمعين ومتفرقين حول الموائد التي صفت عليها أقداح العرق وأطباق الفاكهة وصحون المازة، من حلقاتهم ترقى هالات من الـدخـان واللغـو واليـانسـون، تمازجهـا تقـاسيم الألحان الصادرة عن الجـوقـة، وفي المقـاصير الأمامية والجانبية، تصدر الوجهاء وأكابر الموظفين والتجار يتحدثون همساً وبالاشارات.

على المسـرح، جلس العـازفون على الطرف الأيسر، وعلى الطرف الآخر الراقصات وهن يتمايلن، فيما ظهرت مطربة الجوق، فريدة، بابتسامتها العريضة، تتقـدم على مهـل بثـوبها الزهري وقد سبغت كشاكشه حتى كاحليها وطعم صدره «بالتنتنة»، مختالة بمشيتها تياهة بالنغم، تسلط عليها الشراب، تمسك بالكأس، تغمغم بالكـلام والمـوسيقـا، تجلس في مكـانهـا وسط العازفين والراقصات. توقع بقـدمهـا، تلتفت إلى يسـارهـا، تهز رأسهـا لعازف العود، وتقوم واحدة من نساء الفـرقـة من مكـانهـا وهي ترقص مقـتربة، ينفرد عازف القانون بالتقاسيم، تجيل بصرها بين الحضور، وترجّع بصوتها.

سلمـت روحـك يا فؤادي　　للغـرام من غير ما تعـلم
وصـبـحـت عرضـة للهـوان　　ولـلمـلام خايـف لا تعـلم

. . لم يعد هناك سواها والصوت المدندن بالملامة، ومن الأمكنة كلها تتناهى من الحناجر شهقات من النشوة وتأوهات من اهوان.

في تلك اللحظات بدا الطبيب مسالماً على الرغم من مثالبه العدوانية العجيبة، وهو ينفذ حركاته المعتادة بآلية، يطلب زجاجتي شمبانيا يدفع ثمنهما للنادل وصولاني يرسل واحدة منهما باسمه إلى فريدة، كانا قد تقاسما الغزل مع فريدة، قسمة غير عادلة، الطبيب يدفع المصاريف وصولاني يتلقى جل ابتساماتها، تجعله هذه الحركات المألوفة من التسامح الواقعي للطبيب، يحس برفقته الممتعة في هذا الجو من التفاهم المتبادل.

لكن وأريج الصوت ينتشر ويتخلل المكان، يحمل الطبيب ويرتفع به إلى أجواء تتجاوز السقف، إلى تلك السماء الفسيحة المنارة بوجه واحد يتجلى في كل نجمة، العازفون يرفعون من طبقات آلاتهم يصعدون مع الصوت، وعازف القانون يتوقف عاجزاً عن اللحاق به، أحس وهو وحيد في هذا الصفاء، أن وصالاً من السحر والطلاوة، يعقد سداه ولحمته بين الأرواح، يتسامق ولا يتطامن مع الصوت النازل وقد قفّى النغم على أثره، صاعداً إلى الجواب، ماساً جواب جواب، محيطاً بالمقام كله.

وصولاني يلاحق عينيها ويتتبع غنج حركاتها. صوبت نظراتها اليه. رفع كأسه وشرب نخبها، ابتسمت ورفعت كأسها وشربت نخبه، حازرا أن شريكه يغتنم الفرصة الآن من وراء ظهره، يرفع كأسه ويرسل إليها نظرة حارقة وهي لا تبخل عليه بنظرة خاطفة تروي ظمأه، ملمحة إلى مكانته الخاصة في قلبها. استرق نظرة إلى الطبيب، وجده يرشف الشمبانيا شاخصاً ببصره إلى الفضاء، تاركاً هذ النزر اليسير، ويتخلى عنه كلية، زاهداً لا يطمع حتى في واحدة من هؤلاء النساء الخمس، مبحراً مع أصداء الصوت الشجي، يجتلي محاسن النغم والايقاع، رقيق النظرات، حييا وهو يتمتم معها:

يا قلبي كان مالك ومال الغرام
وكنت عنه في غنى من زمان

بات واللفظ يخاطبه، يحجم عن استكناه خباياه، ولا يرضى بمعانيه المترددة، يكبت أشواقه ويمنعها من مغادرة أضلاعه، مربوطاً بالعشق المباح والملجوم. . والصالة تضج بالصراخ، طالبان يتركان مكانيهما ويناولانها محارم مطرزة لتجفف عرقها، وشاب يدحرج فوق أرض المسرح برتقالة وتفاحة كبيرتين، ورجل متأنق يقدم لها سبحته، وآخر يقدم لها صرة ملبس، والوجهاء الرصينون يأمرون لها بالشمبانيا، وجوقة الموسيقيين توقع للراقصة بالعود والدربكة، وفريدة تلعب أدوارها المتماثلة والمتناقضة، تتمايل مع اللحن، تبسم لشاب وتومىء لآخر، تهز رأسها لكهل يجلس منفرداً، ونظرة حزينة لموظف، تمسح على شعرها وتضع يدها على صدرها وتهمس بشفتيها، وعيناها تجولان بين المقاصير، تشعل الحضور بقوة صوتها وتلاوين تقاطيعها. .

أشكي لمين ذل الهوى قلبي انشبك

تشكبهم. . . الحضور كتلة واحدة تهتز معها، وصولاني يتململ في جلسته، غاضباً، لا يستسيغ امتداد التلميحات إلى الجمع الغفير، والطبيب احتقن وجهه.

واللي أحبه ده غزال ولا ملك

للامتناع حكم الغرام قاسي مطاع

يا منصفين ده نا قلبي انشبك

هب الطبيب من مقعده، متخلياً عن وقاره، وقد باتت فريدة تتكلم بلسانه، وصرخ معها بلوعة:

يا منصفين ده نا قلبي انشبك.

أمسكه صولاني من يده وأجلسه، عابساً في وجهه، أقلقته دموع الطبيب، وتخضل عينيه وهو يخاطبه مستسلماً وبصوت خفيض وكسير:

- يا منصفين ده نا قلبي انشبك.

شده صولاني من خفة الطبيب الذي أغفل رزانته وأظهر دون مقدمات

طيبـة قلبـه وهلهلة عواطفـه دفعـة واحـدة، وقد جازت عليه خديعة المسرح الذي تتشـارك فوق خشبتـه الايقـاعـات الـرخية وبحة الصوت المثيرة، ودلال الأجساد البضة المنقطة بالشامات والخالات، مع تأثير الشراب المسكر، وضرب فريدة على الأوتار المائعة للحضور دون شفقة.

وبـات ليـالي انـتظـر وعـد الحـبـيـب
امـتى أشـوف أنس الجـمـيـل يمـكـن أطـيـب
مـن دي الجـراح

. . . كان وجههـا وحـده، وجههـا المغمض العينـين يطـالعه وأنوار الصباح ترسـل خيـوطهـا الأولى، وهـو يروح ويجيء ذليـلاً ومهـانا، ممروضا ومهتاجا أمام الدخلات، ووراء الباب . . . وعد الحبيب اللاهي والمربوط، المشغول والممنوع.

رفع رأسه وردد اللازمة معها أسيرا:

يا منصفين ده نا قلبي انشبك.

اعتقـد صولاني ازاء رهـافـة مشـاعر الطبيب أنه لا يواجه موقفاً مخزياً فقط، وإنـما إشكـالاً في التفسـير أيضـاً، ما الـذي يشكـومنـه الطبيب الحساس؟! هل تستطيـع مجرد أغنيـة دون لفتـات فريـدة، وتخلع الراقصات وانسلاب الجمهور أن تديـر له رأسـه وتفتت له قلبـه، أي قلب هذا الـذي ينفطـر لملاحـة الصوت ونشاز الكـورس وتخلخـل اللحن وصـراخ السكـارى؟! وكيف تمحي فجأة قصـة القتـل الـدمـويـة والثأر الملتهبـة وتسيـل الـدمـوع على خديـه متمادياً مع الجراح الكاذبة للصوت، دموع الطبيب الذي لا يستطيع أن يحب ولا يعرف كيف يحب.

. . وكـادت المفـاجأة أن تتفـاقم عنـدمـا طلب رجـل مسن دور «ضيعت مستقبـل حيـاتي» والطبيب لا تفـوتـه الفرصة، يشارك بالصراخ ويطالب مستمرئاً آلامـه دور «في البعـد يامـا كنت أنـوح» وخيـل لصـولاني ازاء اصرار الطبيب على النواح، أنه ينوي رمي نفسه من «اللوج» حزناً وكمداً وعليه أن يمنعه من العويل والسقوط المفجع.

أمسكـه من ياقتـه، وانتـزعـه من كرسيـه وجـره معـه خارج التياترو، أوقفه

مواجهة الحائط ثم جعله يقرفص، قبض على شعره بكلتا يديه وأمره أن يتقيأ، لكن الطبيب لم يرغب بإخراج شيء من داخله، أغلق فمه، ثم فتحه بصعوبة كي يفهمه أن شفاءه وهدوء باله يكمن في أن يتكلم على غير هدى.

أركبه إلى جانبه في السيارة وتشاغل بقيادتها عن أناته، منطلقاً في طريق الربوة، ريثما يستعيد صديقه عقله الجامد في الليل الصافي، المواتي للنجوى.

أفلت الطبيب لسانه كما وعده، يتلوى ويتلعثم، يدور ويلف، دون أن يحكي شيئاً، ثم استرسل يروي قصة.. قصة أخرى، مفككة ومحيرة، لكنها واضحة، تربطها وشائج قوية بقصة الشانوار.

... الطبيب يعشق زوجة القاتل!!

كاد صولاني أن يضغط بقدمه على الكابح ويطرد الطبيب من السيارة برفسة قوية من حذائه العسكري، لكنه والطبيب يبدي عذره:

ـ امرأة تجعل الصخر يتكلم.

تراجع ووافقه في سره على مقارنته بالصخر، وكان السر الذي انفضح مقارباً للواقع تماماً على الرغم من تجاور الضغينة والهوى الجارف،... هذه المرأة جعلته يهجر نظراته المسترقة إلى فريدة، ودفعته إلى الكلام والغناء والنشيج.

رمى صولاني بنصيحته الجوهرية يختتم بها السلسلة التافهة من القصص التي أضاع بها سهرته:

ـ تخلص منه وخذها.

ساد الصمت بينهما، وجعير السيارة يطوقهما، وفي الخارج... طوال الطريق كانت الأصوات التي لم يسمعاها، النسيم الخفيف البارد يداعب أوراق الشجر متمسحاً بها، وبردى يغرغر بخرير مخنوق موشى بنقيق الضفادع، وقبل أن يقلق الطبيب هذا الجعير الثمين، أوصله إلى دخلة القرماني، قاده إلى البيت، تركه يدخل ثم عاد يمشي الهوينى ينعم بوحدته، عندما قارب أن يصل إلى سيارته، لاحظ أن هناك سيارة أخرى وضابطاً برتبة قومندان ترافقه ثلة من الجنود، تقدم منه وسأله:

ـ الكابتن راغب صولاني؟

ـ نعم .

ـ أنت موقوف .

أجابه دون مبالاة أو تفكير :

ـ ولماذا؟

ـ لاعتدائك على ضابط فرنسي .

أحس بالحنق الشديد، كيف فاتته السيارة التي تبعته كل هذه المدة من الزمن، أين كانت أفكاره؟! علق بصلافة :

ـ لقد أهانني وأدبته .

ـ تستطيع أن تقول هذا في التحقيق .

أدرك أن الليوتنان قد أوقع به، فيما كان الطبيب يشتته بقصص الغرام والانتقام .

* * *

- ٩ -

تراءت أرض الديار مشطوفة . . ونور الصباح يخفق في الفضاء ويتسلل برقة إلى الأوراق المبللة والأغصان الرطبة ويتخللها إلى العرائش، يلمّع مهرجان الألوان ويجليه، كانت زخات المطر قد غسلت برتابتها ونزقها الأشجار وزجاج الشبابيك والعقود الحجرية، وتركت بقاياها تقطر نقطة . . نقطة من رؤوس الأوراق، وامتزجت زقزقة العصافير الشاردة مع انثيال مياه الميازيب في الأحواض والبلاليع، ومن الديار فاحت رائحة نداوة الطين وعبير القهوة، تباشير صباح لا تنفصل عناصره . . . تجففه الشمس وتنعشه الذكريات في انتظار صباحيات مضت .

. . . أمه وسميحة تجران الأرائك، تمدان البسط والسجاد، تضعان الطنافس في الركن الظليل تحت شجرتي الليمون والمشمش الهندي، «ركوة» القهوة على النار، ونساء وبنات الحارة يفدن مثنى وفرادى، ضحكاتهن العابثة تسبقهن متناثرة بين الماء وأحجار البازلت السوداء والرخام، تنزاح مناديل الموسلين عن وجوه مشرقة ومبتسمة، ومن سواد الملايا تنفلت أجسام بضة وممتلئة، وقدود هيفاء في أثواب من الحرير والقطن الموشى بالدانتيل . أم حسن تضبط أوتار العود، ورقية تتدلل وتتمنع عن الرقص، فتحية تعلو بصوتها . . «لما بدا يتثنى»، وأم

صبحي تدير فنجان القهوة بين أصابعها، ترى طريقاً للسفر وغائباً يعود، أحباب وأعداء، وأرزاق على بعد إشارات ثلاث.

قطعت سميحة تتابع الصباحية وأصوات الأنس وهينهات الأنغام، مؤنبة:

ـ أصبح البيت فندقاً تأوي إليه في الليل وتهجره في النهار.

لاحت مصممة، تريد أن تكسر حواجز من الصمت والكآبة، وروتيناً من الحركات المتتالية بلا معنى، قالت آسفة:

ـ هل تذكر عندما سافرت؟ وكأنك لم تعد حتى الآن.

في هذا اليوم الذي ود فيه أن تعود للبيت أفراحه، الصباحية «والسيارين»، ليالي السمر والنساء المستبشرات، كان هناك ما انفصم، المباهج التي رحلت، تركت وراءها هياكلها الموجعة، السهاور والحزازير التي بقيت دون حل، باصات الغوطة وريشة العود المعلقة بين الأوتار المشدودة، وحبات الكستناء فوق المنقل النحاسي، مفتقرة إلى فكاهة الألعاب وهزل النسوة، غرف النوم والجلوس، القاعة والفرنكة، جدران لا تحفظ ما دار خلف سماكاتها، وكأن ما جرى، تأطر بقضبان من البعد والمستحيل.

كاد أن يميل عليها ويسألها.. هل أنا عقبة في حياتك؟

كلا.. لا يطيق أن يجرحها، يعرف أنه العقبة، وسميحة على الرغم من كلماتها القليلة واضحة، ارتضت أن تحمل هموم الاسرة وأعباء الحياة اليومية، لا يذكرها طفلة الا لماماً، كانت دائماً شابة عاقلة، يرامقها تلوب في مناحي البيت، ويتحزر أين تختبىء المرأة في أعطافها، ويخاف أن يلمح نهايات المرأة التي لم ترفض الزواج بابن عمها، وإنما أجلته... وإلى متى؟! محسن الذي تربت معه وعاشا أجمل سنوات حياتهما متباعدين، هي في دمشق وهو في معان، يرسل المراسيل لا يكل ولا يغضب، ويسأل... ألم يحن الوقت؟!

كان عليها أن تتزوج من عشر سنوات، مذ طلبها محسن للزواج أول مرة، هل عليه أن يرغمها على الزواج؟ فتاة في الخامسة والعشرين لا يصح أن تنتظر شهراً آخر، واضطرت مختارة أن تكون جسر البيت في سن مبكرة، قال لها مراراً:

ـ محسن لا ينتظر جواباً، وانما ينتظرك أنت.

تحدجه بنظرة قاسية:

ـ ولمن أترك البيت؟!

كانت بصمتها وعنفوانها تضيق عليه الخناق، سميحة خلقت للزواج والأطفال، وخلقت أيضاً لهذا الزمان الذي يتقاعس فيه الرجال ويشردون خارج البيت، تهمل شبابها وتتنكر لعواطفها، توارى من يموت التراب، ثم تصبر عليه وتشد من أزره، ولا تتخلى عن أمينة والطفل، تضعهم أمانة في عنقها، تنتظر الفرصة على قدميه تهديانه إلى البيت.

. . . يلحظها، ترقب حيرته وتردده بين ممارسة المحاماة وبحثه المتلكىء عن وظيفة، موقنة أنه لن يبدأ عملاً ولن يجده، تلك النزعة المتعالية التي ورثها عن أبيه ودربه عليها أيضاً، لن يمتثل إلا لما تعلمه منه ولن يكون إلا في المكان الصحيح، في أيام الكتلة التي تقاسمت المناصب، ووزعت الوظائف على الأقرباء والموالين والأزلام. كيف يدخل هذه البوتقة المريرة من الرياء والمداهنة دون أن يدوس على الرجل الذي نهاه عنها، لم يكن هناك من سبيل سوى أن يعتكف أو يشارك فيها بالهدم وتجريح الذات.

وهي . . . كانت ترى نصيبها وقدرها ليس فيما قسمه لها أبوها الذي أطلق سراحها عندما زوجه بأمينة وإنما في أن تحي رباطه المقدس معها، قال لها:

ـ أنا لم أخترها.

ـ تقرّب منها وتعرّف عليها، ربما اخترتها.

تمضه الرغبة الممزوجة بالرهبة، والأمل الذي يحدوه اليأس، وهذا الذي يتوالى بانتظام محملاً بالمرارة والخذلان، بدا . . . وكأنه سيعقب بجواب لا علاقة له بما دار بينهما من قبل أو بما يجري بينهما الآن. . كريم الحجار لم يكن يتنبأ وهو يعلق على لطفي الحفار بعد أيام قليلة من تشكيله الوزارة.

ـ باتت أيام الوزارة الجديدة معدودة.

الخيبة مرة أخرى، وسد منيع يفصل داخل البيت عن خارجه، سميحة

وأمينة تبدوان في عزلة مطلقة، وهو بدخوله وخروجه لا يبددها بقدر ما يؤكدها، لا يجربها بقدر ما يبتعد عنها، ويدعهما لمصائرهما. امرأتان مؤهلتان للأحزان والبكاء، وتراءى له في لحظة أن فسحة ضئيلة من الأمل ستحدث انفراجاً ما في الداخل، كان قد تفاءل عندما تمكنت اللجنة العليا من تعديل نظام الطوائف، وصدور القانون وتعديله عن المفوض السامي، وتصريح لطفي الحفار الذي أعلن فيه أن وزارة العقلاء استطاعت أن تحرز نجاحاً ترضي به المشايخ والطلبة والمندوب السامي، لكن المعارضة استنكرت التصريح وأعلنت أن هذا النصر لم يكن من فعل الوزارة الحالية، وأن الوزارة السابقة كانت ستدعيه لنفسها لو امتد بها الأجل أياماً أخرى، والذي عدل نظام الطوائف لم يكن رئيس الوزراء أو بيو أو حتى اللجنة العليا وانما المعارضة الشعبية.

لم تتوقف المظاهرات واستمرت قوية وامتدت إلى حمص وحماة وحلب وإلى معظم المدن تطالب بلواء اسكندرون، لكن لطفي الحفار لم يجد نفسه ملزماً بفتح صفحة طويت منذ زمن... لواء اسكندرون تلك المشكلة التي لن تجد حلاً، بعد أن أنهيتْ بين باريز وأنقره. تجاهل القضية برمتها بعد أن حمّل مسؤولية اقتطاع اللواء من الأراضي السورية لحكومة جميل مردم، وعاد إلى بيانه الوزاري الذي وعد فيه بإبرام المعاهدة دون الاعتراف بملاحقها واعادة الصلات الحسنة مع ممثلي الانتداب. بات التناقض واضحاً، كانت المعاهدة التي سيتبرأ من ملاحقها تنتظر من يظهرها إلى الوجود كي يطالب بابرامها، أما إعادة الصلات الحسنة فهي مرهونة بتجاهل المعاهدة.

واقفاً إزاءها، ملجوم الأحاسيس، لا يدري ما الذي يربطه بكل هذا الضجيج الذي اقتحم البيت وتمفصل مع أنشطة الهوام والسبات المدوي في الفراغ، ما الذي تعنيه هذه التصريحات المتلاحقة والمتضاربة، كريم يلح قائلاً:

ـ لماذا لا تعود وتنضم إلى الكتلة؟

لا يجيبه وانما يعرض حالته:

ـ في باريز كنت كتلوياً وفي دمشق أصبحت متفرجاً.

لم يعـد يشـك في أنـه ابتـدع كتلة أخرى في الغربة، كتلة وطنية كانت ثمرة خياله وهو يتحرك نشطاً بين الجماعات السورية والنوادي العربية ومكاتب الصحف والأحـزاب الاشـتراكية والشيوعية الفرنسية، يتقصى أخبار خطواتها الحثيثة، بعد أن لمح تفتحهـا في الاضـرابـات وفـوق المنـابـر، يشهـد وقـد خبر وعودها، تفرقها وتشرذمها شيعاً متنابذة متعادية.

وكـريم الحجـار لا يفتأ يصر على أن الكتلة وهي في سبيلها إلى عزل لطفي الحفار سوف تجبر بيو على التفاهم معها وتسليم الحكم اليها.

ـ لكن أية كتلة؟!

. . . فارس الخوري ناقم على جميل مردم لأنه دس عليه لدى الافرنسيين وحال بينه وبين السفر إلى باريز للتفاوض حول المعاهدة، وهما ليسا على وفاق مع شكـري القـوتلي لأنه استقال في الأيام العصيبة وتركهما يتلقيان الانتقادات العنيفة والظـالمـة، مدعيـاً أن جميـل مردم أسـاء تصـريف شؤون وزارته أثناء غيابه، وهم مختلفـون مع لطفي الحفـار ومظهـر أرسـلان لتكـالبهما على الوزارة، هذا عدا عن الاتهامات المتبادلة مع عطا الأيوبي وسعد الله الجابري.

كيف يستطيـع أن يرمم روحـه وبقـاياه، وهناك ما يحفر عميقاً. . . عميقاً، بين الضلع والضلع.

ـ الكتلة تبـدو موحـدة وهي تدفـع لطفي الحفـار إلى الاستقـالة، لكنها لن تكون موحدة عندما تواجه بيو.

ينفعل كريم الحجار مدافعاً عن صورة لا تتوضح:

ـ الخـلافـات الشخصية لا تعني زوالها، إنها أخطاء ترتكب في كل تنظيم أو هيئة، عدا أن الكتلة ليست حزباً حديدياً وانما تجمع حر، فيه مجال واسع للاتفاق وعدم الاتفاق.

ما الـذي يقـولـه لها. . هذه التي تنتظر ووراءها امرأة وطفل؟! تلك لواعج وهموم لن تعي الصلةَ التي تربطه بهم، لا يغيب وانما يحضر، يمسك بيدها ويفكر بالرجل الذي لم يتخل في بياناته عن مواقعه ومواقفه، الدكتور عبد الرحمن الشهبندر

الـذي لم يرض بمعـاهدة أقل من المعاهدة الانكليزية العراقية واقامة حكم يضمن الحريات وينقذ البلاد من الفوضى، رافضاً التفاهم أو التعاون مع الكتلة، ومتهماً أيـة حكـومـة تشكلهـا أو تشـارك بها، بأنهـا حكـومة رعاع تعتدي على الحريا ت الشخصية وتمنع حرية الرأي.

وعندما سأل صبحي طاهر:

- هل تهدفون إلى تسلم الحكم في هذه المرحلة؟

أجاب صبحي دون تردد:

- نحن نطالب بأن يعهد بالحكومة إلى وزارة حيادية.

- هل تعني أنه إذا كانت الوزارة خليطاً من الأشخاص الذين لاينتمون إلى حزب أو تجمع معين تصبح في أيدٍ أمينة؟! هل نحن خصوم بعضنا بعضاً؟!

- الوطن ليس مهنة أشخاص أو أحزاب.

كان رجال الشهبندر يوالون اجتماعاتهم لتشكيل الهيئة الشهبندرية بغية الرد على اقتراحات المفوض السامي، في الوقت الذي كانوا فيه يشددون من هجماتهم على الكتلة يأملون نهايتها ونهـايـة وزارة لطفي الحفـار، وكـانت الشـائعات التي تتسرب تؤكد أن الشهبندر سيشارك في الوزارة القادمة.

فاتح صبحي بالأمر، لكنه نفاه:

- سنبقى في المعارضة، نحن لسنا طلاب سلطة.

وسميحة ما زالت منتصبة أمامه تسأله دون أن يحير جواباً، يتلفت متصفحاً الوجوه والرايات، إجابات، عليه أن يعثر عليها وصلات عليه أن يجدها، وكانت عصبـة العمـل القـومي، العصبـة التي لم تساوم أو تتنازل عن برامجها، مبررة عدم اعترافها بالمعاهدة، بسبب لا يمكن نقضه، هو أن المعاهدة وسيلة لاعتراف الأمة بالانتداب، رافضة التعاون مع الحكومات المتعاقبة والمجلس النيابي أو التفاهم مع الفرنسيين، ملمحة بجرأة إلى أن سورية على أبواب ثورة!!

أحس أن عليه أن ينكث بالوعود التي قطعها على نفسه أو يمضي قدماً في

ثورة مجهضة، ثورة دون قادة وأسلحة ومؤسسات، لكن. . . تلك وعود لم تطلق جزافاً ولم يقطعها لهيئة أو حزب أو شخص.

أجال بصره في الشوارع الغاصة بالناس والأماني، بالشعارات والشتائم، حدق بقوة في وهج الشمس والعبث، عيناه لا تزوغان، تبحثان عن شكل ما للحقيقة القاطعة، وهناك ما يبزغ في كل لحظة من جعجعة الحناجر وتلويحات الأيدي وهيجان الأعصاب.

شق طريقه في مماشي التكية السليمانية بين جماعات طلبة كليتي الحقوق والطب من شباب عصبة العمل القومي، يرمي أن يقترب من الشاب الحاسر الرأس الذي وقف في العالي فوق الأكتاف معتمداً بساعده على غصن شجرة، يخطب منددا بالساسة عملاء الانتداب وصنائعه، متوعداً أذناب الفرنسيين وجواسيسهم، ناثراً الحماسة في النفوس، يصغي اليه ويستل كلماته من الهرج والمرج.

تقدم الشاب محمولاً على المناكب والأيدي وانتظمت جموع الطلبة خلفه، خرجوا من التكية السليمانية يحتشدون على ضفة بردى، أعدادهم تزداد وهتافاتهم تشق الضياء وتشعله، وأكفهم لا تفتر عن الوعيد والتصفيق، من بعيد ظهرت سرية الشرطة المتمركزة عند جسر فكتوريا، والوا سيرهم، الشرر يتوامض في الوجوه الغاضبة، والصرخات حارة وممسوسة، والقبضات مكورة ومتوفزة، عندما تقلصت المسافة الفاصلة بينهما استعد رجال الشرطة بهراواتهم، فيما تراجع بعض الطلبة من المؤخرة، يهيئون المقاليع، ويرشقون الحجارة باتجاه الجسر، وانتضى الشبان الذين يتقدمون المظاهرة السكاكين الصغيرة والجنازير، وأشهر الشاب المحمول مسدساً أطلق منه عدة عيارات نارية في السماء، تفرق رجال الشرطة على أثرها والحجارة تنهال فوق رؤوسهم، هاربين وقد شج رأس اثنين منهم.

تابعت المظاهرة تقدمها في طريق السكة، وأطل الناس من أسطحة وشرفات أبنية الطاووسية والنادي العربي، ومن وراء النوافذ وواجهات المحلات وهم يحاذرون أن يظهروا بأجسادهم، وبدت طلائع مظاهرة طلبة التجهيز عند

مدخـل زقـاق الصخـر، التقت المظـاهـرتـان واندفعوا سوية كتلة واحدة نحو بوابة الصالحية، يهتفون بسقوط الوزارة.

يا حفـار مالـك منـا خود كلابـك وارحـل عنـا
يا حفـار مالـك منـا خود وزراءك وحـلّ عنـا

كان الجـو الـرمـادي المشبـع بالغبـار والعرق قد خيم على العيون المترقبة، والشبان بقاماتهم الفارعة وأنفاسهم اللاهثة، بعيونهم الحمراء وحناجرهم المبحوحة يتسلطون على الشوارع والدخلات الملاصقة.

عنـد المستشفى العسكري ظهرت سرية شرطة معززة بفصائل من الدرك، كانوا يلغطون وصفوفهم غير متناسقة، تراجعوا مترددين، لكنهم سرعان ما تقدموا وهم يصرخون ثم أطلقوا النار فجأة.

تسمر يوسف والطلبة يتراكضون في الاتجاهات الثلاثة، وينبطحون أرضاً، يحتمون وراء الأعمدة وجذوع الأشجار، وعند عتبات المحلات، شابان يسقطان أرضـاً، انتـزع نفسـه من وقفته المتصدعة واختبأ وراء سيارة واقفة عند الرصيف، وتبـع ذلـك ضجـة واهنة وصرخات راعشة، أعاد نظره إلى الساحة كان واحد من الشـابـين قد تمكن من الـوصول إلى الرصيف زاحفاً على الأرض، أمسكه رفيقاه وأدخلاه إلى مقهى اللونابارك، وبدا الآخر جثة هامدة، ترك يوسف مكمنه وركض نحوه، كبا فوقه، انتعش وهو يسمع صوت تنفسه، كان مغمى عليه وبنطاله مبقع بالدم، أز الرصاص في أذنه، أدرك أنهم يحاولون إرهابه، لكن صوت الآمر وصله وهـو ينهـاهم عن استعمال البنادق ويطلب منهم الاسراع بالقبض على المشاغبين، أقعـده بصعـوبـة ثم جره إلى السيـارة، فيما عاد الطلبـة يبرزون من مخابئهم بطـرابيشهم الحمـراء وبـزاتهم الغـامقة وياقاتهم البيضاء، وهم يتنادون، ينظمون صفـوفهم ويـتراصـون في مجمـوعـات صغـيرة، وانبرى الشبان يلوحون بالجنازير والسكاكين، وانتظمت على الفور رحلة الأحجار من المقاليع، وقد تلاشى الذعر والخوف والرصاص.

أسلم يوسف الشـاب إلى رفـاقـه ليضمدوا جرحه، واستدار إلى السـاحة،

كان الـدرك يجرون متبعثـرين فوق الأرصفـة المجاورة للمستشفى وهم يحاولون أن يتقـوا الأحجـار المتسـاقطـة فوقهم، والشـرطـة ينـدفعـون نحـو الطلبة الثائرين، يتشابكون بالأيدي والهراوات والجنازير.

أعادت الحركات العنيفة الحياة إلى منظر كاد أن يمر دون أن ينفجر، وبانت المعـركـة عادلـة ومتـوازنـة، مبهجـة ودون أمـل. الـدماء تسيل والشتائم تتطاير، والأنفاس تضطرم في الصدور.

أطلقت سيـارات الشـرطـة أبـواقهـا وهي تنطلق مسـرعـة وتظهر قادمة من الصـالحيـة وجسر فكتوريا، تتوقف عند أطراف الساحة، ينزل منها رجال الشرطة يحاولـون أن يحيطـوا بأرجـاء السـاحـة المفتـوحـة، تتابع وصول الشرطة، وقبل أن يحكمـوا حصـارهم، أخـذ الشبـان يفـرغـون السـاحة ويبتعدون باتجاه أزقة سوق ساروجة، يذوبون فيها.

* * *

لم تكمـل دادا خديجـة مشـوارهـا في شارع جمال باشا، انعطفت إلى الجادة الـرشـاديـة وتـابعت إلى القنـوات، متجنبـة العـراضـات والصبية الذين يحملون العصي ويتقـافـزون بين الدرويشية وساحة المرجة، يتغلغلون في الأسواق يغلقون الدكاكين، قرأت الفاتحة لدى مرورها جوار جامع درويش باشا، وفي غبش سوق مدحـة باشـا تفحصت ملامـح الـرجـال الذين يغادرون السوق متعجلين، كانت الـواجهـة الـزجـاجية لدكان العطار مغلقة، نقرت على العارضة الخشبية، أجابها العطـار من مستـودع الدكان الخلفي، ظهر. . . تمهل قليلاً وضيق ما بين عينيه، لم يستطـع أن يتجـاهلهـا، أدخلهـا المستودع، وعاد ليقعد على الأرض، لم تنتظر أن يسألها عن غرضها، بادرت لاهثة تسرد أخبار المرأة التي بحث لها عن رجل دون أثر أو اسم أو عنوان.

أصغى صامتـاً، متأمـلاً جموح البشـر على الأرض وحصصهم المقسومةفي السماء، وهي تفيض في الوصف، تشرح متألمة وشاكية علة الخانم.

ـ الخـانم لم تعـد تختلق العـلاقـة وكلمات الحب والخصـام فقط، وانما باتت تمشي ملاصقة للرجل الذي لا يحس بوجودها، وتكاد أن تتحول إلى شبح مثله.

فارق العطار صمته وعلل بهدوء:

ـ دعيها تنكوي بالنار حتى تسلم منه ومنها، تجربه في الوهم وتنجو منه في الحقيقة.

يغيظها تراخي العطار.. ولا تتراجع:

ـ من البعـد يتسلط عليهـا، يحكم أوقـات أرقها وهجوعها، ينتقي أحلامها وأخيلة سهادها، وهي تجهر بدقات قلبها ورعشات يديها، تذوب رقة وحنيناً إليه.

تجنب الإشـارة والمـلامـة، لم يكن فيما تشكو منه أمراً مستغربا، الحب نعمة ولعنة، والمحبون يلفقون العذال ويترنمون بالهجران، يتوقون للوصال ويتألقون في القطيعة.

تساءلت وقد نفذ صبرها:

ـ أليس لهذا الغرام من آخر؟! ألن تخلصها من خناق هذا العشق المتربصْ؟

ـ غرام الأشباح لا يروي لكنه يشفي الغليل.

ـ وأدعها لأمزجة خيالٍ؟!

ـ ما الذي تريدينه؟

تقصد اللب وتطلب «الجلب».

ـ ذلله لها.

... البخور صاعد، والعطار نازل في التعازيم والرمل والودع، يعرج على الكـواكب والأبـراج، يدرك القمـر في منازله، عند البطين وقبل الدبران، في الهنعة والذراع، بين النثرة والطرفة.

يقسم بالأحـرف والأسـماء، سبع مرات.. سبعين مرة... سبعمائة مرة.. سبعة آلاف مرة... سبعين ألف مرة.

يدعـو الأعـوان... ارفعـوا الحجـاب بيني وبينكم، وسخـروا لي المـلائكة

الـروحـانيـين المطلعين على خبايا الصدور، وأنجدوني بالإجابة، اكشفوا الأستار عن المكنـون ودلـوني على منـابـع الغيب وأمـدوني برقائق الأنوار ودقائق الأسرار، واخدموني في انقلاب الافئدة والأفكار.

. . . اسقـوا يوسف سرحـان شراب الشغف، واجعلوا محبتهـا في قلبـه ساكنـة، وفي حيـاتـه قائمـة، يهفو اليها وينشدها، يختلف اليها ويغشاها، يمتزج فيها ولا يفترق عنها، يتحدان ولا ينفصلان،

لا يدري أين هو.

فيهـا وأين هي فيـه، أعمى لا يبصـر سواهـا، ابكم لا ينطق إلا باسمهـا، أصم لا يسمع إلا صوتها.

ـ أين نحن يا عطار؟

ـ في الدنيا المتقلبة.

ـ اتبعه يا عطار.

ـ كيـف ألحق به؟! . . . تلك آمـاد من العشق والتلف، يوسف سرحـان مطلوب للحيـاة ومطلوب للمـوت، حيـاة لا تنتهي في الحيـاة ومـوت لا ينتهي في الموت، يكبو ولا يكبو، ينجو لا ينجو يختفي ولا يختفي.

ـ أين نحن يا عطار؟

ـ بين الوقائع والأحداث.

ـ وأين يجري؟

ـ في العمق والبعد.

ـ أجلبه.

ـ يوسف سرحـان لم يكن في أيـديهم حتى يفلتـوه، ولم يسور بالتعاويذ حتى يكسر طوقها، يوسف يطوح في الشوارع، لا تنفع فيه الرقى ولا يغلب على أمره.

ـ أبعده عنها.

ـ هي التي تعترضه.

ـ افعل شيئاً يا عطار.

ـ فات الأوان .

ـ وما العمل؟

ـ قولي لها ، ان تركته يتقاعس تفقده وان لم تمد إليه يديها ، يسقط .

ـ ما الذي سيحدث؟ ما الذي سيتغير؟

ـ لا أدري . . نحن نرى مشيئة الله .

ـ والطوالع؟

ـ الطوالع لا تكذب ، لكننا لا نفهمها .

ـ والمعنى؟

ـ كل منا يكتبه وهو يبحث عنه .

أعلن العطار عجزه دون مواربة .

«يوسف سرحان بات خارج مرمى أبصارنا» .

تبلبلت دادا خديجة وجرضت بريقها دون أن تخفي حنقها من التنبؤات العجماء ، الرصينة والعابثة ، المؤجلة إلى حين والقادمة على عجل ، اعتقدت وهي تؤوب إلى الشوارع التي جفت من الرهام والصراخ ، والأزقة الملوثة بالوحشة والتوجس ، وقد خوت من الخلق المتدافرة ، ان هذا الفراغ الشامل والمسكون بالمعميات ما هو إلا صدى ضعيف ومفكك للفوضى والخيبة اللتين تعيثان في صدرها .

ودت لو تطيل تلك الطريق المؤدية إلى حيث لا ترى الخانم وهي مائلة للانشطار إلى امرأتين ، الأولى انفصمت عن الحاضر والثانية بترت وشائجها مع المستقبل ، وسعدي العاجي متورماً بالذكريات ، يتلاعب بالأزمنة ، يهتبل الفرصة ، يتملص من دهره ويحتل دهرها .

انسلت في سواد الدهليز ، وأطلت على ألق باحة الدار ، ورأتها . . . تهل من باقات الأزهار وتلوى العساليج ، تهدل الثمار ونداوة الغضار ، تخطر بين الياسمين والزنبق البلدي ، باسمة الثغر ، فواحة بالرائحتين ، ولم تدر ما الذي طرأ عندما لم يعد يفصلها عن الخانم سوى خطوات ، تملت وجهها ووقفتها وكادت أن

تقول. . . الخانم استعارت تهلل ملامحها وتفتح جسمها من أيام سلفت، وكادت أن تقــول. . . الخــانم نتحت من اليـاسمـين رواء لفتاتـه ومن الـزنبق رشـاقتـه واستـواءه، وحتى لا تجوز عليهـا الخـديعـة الريانة صدفت عن مخاوفها وأوهامها، واحتفظت بحـذرهـا، ورأتهـا. . ليس كما كانت تتمنى وتشتهي فقـط وإنـما أجمل وأرق وأنضر، الخانم وقد نفت عنها غمرات الكرب ووساوس العشق، واستردت حمرة خديها وبريق عينيها، عبلة أعضائها وسحر إيماءاتها، وكأن هناك ما سرى في هدأة الليـل وجعجعـة النهـار، في الدجى الساجي والنور الصافي، وتحقق في غفلة عن العيون والرغبات، وسعدي العاجي محاصر بالحياة وقد أقفلت أبوابها، يتمحل الظـلال والـذكـريـات، خارج من زمن لا مطـرح له فيه، خارج من زمن لم يوجد فيه، والخانم تتقدم دون أن تعبأ بأفخاخ الذاكرة وأشراك الضلال.

لم تفهم دادا خديجة ما الـذي حدث في غيـابهـا، ومـا الوشائج التي عقدتها الخـانم في صمتهـا، ومـا الـدروب والمسـالـك التي شقتها في وحدتها، فهمت أمراً واحداً، أن الخانم نهضت من ضجعتها.

* * *

- ١٠ -

كان لتلك الجملة الخارقة والخرقاء التي أطلقها صولاني في آخر الليل معبراً بها عن برمه بصديقه، مفعول السحر والسكر في رأس الطبيب، ونجح دون قصد في الضرب على الوتر الذي يعزف عليه سراً ويترنم به خفية، مؤكداً بإيجاز وشمول الحل الوحيد والمقنع لمشكلته الموجعة، وهو يلقيها بخشونة وقرف:

ـ تخلصْ منه وخذها.

صُدم لحظة سماعها وتلقفها على مضض من غير أن يمحص في مراميها أو معانيها، ولم تتكشف له امكاناتها الثرّة إلا في اليوم التالي، في الصباح البارد... استعاد تلك اللهجة اللامبالية والمتعالية، وقد انطمر رأسه في المخدة وغطى اللحاف جسمه، تبين وهو يتملى سحرها الطاغي، ذلك الشيء المرعب والمريح، أن القضاء على خصمه، سوف ينجز بسهولة ويسر، ويتم دون تعقيدات عاطفية وروتين مجحف ولم يخالجه الشك في أنه لو طال طريق «الربوة» لباح صولاني بالترتيبات المواتية، والوسائل القادرة على إنهاء حياة منافسه.

وخلال أسبوع كامل أصغى إلى صديقه وهو يكررها في سكون الليل وضجيج النهار، بأسلوبه البارد والحاذق، واحتفظ بها في واعيته، جافة نضرة كما ولدت في المرة الأولى على الرغم من النداءات الساخنة والمغرية كي يساهم في تحويرها وإضافة بعض الحواشي المناسبة، لكن كان هناك محذور وحيد منعه...

محذور لم يفلح في تخطيه وهو خوفه العميق من تصدع بنياتها الصلب والجذاب، ومع هذا لم تبعث في داخله الانشراح والاطمئنان وانما القنوط لما أثارته من لواعج وآمال، . . . صولاني ذلل له عقبة كبرى وزين له نهاية سعيدة عندما أزاح منافسه بكلمتين ومنحه المرأة بكلمة واحدة، وتساءل فاقد الصبر . . . كيف يتخلص من غريمه فعلاً؟!

ومع أن الخيال طاب له مراراً وحاكى وقاحة وعزيمة صولاني، كان يمسك في اللحظة الأخيرة رادعاً نفسه، ليس لضعفه في مجاراة جرأته الحمقاء، أو لحاجته إلى زاد وفير من الخيال الأعمى، وانما لعدم وثوقه من شطحاته التي قد تشتط أو تقصر عن الأداء السليم.

لذا ترك الموقف معلقاً ريثما يحل موعده معه، في أطول أسبوع عاشه في حياته، لكن صولاني ذلك العسكري الذي لم يخلف موعداً له منذ سنة كاملة، لم يأت إلى الشانوار، وتصور الطبيب بروح عالية أنه قد سبقه إلى زهرة دمشق، لحقه إلى هناك ليجد مكانهما فارغاً في اللوج، وفريدة اسقطتهما من حسابها ونظراتها، انتظره في بهو التياترو دون جدوى، لم ييئس وصوت فريدة المتسلل من الصالة يناكده، اعتقد أنه صديقه وصل دمشق متعباً ومتأخراً وأوى إلى غرفته في فندق داماسكوس بالاس في زقاق الحدباء، ذهب وهو متأكد أنه سيغامر ويوقظه من النوم، لكن مغامرته لم تبدأ، وصولاني لم يكن هناك، راوده الشك مجروحاً في أن صولاني يتسلى بتعذيبه باختفائه في موعد قدومه، ما تصدع في داخله كان غامضاً . . . غامضاً إلى الحد الذي لم يسمح له بالشرود بعيداً أكثر من لحظات، هل يستطيع أن يدع أسبوعاً آخر يمر؟ وقرر على الفور أن يستأجر سيارة إلى حمانا ويجده رغماً عن أنفه.

بعد سفر شاق في الليل، كانت المفاجأة كاملة وغير ممتعة.

- عندما نزل صولاني في الاسبوع الماضي إلى دمشق، لم يعد منها حتى الآن.

صرخ دون أن ينتظر إيضاحاً من معاون قائد الكتيبة:

- ولماذا؟

لم يأبه المعاون لدهشة الطبيب العارمة، تابع:

- إن الكابتن صولاني موقوف الآن في سجن القلعة لارتكابه مخالفة مسلكية مؤسفة.

انتفض الطبيب غاضباً ومرتاح البال وقد عثر على بغيته في زنزانة ضيقة، ثم استرد أنفاسه وعلل غضبته بأن الملابس العسكرية لا تقي صديقه غائلة البرد ولسعات الحشرات، والنزر اليسير من الطعام الذي يوزع عادة على المساجين لن يقيم أوده، وفي دخيلته كان يحتدم غيظاً... كم أضاع من الوقت وهو في غرفته، وصولاني موقوف على بعد شارعين من بيته؟!

.. لكن تخمينات الطبيب لم تكن كلها في محلها، صولاني كان محتجزاً في سجن قلعة دمشق لكنه لم يكن في زنزانة ضيقة يشكو من البرد، وإنما في غرفة صغيرة تشبه غرفة رجل أعزب، يحمل مفتاحها في جيبه، مزودة بتجهيزات متواضعة، خزانة وثلاثة كراسي خيزران، سرير وحرامات صوفية سميكة، ومدفأة تعمل على الحطب ومنضدة وضع فوقها طاولة نرد وورق لعب.

هذه الغرفة قدمها له مدير السجن وهو ضابط فرنسي برتبة قومندان، أشيب ومتعجرف، ذو أمزجة خاصة ومحبطة، ربطته به صداقة قديمة وغير عميقة، عندما خدم صولاني تحت إمرته في كتيبة المشاة المرابطة على الحدود السورية ـ التركية، وخاضا عدة مناوشات محدودة مع سرايا الجيش التركي تبادلا فيها إطلاق الرصاص والقنابل اليدوية والقذائف القصيرة المدى، حاول صولاني أن يصعدها إلى غارات ليلية ودوريات متسللة إلى خلف خطوط العدو واشتباكات بالسلاح الأبيض، استحسن القومندان حماسته وشجاعته وأفهمه عبر سلسلة من التلميحات المركزة، أن الطرفين لن يتجاوزا هذا النوع من القتال الذي لا يخلف خدوشاً وأن مهمتهم تقتصر على تكدير الجو الصافي لأسباب سياسية بحتة، واستشف في ذلك الوقت من الضابط السوري المتطوع في جيش الشرق، أن

الشجاعة لم تكن مجال تألقه الوحيد وإنما الرعونة التي تخطف الأبصار والتهور الذي لا يقيم وزناً للعواقب، وكان مصيباً في حزره عندما سرد عليه سبب اعتقاله.

استمع إليه دون أن يقاطعه أو يلومه، واعتبر ـ دون أن يقيم وزناً للجنسيات المتنازعة ـ ان ما حدث مؤيد لانطباعاته النافذة التي لا تخيب، ما استلفت نظره، نكهة المشاجرة المثيرة، وسرعة التصرف المحكمة لصولاني، وقد بدت درساً شائقاً في المبادهة الشخصية يمتلىء بالأخطاء المرتجلة، قرر القومندان أن يعقب عليها بدرس في القيادة والحكمة علق مدركاً إنه يتحيز إلى الجنسية التي أغفلها:

ـ لقد أحسنت. . . لكن هذا لا يجوز مع ضابط فرنسي.

ورحب بوجوده في السجن ضيفاً مسلياً صاحب مفاجآت، يتوسل به لاضفاء مسحة من الطرافة والتنويع، ويكسر حدة الرتابة والصرامة التي يعيشها في سجن يخلو من المتع ومن خارجين حقيقيين عن القانون، ويعج بطلبة مثيري شغب ما زالوا يتمرنون على القاء الخطب النارية وصياغة الهتافات البذيئة، ويحبون الوطن أكثر من أمهاتهم، وقرويين خشنين أصحاب ثارات ومساكين، تتخضل عيونهم بالدمع لدى رؤية أطفالهم، ولصوص صغار يسرقون حفنة من السكر وأرغفة خبز ومعلبات بدعوى الجوع، وسياسيين متجهمي الوجوه، يرطنون بالعربية والتركية، ويضربون عن الطعام والكلام، ويكتبون رسائل مطولة إلى زوجاتهم.

. . . وحول المدفأة، والنار تضطرم داخلها، وذكرياتها تضطرم خارجها، استحضرا بالكلمات تلك الأمسيات الصيفية التي قضياها في الخيام بين الأحراج الممتدة على مدى البصر، وقطعان الماشية على مرمى البصر، وغانيات طروبات يأتين من ملاهي حلب، يتمتعان بأجسادهن، ويدعن أرواحهن تغفو بين أحضان الطبيعة.

حاول صولاني بمهارة خبث أن يسترجع تلك المناظر ليس بأخيلتها وإنما مجسدة بأصواتها النشوى وحركاتها المغناج، لكن القومندان لم يتخيل ارتكاب هذه

المخالفة التافهة، استقدام ارتيستات من ملهى كازانوفا أو الليدو إلى داخل السجن!!! واكتفى بلعبة بوكر بريئة، لعبة الكابتن المفضلة دون أن ينسى على الاطلاق أن صولاني يغش رفاقه في اللعب مهما كانت صفتهم ودون أية روادع من صداقة أو أقدمية، كان حذراً وجعل مراهناتهما تقتصر على الحلويات الشامية والنبيذ المحلي المقيت الطعم، يدفع أثمانها من مخصصات المساجين بكل تسامح وكرم من غير أن تثير لديه أية غضاضة، وعندما سمح له بالتجول في أرجاء السجن أسوة ببعض المساجين المرموقين، طلب منه أن يتعهد بشرفه العسكري والشخصي ألا يحاول الهرب، وقبل صولاني العرض لأسباب كثيرة أهمها أن الحرية التي يمارسها داخل السجن لن يستطيع التمتع بها خارجه.

. . . تلك الصداقة لم تثمر، والومضات التي لمعت فجأة، خبت فجأة، ساور القومندان الشك في أن صولاني يسعى لافساده والسيطرة عليه بفجاجته المعهودة وهو يسخر من أنظمة السجن، موحياً له باهمالها، دون أن يأخذ بعين الاعتبار التطورات التي طرأت عليه بعد رفقتهما الأولى، وإن مركزه كمدير سجن لا يخوله بجاهل التعليمات، في حين كان صولاني يبرر خرقها، متجاوزاً الأسوار العالية وعشرات الأبواب الحديدية المغلقة، والدرك المدججين «بالبواريد»، والأنظمة القاسية للسجون كافة، ولم يدر هل كان ينصحه أم ينوي استغلاله عندما قال له:

ـ هذه الأنظمة لم توضع لمدير سجن فرنسي.

. . . ومع ذلك كان أمر لا يمكن له أن يتفاداه أو يعدل فيه، سجن قلعة دمشق لا يبعد عن دار المفوضية سوى مسيرة عشر دقائق بالسيارة، ودون أدنى تردد أخذ يختلق الأعذار كي يتجنبه متذرعاً بمشاغل ومهام تتطلب غيابه، وانتهت صداقة كادت أن تتجدد على مضض.

في الوقت الذي اخفقت فيه محاولات إنعاش صداقتهما، تمكن صولاني من أن يعقد علاقات جوار هادئة ومتميزة مع الأشخاص ذوي الأوضاع الخاصة المحتجزين في الغرف المتناثرة للطابق العلوي، مهربين للأسلحة ومتلاعبين

بالعملات ومحتكرين للأرزاق يصادفهم وهم يتجولون في الفسحة العلوية متلفعين بلفحاتهم الكشميرية، ومنتعلين «شحاطاتهم» المخمل، مرتدين «بيجاماتهم» الحريرية وفوقها المعاطف السميكة، يتبادلون التحيات ثم يتذمرون من البرد، ويتحدثون عن فساد الإدارات والرشاوي وخساسات الموظفين، ثم يرفعون أصواتهم عالياً معبرين عن قرفهم من كل شيء دون تمييز، يرشفون القهوة والشاي والبراندي ومغلي المليسة، وعند الظهر يتناولون بصمت وشراهة وجبات الطعام الدسمة والمتنوعة بالاضافة إلى الحلويات الموصى عليها من مطعم الأمراء في سوق الحميدية.

استطاع صولاني أيضا أن يسري عن نفسه بتبادل الأحاديث مع بعض السجينات القاطنات في سجن النساء الملاصق والذي لا يفصله سوى باب مقضب بالحديد وسجانات شرسات لم يعترضنه، سجينات جميلات ذوات عيون هلعة ومن جنسيات مختلفة، مشتبه بهن بممارسة أنشطة ضد الانتداب لحساب دول عدوة وحليفة، وعاشقات ملوثات بدماء أزواجهن، أوقعهن سوء الحظ وقلة الدراية بين الجدران وهن بكامل زينتهن وشحوبهن، يأملن أن يسعفهن حسن الحظ ووساطات من قناصل دول غربية في إخراجهن من مأزقهن الطارىء، وعلى الرغم من هذه المسحة من الغموض والانسلاب، والنحول والدموع، لم تستهوه واحدة منهن، كانت لديهن مشاكلهن العميقة والجارحة مع إحساس جارف بالشقاء بالاضافة إلى تلك التعاسة الخليقة بالنساء، ولعنة حب مجنون وأمل خارق برجل ينتظرهن في مكان ما.

ولم تمض أيام حتى بات لصولاني معارف يزدريهم ويقضي معهم سهرات بوكر وثرثرة تمتد حتى وقت متأخر من الليل، دون أن يشاركهم النوم حتى الظهر، يستيقظ باكراً، يلبس ملابسه العسكرية بتؤدة، يراعي نظافتها واستواءها، يلمع «بوطه» الضخم، ثم يخرج من غرفته نشيطاً حاسر الرأس، يتناول فطوره في الهواء الطلق، جالساً على كرسي من القش مستنداً إلى جدار الغرفة، والحاجب ينتظر أوامره.

في ذلـك الـوقت والطبيب حسن حكمـة ينهب الأرض بسيارة مستأجرة إلى دمشق، كان صولاني قد أنهى وجبته الصباحية النموذجية، المختارة بعناية والمكونة من الحليب والجبن والبيض والعسل والزبدة بالاضافة إلى الخبز الأبيض الطري، وطلب من الحـاجب فنجـانـاً من القهـوة ثم مضى إلى ركنـه المفضـل جوار السور المطـل على مهـاجـع المحكـومين بالمدد الطويلة مع الأشغال الشاقة والمشرف على باحـة الـتر يض للمـوقـوفـين، والدرج الواصل إلى غرف ذاتية المساجين ومهاجع الدرك ومستودع الأسلحة واللوازم و. . . شجرتين عاريتين من الأوراق في حوضين صغـير ين، رفـع بصـره. . . وظهـرت دمشق تحف بها الأشجار السامقة الغبشة، مقبلة، تتأرجـح في الضيـاء الـوليـد، ومن داخلهـا نبتت المـآذن العـاليـة وقبب «التكـايـا»، وأعمـدة وأسـلاك الهـاتف والـترام، فيـما تمددت أسطحـة البيوت، متـلاصقـة ومـوشاة «بالدرابزينات» و«دوالي» العنب الجرداء، والنساء المسربلات بالأبيض وهن ينشرن الغسيل الملون.

في ذلك السكون القصي، مع رشفات القهوة الفرنسية، والأنفاس العميقة من لفـافـات الجيتان، أسير أجواء من الدعة النائمة والمتململة، بدأ الصمت يهتز في خربشـة الحـركـات الصغـيرة المتسللة من مشـاغـل العصـرونيـة وسوق الخجا والأروام، ومهاجع الموقوفين، تهدهدها النداءات الشجية البعيدة، والشمس الحانية.

. . . كل ذلـك لم يعن شيئـاً، كانت الصـور البـارشـة والمـوسيقى الخفية، تزداد ثباتـاً وعســراً وتتنـاقض حتى مع تلك المشاهد المصغرة والمفتعلة. . . بوق الصباح واصطفاف شراذم العسكر وصيحات «الأجودان» ورفع العلـم، كان قد غادر أمـاكنـه والمنـاظر المشوهة التي انتثرت في الأرجاء المحدودة، تجعله ينكر وجوده المصطنـع داخـل متتـاليات لا تنبس بلغة مفهومة، وكل شيء ينقصها، الضجيج والطـين والسخـام والخنـادق والعسكـر الحقيقيـون المـتراصـون وخلفهم الآليات والمـدافـع، فيـما كان الصمت المبهم المرقع بالشمس تارة وبالسحاب تارة أخرى، يشمـل قسـراً هؤلاء الأشخـاص ذوي المنـابت الـوضيعـة والأحـلام العـريضة،

المنبوذين وذوي الحظوة الخاصة، المجرمين والأبرياء على السواء دون ترتيب أو أفضليات، يزدردهم ويبتلعهم ثم يخضعهم للسكون المأفون.

عبثاً كان يحاول أن يكسر طوق الصفاء المحيط به، ويختلق وجوداً ما معاكساً لما يجري ولا يجري، ومن خلال ذلك التأمل اللعين الذي لم يستطع أن يعتاده، أخفق في أن يعثر على مادة واحدة، يحرض بها أفكاره.

اندلع الهرج فجأة... وفي الميقات المحدد، قوطعت أفكاره بفظاظة ولبث مأخوذاً لهنيهة... دورية الحراسة بدأت جولتها في السجن لتبديل الخفراء، الدرك يهرولون صاعدين الأدراج ثم يتمركزون في نهاياتها وعند مداخل باحة التريض، وأرتال المساجين تغادر المهاجع في موعد الفسحة الصباحي، والحجاب يكنسون الماشي أمام غرف الادارة.

لم يدر كيف يبعد هذه المقدمة التافهة ويتملص من عناء اليقظة اليومية المتكررة على نحو واحد، لم يجد الإجابة، كان هناك شعور يراوده ويكبر كل يوم، ما هو إلا ضيف في هذا المكان وسوف يقضي فيه زمناً ما... حتى يضيق به، عندئذ لن يعدم الوسيلة أو الحيلة كي يغادره.

ولى ببصره بعيداً عنهم... وخيل إليه في تلك اللحظة أن هناك من يناديه، تلفت حوله، كانت هناك امرأة قد استندت بساعديها إلى باب سجن النساء وهي تشير إليه، تحزّر وهو يتوجه نحوها... أيهم هي؟! الفرنسية التي قبضوا في فراشها على فار من الجندية، أم الألمانية التي وجدوا بحوزتها خرائط ومعلومات تفوق معلومات قائد قوات الشرق؟...كلا... إنها السيدة الرقيقة التي أنكرت أن تكون قد حرضت عشيقها على قتل زوجها.

ألقى عليها تحية الصباح وانتظر، وإذ لم ترد على تحيته ظن أنه تخيل صوتها وإشارة يدها، وعلى الرغم من دلائل استغاثتها القوية، ووقفتها خائرة القوى وهي تنظر إليه ممتقعة الملامح، لم يستسغ أن يبدو كمن يتدخل فيما لا يعنيه ويسألها عن أسباب انقباضها، واعتقد أن وقفتها المريضة عند الباب المفرغ كانت لدواع صحية بحتة، شعور بالاختناق داهمها وهاهي الآن تروح عن نفسها بهذه التهوية

الصباحية وهي تستغل الهواء النقي وتستدعي من الذاكرة صباحات مماثلة بأوضاع متنوعة وصميمية، وبدلاً من أن تأخذ شهيقاً عميقاً، اندفعت تتحدث عن مقابلتها مع محاميها، . . . هكذا دون مقدمات أو تمهيد، وحتى لا تسهو وتطلعه على الأسرار التي لا يجوز أن يعرفها سوى المتهم ومحاميه، فضل أن ينسحب بهدوء من أمامها، مفترضاً أنها تتخفف من شجونها بالتحدث إلى نفسها والتسمع إلى صوتها في الهواء الطلق، تراجع خطوة واحدة . . ولم يكمل، اذ باتت تتحدث إليه، وعزم على أن ينفذ ما صمم عليه حتى ولو ارتكب حماقة غير مهذبة، كانت له أسبابه وأهمها أن مزاجه بات في خطر وسيدة جميلة، ناعمة وهشة، لا تتعدى الثلاثين من عمرها تقحمه في خصوصياتها الجرمية، وعلى الرغم من كل هذه المحاذير الواضحة أخفق في أن يتراجع خطوة أخرى . . . إذ كانت قد أغرقته في بحران همومها ومشاكلها . . . وبالكاد في هذا الموقف الاجباري، استطاع أن يرمم الكلمات المهتاجة والمتشظية من فمها الصغير.

. . . المحامي الذي زارها البارحة، لمّح إلى مركزها المقلقل في القضية، ثم صارحها بالوضع الحرج الذي ستواجهه في المحكمة.

ما الغرابة في ذلك؟!

هكذا تساءل صولاني في سره، ان مسار الدعوى طبيعي، ولا سيما أن القتيل المواري في التراب ما زال موجوداً في ملف الدعوة، اذن أين أخطأ المحامي؟!

الهفوة التي اقترفها المحامي هي أنه لم يتنبه إلى نفاد صبر السيدة، لذلك لم تسترع الأخطار التي اشار اليها خوفها أو اهتمامها، وظلت السيدة ـ كما هي الآن ـ تلح على الخروج من السجن بكفالة مالية مهما كبر مبلغها.

هنا . . يبدو أن المحامي اضطر أن يطلعها على الحقيقة كلها أو نصفها.

«هناك صعوبة كبيرة في الموافقة على الكفالة».

وربما قال لها أيضا:

«إن العناصر الجرمية متوافرة بل وثابتة».

وحتى لا تسقط مغمى عليها، سارع ممسكا بساعدها لتهدئتها، هذا ما فهمه صولاني من الدوار الذي باغتها والمحامي الذي رش الماء على وجهها، بعد ذلك أصلح المحامي الأمور، وأكد أنه لا يرتاب في براءتها مطلقاً، ولم يراوده الشك في صدق عواطفها نحو زوجها المتوفَّى.

لكن. . . والكلام هنا للمحامي أيضاً، إن لقاضي التحقيق والمدعي العام والقاضي رأى آخر!!

ـ إنهم للأسف موقنون من حرارة عواطفها نحو حبيبها.

كان الرأي الآخر قد أطاح بصوابها مرة ثانية، أما المحامي فلم ييأس، وطمأنها إلى أنه سيبرهن خلال مرافعته على عدم قيام علاقة عاطفية بينها وبين شريكها.

وصححت الكلمة بسرعة:

ـ كلا. . . ليس شريكي، يقصد الجاني.

وعاد القول للمحامي:

ـ من المستحيل أن نلغي حدوث جريمة القتل.

كان ذلك جواباً على طلبها البراءة الكاملة، ثم تابع بلطف وهو متأكد أن وقع كلماته سيكون قاسياً عليها:

ـ الوقائع وشهادات الشهود تدينك.

وقبل أن تسترد أنفاسها، أنجدها بعبارة واثقة:

ـ القوانين مطاطة.

شارحاً لها، أن موقعه في الدعوى كمحام يدافع عنها بكل الوسائل لن يجعله يقف حيالها مكتوف الأيدي، إنه الآن يبحث بدأب دون هوادة عن مخرج قانوني يستطيع به أن ينفي قيام القصد الجرمي.

قاطعته السيدة:

ـ وهل عثرت عليه؟

وتكتشف في هذه اللحظات وهي تقوم بدور الراوي أن المحامي لم يجبها

على استفسارها، وإنما أخذ يراوغها، وتذكرت أيضاً أنه نصحها بقدر عظيم من الصبر، وبالمقابل وعدها بالإفراج عنها، وسألته ملهوفة:

ـ وكيف؟!

ـ بقوة القانون.

ولكن متى؟ حتى هو لا يعلم.

لم تفهم السيدة ماهية الدفوع القضائية ومغزى التأجيلات القضائية، وكيف سيتمكن المحامي من الاستفادة من ثغرات المواد القانونية التي ستحاكم بها، لذا كانت ترجو صولاني أن يوضح لها ما أهمله المحامي.

اعتصم صولاني بالصمت ولم يتسن له أن يعثر على فكرة يبدأ حديثه منها، اعتقد أنه لم يكن يصغي جيداً، أو كان يصغي ولا يستوعب هذا الدفق من المصطلحات الاجرائية والموضوعية المشوشة والمتزاحمة في القضية.

ما حدث بالفعل هو أن صولاني أنصت ملياً خلال الحديث دون أن تفوته شاردة بل وساهم في ترتيب الأقوال والأحداث... إلى أن عرقلته ألعاب المحامي، وتبدت القضية غامضة بعد أن كانت واضحة، ثم شرد فجأة... متى؟ وأين؟ كانت جملة «قوة القانون» هي التي شتتت انتباهه وجعلته يخرج من حمأة الشكوى المحزنة وينغمس رغماً عنه في جفاف التعبيرات المحيرة، وقد أصبح لها إيحاءات وظلال، طيوف وأحوال، وعلى الرغم من صلاته المبتورة بالقوانين الوضعية المدنية وصلاته الواهية بالقوانين العسكرية استطاع بالاعتماد على القرابة بينهما أن يوضح ما غمض في ذهنه، وظهر اللبس جلياً، القانون الذي تقصده السيدة تظنه مرادفاً للعدالة التي ستأخذ بعين الاعتبار العشق الأعمى وتغفل القانون الأعمى، وتنقذها من العقوبات القصوى والخفيفة، فيما اكتشف صولاني أن مفهومه للقانون مغاير تماماً لخصال الشفقة والرأفة الإنسانية وحتى أنه مختلف الطبيعة... القوانين ما هي إلا مجموعة من الأوامر والنواهي صيغت كي تنظم حقوق المجتمع وواجبات الأفراد، وهي ملزمة بقدر ما تكفل القوة تنفيذها، لكن من يسنها ومن يتمسك بها؟ إنهم القادرون الذين ليسوا بحاجة إليها، هؤلاء

الذين يتخطونها دون صعوبات، أما طابع الإرغام الذي يكسوها فما هو إلا لكبح جماح العامة من الضعفاء والجهلة والأغبياء، تنظم علاقاتهم وتحد من اندفاعاتهم الهوجاء. إن وضع القانون وتفسيره يخضع لأصحاب السلطة، مجموعة من الناس يتخفون وراء كلمة «مجتمع» وهم يفرضون ويحورون ويلغون تطبيق القوانين تبعاً للمصلحة والسياسة والرشاوي والجبن، ان القانون ما هو إلا فعل القوة، والعدالة العمياء ما هي إلا فعل الأقوياء المبصرين.

إذن كيف يقنع السيدة الرقيقة أن لا مكان للأهواء الشخصية والعواطف المتأججة ونزوات الغرام في حيثيات القوانين إلا اذا كان الأقوياء أصحابها؟!

وجدت استنتاجاته تطبيقاتها العملية في مثال حي وقريب، مشاجرته مع الليوتنان، إن لم يسترسل الفرنسيون في تفسيراتهم فهي لا تعدو مشادة عادية بين رجلين متهورين يضعان رتباً عسكرية على أكتافهم، أما إذا أطلقوا العنان للقانون فهي خرق للنظام العسكري وتمرد عليه، تحقير رتبة عسكرية، اقتحام مكان عام واستعمال السلاح بصورة غير مشروعة، وربما... إثارة نعرات بين الجنسيات، و...و... سلسلة قد لا تنتهي من الاتهامات والأكاذيب اللئيمة ذات الصبغة العسكرية، وكاد كي يهون على السيدة آلامها أن يقول لها:

ـ وأنا أعاني من القوانين أيضاً.

لكنه لم يجد أذناً صاغية لدى السيدة التي أخذت تبكي بصوت مكتوم، مدركاً وهو يمتنع عن مواساتها ومجاراتها، أن مأزقه لا يكافىء مأساتها، وما يهدد حياتها لا يهدد سوى رتبته، ولن يستطيع كي يشاركها محنتها أن يتكلف الحزن مرسلاً عبرتين وزفرتين، بالاضافة إلى أن هذه الميلودراما الوضيعة لا تستدعي الأسى بقدر ما تستدعي الشفقة الرخيصة، كان مغتاظاً وقد وجد نفسه مقيداً بالنصوص الجامدة والمرنة وقد كمن بين حناياها حكم البراءة الكاملة أو الادانة القاطعة، ومشكلته مع وجهي القانون المتلازمين والمتضادين لن تنتهي بالتهرب منه أو مواجهته، بإهماله أو التصدي له، وإنما في التسرب إليه، مخالطته والحلول

فيـه، واحـد من الذين يمثلونه ويستعملونه ويستغلونه، أمسك بمعصمها وضغط عليه ضغطة خفيفة، وبصوت هادىء قال لها وكأنه يكلم نفسه:

ـ سيـدتي . . . عنـدمـا أخـرج من السجن سأحـاول خلال فترة ما، لا أستطيع تقديرها، أن أطلق سراحك، ليس بالقوة . . . وانما بقوة القانون.

لم تفهم السيـدة هذه الـدقـة اللفظيـة، ظنت أن هذا الـرجـل العسكـري يواسيهـا بأسلوب عسكـري، ومسحت دمـوعها من غير أن تعقب بكلمة واحدة، أمـا صولاني فقـد كان جاداً في الهيئـة التي تكلم بها، حازماً وحالماً في كل كلمة تفوه بها، ورأى في المغـالطـة الـرفيعة التي أدارها بحنكة ـ حلولاً تبدو خيالية الآن، بيد أنهـا في المستقبـل لن تنقصهـا الـواقعيـة الصلبة، وفي لحظة واحدة أصبح القانون واحـداً من أهـدافـه الـرئيسة، وكان على يقين أن المحامي لو استطاع انقاذها من المـوت لن يستطيـع أن يخلصهـا من السجن، أمـا هو وعلى الـرغم من أنه يستبق الـزمن فسـوف يأتي دون ريب ذلـك الـوقت الـذي لم يحدده ويخرجها من السجن بواسطـة القـانـون ذاتـه الـذي جرمها وحبسها، قانون يقف هو وراءه، ويقدم لها حريتهـا لقـاء خدمـة أسـدتهـا إليـه، لم تجعـل التعـارف بينه وبين القانون لقاء عابراً، وإنما نبهته إلى تلك المعجزة المكتوبة والملتوية التي يستطيع البشر أن يركبوها دون محاذير.

. . . على الطرف المقابل، كان هناك رجل مشدوه قد وقف معتمداً بيديه على الدرابزين الحديدي بعد أن ارتقى الدرج الحجري، صدره يعلو ويهبط وعيناه تزوغـان، لا يسمـع شيئـاً مما يقـال، ويرى منظراً صريحاً، ومناقضاً لما تنبأ به طوال طريق طويلة وشـاقـة، خمن أنـه سيراه بملابس السجن الزرية والوسخة أو مرتديا منامة مقطعة الأزرار، منفوش الشعر قد نبت شعر ذقنه وطال، وحول عينيه هالات من الهم والأرق، يحيـط به رجـال يماثلونه بملابسهـم القذرة وملامحهم الخشنة، أما أن يراه وكأنه واقف عند منصة بار مع امرأة جميلة يدعوها إلى مجالسته، فذلك أمر يتحـرج أن يحلم به، كان بحـاجـة إلى أن يفـرك عينيـه ليتأكـد مـن أن هذا المنظر الشاعري الساحر لن يفلت منه.

لم يفقـد المنظـر ألقـه وقـد تحاوطتـه المناظر الجافة، الجدران الطينية، النوافذ الصغـيرة، والـدرك البعيـدين، وتخلله الفـراغ الموحش، وما زال صولاني واقفاً في مكـانـه يلبس ملابسـه العسكـريـة، وقـد دنا برأسه من المرأة وكاد أن يلصق خده بخـدهـا، سارح النظـرات، وعلى ملامحـه تبدت مشاعر متباينة، مزيج من المتعة والغضب المكبـوت والتهـذيب المصطنـع، والمـرأة متكئـة على العارضة، تكاد أن تسند رأسها إلى كتفه، ومزيد من الدموع تسيل على وجنتيها، قال لنفسه . . . إن صولاني لم يبدد وقته هدراً، ولم تمنعه القضبان والعزلة من أن تكون برفقته امرأة تبثه أسـرارهـا وخلجـاتهـا، لكن كيف استطاع خلال زمن وجيز أن يعقد أواصر علاقة عاطفيـة عميقـة تجعل هذه السيدة تبكي لمجرد أن هذه المربعات الحديدية تفصلها عنـه؟! أم أن هذه لحظـات الفـراق الحزين أودت بها علاقة خاطفة ومريرة؟! ومع هذا كيف اخترع امرأة في هذا المكان؟!

كل هذه الأسئلة لن يجد لها أجـوبـة ولن يبحث عنهـا، على الـرغم من رقة تلك الذروة الشاعرية التي لم يحد بصره عنها، كانت في ذهنه أسئلة أخرى، أسئلة ملحـة لها الأولـويـة، وهـو الـذي عانى طوال ليلة كاملة من ضجيج محرك السيارة القـديمـة، والثلوج والمنـزلقات في طريق متعرجة وضيقة وشديدة الانحدار، البرد ينخـر عظـامـه، والمغص يمـزق احشـاءه، لم يكـابـد كل هذا العنـاء من أجل أن يستفسر عن مجرد امرأة مجهولة.

كان همه أن يطيح بأي عائق يعترضه ويلتقي صديقه بأي ثمن، طلب من مديـر السجن أن يسمـح له بمقـابلة صولاني، وتوقع أن يرفض طلبه وقد رآه يحدق إليه مستغرباً، ادعى بكل ثقة أن صديقه محتجز لديه بتهمة ملفقة ولن تطول إقامته في السجن لأكثـر من ساعـات معدودات، هنا انقلب استغرابه إلى دهشة ممزوجة بالهزء، وأيقن أنه سيبقى مسمراً قبالته ملحفاً عليه ولن يغادر السجن قبل أن يكلم صديقـه على انفـراد، ابتسم مديـر السجن ابتسـامـة عريضة ولاحظ الطبيب أن لابتسامته عدة معان أحدها أنها ماكرة تخفي وراءها نوايا سيئة، واكتفى المدير بأن فتشـه معلقاً بنعـومة أن ذلك من ضرورات الزيارة، ثم نادى دركياً، طلب منه أن

يقـوده إلى صولاني الـذي كان مفـترضـاً فيـه انـه يقـاسي الآن لسعات البرد بين جدران رطبـة وتحت سقف ينـز منـه الماء، وإذ رآه . . . يا للعجب . . . وجده ينعم بالحرارتين، حرارة الشمس، وحرارة المرأة التي تئن بحرقة.

في اللحظـة التي تلاقت عيـونهـما، عينـا صولاني الظـافـرتين وعينا الطبيب المشـدوهتـين، اندلعت في الفراغ رعدة غير مفهومة، تراجع صولاني بجذعه دونما شعور وقد بغتهِ وجود الطبيب على مقربة منه، وانحنى انحناءة خفيفة معتذراً إليها بأدب، وانسحب قبـل أن يخطـو الطبيب نحـوه ويكشف سره الوليد، فيما تسربت المـرأة إلى الـداخـل، اقـترب منـه ودون أن يحييه فسر الأمر باستخفاف واقتضاب مومئاً إلى القضبان:

- هذا سجن النساء.

قاصـداً أن يفهمـه أنـه أوقـع سجينـة في حبـائله مبتـدعـاً ما يسمى «غرام السجون المقيد»، احتفظ الطبيب بتساؤلاته، لم يكن هذا موضوعه، كان في ذهنه امـر واحـد فقـط، وسها عنه دون مسوغ، ربت صولاني على كتفه ثم تأبط ذراعه وأخـذا يتمشيـان الهـوينى . . . جولـة استطـلاعيـة صغيرة في هذا المكان المأهول بالقاطنين غير العاديين.

- . . . هذه هي الغـرفـة التي أقيم فيها، وتلك هي غرف أصدقائي، إنهم تجار ذوو نفـوذ. هل ترى هذه الفجـوة، إنهـا عميقـة جداً، ينـزل فيها درج ضيق ومظلم يؤدي إلى قبو الموقوفين وتحته قبو آخر يضم السياسيين.

استدارا ثم تقدما على مهل يشرفان على مسالك السجن.

- عند تقاطع الأدراج مهجع الحشاشين ومرتكبي الأفعال المنافية للحشمة، وفي الطابق الأرضي مهاجع اللصوص والمحتالين وقتلة الثأر والعرض والماء.

وقف عند السور وأشار إلى الطرف الآخر.

- هنا في الأسفل مهاجع المحكومين بالمدد الطويلة والاعدام.

رفع يده إلى الساحة الغاصة بالمساجين.

ـ يدعونها «باحة التنفس» يقضون فيها ساعة في الصباح وساعة عند العصر.

ثم واصلا سيرهما إلى مرتفعه الأثير.

ـ انظر إلى دمشق كيف تبدو من العالي، هل رأيتها من قبل بهذه الرخامة والصفاء، مستسلمة للسكون، تكاد تغرق فيه، تنتظر من. . .

قطع الطبيب المنظر والكلام قبل أن ينسى صولاني وجوده إلى جانبه، وعكف على سرد تنقلاته بين الشانوار وزهرة دمشق وداماسكوس بالاس، ثم رحلته إلى حمانا وعودته منها، والمشاق التي تكبدها، ثم وصوله قبل قليل إلى السجن، كان يتكلم وهو يحضّر في ذهنه تلك المساومة الفجة.

ناسم صولاني شيء من تبكيت الضمير، كيف استهان على الدوام بالطبيب وصداقته المخلصة حتى أنه لم يخطر بباله طوال الأسبوع الفائت، في حين لم تغمض عينا الطبيب الطيب ولم تهدأ خواطره القلقة قبل أن يطمئن عليه. وجد أن عليه قبل أن يقوم ببادرة حسنة، أن يعدل من منزلته لديه ويضعه في مرتبة أعلى من ذلك الدرك الذي نسيه فيه. شكره مكبراً فيه وده النادر والصادق، مظهراً امتنانه لصداقته الحقيقية التي لم يعد يتطرق إليها الشك، ويبدو أنه استرسل في رصف الكلمات المنمقة إلى الحد الذي لم يرض صديقه فقط وإنما أدهشته زلاقة لسانه المفاجئة.

سرح الطبيب في وجه صديقه مبتهجاً، واعتقد أن الجو المعتدل والمديح المسرف قد مهدا أمامه السبيل كي يبدأ دون أن يشير إلى صداقتهما التي تدعمت بقوة خلال اللحظات السابقة، انبرى وأبدى استعداده لبذل مساعيه كي يطلق سراحه. . . خلال ساعات قليلة فقط وقبل أن تغرب شمس هذا اليوم. . . على أن. . .

وسكت. . . هنا أوقف صولاني سيل تأملاته الوديعة، وامتعض وقد ألفى صديقه متحفزاً ومغايراً لتقييمه الأخير، والصداقة التي أظهرها والطيبة التي تحلى بها، لم تكونا خالصتين، لقد خدعه مدعياً أنه لم يذق طعم النوم والراحة وهو

يبحث عنه. . . لماذا؟ كي يقدم له خدمة مشروطة؟! . . . . ويطلب أجراً؟!، ودون أدنى تردد أرجعه القهقرى إلى الدرك الأسفل، واستعجله بعصبية:

ـ على أن. . . ماذا؟

وعاد به إلى تلك الليلة السقيمة التي افتتحت حوادثها في الشانوار وأسدلت ستائرها في القرماني، . . . الليلة التي أغفلها من حياته، بداية سيئة مع تهويمات الطبيب ونهاية أسوأ بين يدي القومندان.

وأعاد إلى ذاكرته، الجملة التي أطلقها وهما في السيارة على طريق الربوة، تساءل صولاني. . . وماذا فيها؟!

لم يسأله الطبيب تفسيراً لها وإنما طلب منه أن يتقيد بحرفيتها:

ـ . . . على أن يأخذ على عاتقه التخلص من الرجل، أما هو فسوف يأخذ المرأة.

وكي يتأكد أنهما باتا في الحاضر، سأله عن المستقبل القريب:

ـ ومن سيخرجني من هنا؟

ـ صديقي الكولونيل كولبير.

بدا العرض جذاباً، مثيراً وخيالياً، أما المساومة فقد كانت واقعية، حقيرة ومقنعة. ودون أن يترك الطبيب له فرصة لمزيد من الايضاحات، سأله بلهفة:

ـ هل تقبل؟

أجابه دون تفكير:

ـ أقبل.

مدركاً أنه سيفكر ملياً بهذا الطبيب الأعجوبة الذي كشف أوراقه وظهر على حقيقته، كائناً مهزوزاً، لا يمتلىء بالأحلام التافهة فحسب وإنما تشغله جرائم القتل والسطو على نساء الآخرين.

- ١١ -

منـذ الصبـاح والكولونيل كولبير في مكتبه يتابع سير موكب المفوض السامي بيو الذي انطلق باكراً من دار المفوضية في بير وت إلى قضاء ازرع، يرافقه ستة من رجاله وسرية من فرسان المغاربة، وكانت الأخبار الأخيرة المنقولة بواسطة البرقيات والهاتف مطمئنة ومشجعة، . . . بيو وصل ازرع واستقبل استقبالاً حافلاً، شارك فيه الوجهاء والأهالي وفي مقدمتهم قائم مقام ازرع ونواب حوران، وألقى المفوض السامي كلمة شكر وسط عاصفة من التصفيق المدوي والهتافات بحياته.

أزاح الـبرقيـة جانبـاً، كانت تلك ثمـرة رائعة لجهوده بعد الإخفاق الذريع الذي مني به بيو خلال جولته في المحافظات السورية، ففي حلب لم يكن بانتظاره سوى المحـافـظ دون أن يصحبـه أحـد من موظفيه أو الـوجهـاء، ترحيب بارد ومجـامـلات سريعـة، واهمال متعمـد من المحـافظ، وتجاه هذه النوايا السيئة لم يعد هناك من أمل في مباحثات جدية، وفي حماة كان الوضع مشابهاً، تجاهلوه ثانية على الـرغم من محاولتـه التي نجحت بالايعـاز إلى أعـوانه بإرسال وفد من أهالي القرى المجـاورة يعـوض خلاء شوارع حماة، وكـان نصيب الوفد أن قذفه الغلمان بحبات البنـدورة. عدل بيـو غاضبـاً عن إتمام زياراته لباقي المحافظات وعاد إلى مركزه في بير وت، مفوضاً سامياً مرفوضاً، كان واضحاً أن الكتلة ترمي إلى عزل بيو محاولة أن تزرع في يقينه أن أي حوار مع السوريين لن يكون فعالاً إلا عبر رجالات الكتلة

الـوطنيـة الـذين يهيمنـون على الشـوارع والنـاس، إن لم يعـترف بهم كممثلين حقيقيين ناطقـين بأماني سورية، فلن يجد له موطىء قدم على أرضها إلا بالقوة، وبات مخيراً بين العودة إلى باريز خائباً، أو يقبل بكل ما رفضه، ويجد لغة مشتركة يتفاهم بها مع خصومه.

بيـو لم يقبـل هذا الخيـار وأصر على العودة إلى سورية بدعوة رسمية تضمن حشـوداً من البشـر المهللة، ورسميـين يتبـارون بالـترحيب به، إزاء هذا المـوقف المتشدد لم تعدم الكولونيل كولبير الحيلة، اتصل بصديقه قائم مقام ازرع واستحثه على أن يدعو بيو لزيارته، ورجاه بصفته واحداً من المخلصين للانتداب والغيورين على الـوطن، أن يعيـد للمفـوض ثقتـه برجـالات سوريـة المتفهمـين. قبـل بيـو الـدعـوة... وهـاهم يحتفون به، حفاوة أصيلة ونموذجية، بإلقاء الخطب الجميلة والشعـر المـوزون المقفى، وبـرقصـة السيف والترس، المواويل الشعبية والدبكة، لكن بدون زجل لبناني.

ذلك هو الجزء الأول من الخطة، أما الجزء الثاني فهو عودة بيو بعد انتهائه من ازرع إلى دمشق... وبدعوة رسمية.

... يدخل العاصمة ويشهد ربيعاً يعوضه عن جدب ومحل حلب وحماة، ويحـرره من انطبـاعـه القـاسي الـذي حمله لدى دخـوله الأول إلى دمشق في ذلك الشتاء القارس.

كان قد أعد كل شيء، كتيبة السنغال التي ستلتقي بيو في الكسوة وترافق موكبـه، سرايـا الجيش المـراكشي المتمـركزة في المزة، العسكر المغاربة المرابطون في ثكنـة كليـبر، وجنـود المدرسة الحربية المستنفرون في تنكز، هؤلاء كفيلون بإحباط أيـة محاولـة قد يقـوم بها شبـاب الكتلة والشهبنـدر والعصبـة. كما انتقى جمهـور المستقبلين الـذين سوف يلملمـونهم من الأزقة والمقاهي ويحتجزونهم في الشوارع، والدرك الذين سيرتدون الملابس المدنية، وطلبة المدارس الأجنبية والباعة الجوالين ومجمـوعـات من المـوظفـين الصغـار، والجـواسيس والمجـاذيب المتواجدين دائماً،

بالاضـافـة إلى الشرطة التي ستحرس المحلات الواقعة على جنبات الشوارع التي سيمر بها الموكب، مانعة الصبية من إغلاقها أو التعرض لأصحابها.

. . . وقبـل أن يترجـل بيـو من سيـارتـه أمام باب السرايا، سيكون رئيس الـوزراء يحيـط به أعضـاء وزارتـه بانتظاره مع وعد بفتح ملف المعاهدة، وموسيقى الـدرك تعـزف مارشـاً عسكرياً. يتصافحون برسمية ثم يتبادلون الكلمات الودية، رئيس الـوزراء سوف يعضـد موقفـه بالإشـارة إلى المعاهدة دون ملاحقها، أما بيو فسوف يساهم بتلميح سافر وغامض إلى إمكانية بدء حوار شامل مع رئيس الوزراء يتنـاول فيـه مستقبـل سوريـة دون الإشارة إلى المعاهدة، يودعهم وينتقل إلى دار المفـوضيـة حيث تبـدأ الـوفـود بالتقـاطـر. . . المـديرون العامون للوزارات موظفو الإدارات المشتركة، بعض الوجهاء والتجار من أصحاب المصالح المختلفة.

تلك هي الخـاتمـة، وبعـد ذلك لن يتراجع أحد عن مواقعه، وسوف تكون زيـارة غير عاديـة لأنهـا ستتم في عقـر دار الكتلة دون الاتصـال بهم أو دعوتهم لأية مسـاومـة سرية أو علنية، وستشد من أزر لطفي الحفار الذي قدم استقالة حكومته منـذ أيـام ولم يقبلهـا رئيس الجمهـوريـة، وإنـما طلب منـه الاستمـرار بتسيـير أمور الوزارة ريثـما يجد شخصيـة تقبـل بتشكيـل الوزارة الجديدة في هذا الوقت العسير الذي لم يجرؤ فيه أحد من داخل الكتلة أو خارجها على القبول بهذا المنصب، لكن وبهذه البارقة من الأمل ربما تراجع لطفي الحفار عن استقالته، أو أطال من عمر وزارته.

الآن. . . وبيـو يتـوجه مع صحبه ومرافقيه ومستقبليه إلى منزل القائم مقام تلبيـة لدعـوتـه إلى الغـداء، يتقدم ملوحاً بيده والخراف تنحر بين قدميه، مشمولاً بكـرم الضيـافـة العـربيـة، يمسـك كولبـير بالقلم ويسطـر له برقيـة الدعوة، يطويها بعناية ويودعها الدرج، وأمامه على الطاولة قبعت مذكرة جلب باسماء سبعة عشر وطنياً من مدبـري المظـاهـرات والشغب، سوف تسلم هذه المذكرة إلى الشرطة للقبض عليهم بتهمة إقلاق الراحة العامة ومقاومة رجال الشرطة أثناء قيامهم بواجبهم.

عندما دخل معاونه المكتب، لم يكن يحمل أنباء غير متوقعة، الشائعات التي كانت تدور بين الجـدران أصبحت تتردد في أنحـاء البلد. . . بيـو في طريقـه إلى

دمشق، الطلبة متجمهرون أمام مكاتب وبيوتات الكتلة، والصبية يحومون في الأسواق، لكن لم يعد هناك ما يخشاه منهم، اذا استطاعوا أن يشعلوا الجحيم في دقائق فسوف يخمدها خلال لحظات.

قبل أن يخرج المعاون أبلغه أن الطبيب حسن حكمة ينتظر في مكتبه ملتمساً الاذن لمقابلته منذ نصف ساعة، مع العلم أنه اعتذر منه مدعياً أن مشاغل الكولونيل تمنعه من رؤية أحد، قال الكولونيل دون ابطاء:

ـ اصرفه.

ـ إنه مصر على رؤيتك لأمر هام.

كولبير كان مقتنعاً بل وجازماً أنه في هذا اليوم ليس هناك أمر ذو شأن... إلا زيارة بيو، وكل شيء عداها تافه لا يستحق الذكر، لذا كرر عليه:

ـ اصرفه.

لم يتمكن المعاون أن يثني الطبيب عن عزمه، كما أن الطبيب رفض رفضاً قاطعاً مغادرة المبنى قبل أن يقابل الكولونيل... إن ما لديه من معلومات لا تحتمل التأجيل أو التسويف، ولن يسره إلا لشخصه بالذات.

نظر كولبير إلى ساعته... ما زال في الوقت متسع، إنهم متحلقون الآن حول موائد الغذاء يرفعون الأنخاب الفرنسية ـ السورية، عقب:

ـ قل له ألا يطيل بقاءه.

تراخى في مقعده وصمم على التمتع في حضور الطبيب بقيلولة سريعة يتخفف بها من توفز أعصابه المرهقة، يكتفي بالإصغاء اليه ويخادعه بهزات الرأس منتهزاً غفوة خاطفة، دون ان يستدرجه إلى حديث يحتمل الأخذ والرد.

استرعى الطبيب نظره لدى ظهوره بملابسه المشوشة وملامحه المتعبة، وساورته الشكوك في أن الطبيب سيتجاوز الحدود التي نصبت بينهما بشطط لن يستطيع التساهل عنه، لكنه عندما تكلم كان متزناً وهو يزجي الاعتذارات بأدب جم، ويورد الأسباب التي اضطرته إلى المجيء، ويأسف لالحاحه على مقابلته في هذا الوقت.

ـ لولا الضرورة القصوى لما. . .

أحس كولبير والخمول يداعب أعضاءه، أن الطبيب قد أحسن صنعاً وهو يخيب ظنونه ببداية هادئة ومواتية لثقل أجفانه، بدا وصوته يتهادى ويتناءى. . . وكأنه يضرب على وتر واحد، ناشراً سحابة رتيبة من الهذر والصفاء، تتكشف خلفها مساحة جرداء، يحدها أفق رجراج، وعلى تخومها بيو غاضباً، يدنو. . . وحوله تتشكل تراكيب مشوهة من الأبنية والأشجار، ما الذي أغضب بيو؟!

رفع رأسه، لا شك أنها المخاوف التي تجاذبه منذ صباح اليوم، تسرب إلى سمعه صوت الطبيب من مكانه القريب ـ وهو يأمل بمساعدته. . . أن يقدم له خدمة لن ينساها طوال حياته، دون أن ينكأ ذلك الايقاع المتواتر والمنخفض، ويعيده إلى المساحة التي شغلت بنساء يرتدين ملابس السهرة، بدينات عاريات الصدور، رشيقات متكلفات، تساءل من أين جاء بهن؟! غيبهن بلطف، والطبيب يتطرق بحماسة إلى ذكر صديق له، تجمعهما سنوات الشباب وحماقاته، سنوات النضج وترهاته. . . صديق طيب رغم مباذله الصغيرة.

ارتد بسلاسة إلى الرقعة ليجد المفوض السامي قد عاد مصطحباً معه واحدة منهن، فارعة الطول، شقراء قد سبغ ثوبها الأسود على كاحليها، أطلقت ضحكة ناعمة. . . هذا ما غاب عن ذهنه، المفوض لن يبقى الليلة أسير غرفة نومه، وعليه أن يبتكر سهرة على شرفه يدعو إليها السفراء والقناصل والضباط مع زوجاتهم، تعوضه عن مأزقه وهو يتصدر المائدة الآن ومضيفوه على جانبيه يكظون طبقه باللحم والسمن، ومواجهته الرجال وهم يعظمون اللقمة بأصابعهم ثم يلقونها في أفواههم، يتلمظون وقد علقت حبات الأرز بشواربهم وتبعثر الفتات على ذقونهم وصدورهم، فيما أخذ صوت الطبيب يرتفع بعصبية، أصاخ السمع. . . إنها تهمة حقيرة نسبت إلى صديقه البرىء وزج به في السجن. . . إن ما سأله إياه هو. . هو. . . ، لم يستطع أن يتابعه ووتيرة صوته تبلبله، ولم يفلح

في احصاء عدد المرات والطبيب يكرر رجاءه. . . مرة، مرتين، ثلاث مرات، أربع مرات، صم أذنيه ولواها عنه، ولم يستطع تحاشيه وهو يبرز في المساحة التي أصبحت بيضاء، مردداً:

- أرجو أن تأمر باطلاق سراحه فوراً.

لم تضايقه لهجة الرجاء التي تذرع بها وإنما انزعج من اقتحامه للرقعة التي تتشكل فوقها خيالاته والتي ظنها بمنجاة من الطبيب، تحامل قائلاً:

- ومن هو؟

- الكابتن راغب صولاني.

هب الكولونيل واقفاً:

- الكابتن صولاني؟! يا إلهي هل هذا الرجل صديقك؟

هز الطبيب رأسه متعجباً، ولم يدر هل هي مزية أم نقيصة كونه صديقاً لصولاني، لم يتركه الكولونيل دونما جواب، وتابع ناعتاً صولاني بالمقامر الغشاش والرجل المغامر وزير النساء الوقح ومفتعل المشاجرات، ولم يسترد أنفاسه إلا عندما أحس أنه لم يبخسه حقه من التعريفات المريبة والصارخة، عاد إلى مقعده، ارتمى فوقه، كانت قيلولته المتأرجحة قد طويت، مال على الطبيب:

- كان يجب أن أتخلص منه منذ زمن طويل.

ووجدها فرصة كي يتلخص من الطبيب أيضاً:

- واذا لم تثبت عليه التهمة فانني أتعهد بتلفيق تهمة أخرى لا ينجو منها.

لم يفت تحامله في عضد الطبيب، كان متوقعاً أن يرفض طلبه ولكن ليس بهذه الحدة والضغينة، علق بحكمة:

- إنه حادث عرضي لا يؤبه به.

لم يمرر الكولونيل هذه الملاحظة البريئة في ظاهرها:

- هذه واحدة من مشاجراته، تصور. . . أنا لا أعرف في جيش الشرق ضابطاً سيىء السمعة مثله.

وتبرع بصياغة أحداث المشاجرة من جديد، معدداً التهم التي تنال من صاحبه ثم أكمل هازئاً:

- الوقائع ثابتة وأقوال الشهود متطابقة، وهي تدينه إدانة كاملة، سوف أجعل من صولاني عبرة لجيش الشرق كله.

رد الطبيب بحنكة على سخرية الكولونيل:

- هل ستعتمدون على أقوال ندل تشترى شهاداتهم بالبقشيش وأرتيستات مخمورات لاثبات التهمة عليه، ألن يكون هذا مهيناً لكم؟

كان قد نجح في استثارته، ضرب الكولونيل الطاولة بقبضته:

- لا . . . انت مخطىء، ان الـ . . .

ولم يكمل، كيف لم يتذكر أن تجربته السابقة معه كانت شبيهة بهذا النمط الزئبقي الممض، وما عليه إلا أن يتجنب الطبيب القابع أمامه باستكانة وخبث وهو يرمي كل فترة بنتف من كلمات مبطنة لا هدف لها سوى إزعاجه، وقال دون أن يحيد عن تحامله:

- ومهما يكن فسوف أوجه له تهماً تختزل كل ما ارتكبه طوال السنوات الماضية.

نظر إلى ساعته، قارب المفوض أن ينتهي من مأدبة الغذاء وبعد قليل سوف يمضي إلى المضافة ليشرب القهوة العربية، وهناك ينتظر المراسل الذي سيحمل اليه برقية الدعوة إلى دمشق.

لم يهتم الطبيب بالكولونيل وهو يختلس النظر إلى ساعته، ولم يرد فهم المعنى الذي لم يقصده . . . إن الزيارة قد انتهت، وإنما قال معاتباً:

- أتعتقد أنني أطلب منك خدمة دون مقابل؟

استدار محملقاً فيه، وتساءل غير مصدق . . . هل يعقل أن يتجرأ الطبيب ويعرض عليه رشوة؟! كان من الصعب أن يتجاهله، بالاضافة الى ان صمته قد يجعل الطبيب يعتقد أنه أصاب هدفه، أجابه بعنجهية وأفق واسع، مترفعاً عن هذه المساومة الدنيئة:

ـ نحن الذين نقدم إليكم خدمات دون مقابل، أما أنتم فلا تستطيعون أن تقدموا لنا خدمة واحدة، إن وجودنا في سورية مكلف وباهظ، وفي المستقبل سوف تظهرون تقديراً لا مراء فيه للوجود الفرنسي.

أجاب الطبيب بهدوء:

ـ إنني أقصد خدمة مخلصة تعنيك أنت بالذات كأحد المسؤولين عن الاستخبارات الفرنسية، إن لدى معلومات تهمك جداً.

بدا وهو يرْمقه بحدة، واضحاً ومحيراً... كيف يقدم الطبيب عرضه الصارخ بهذه الخشونة والدقة، أن يكون مخبراً رخيصاً، يقايض معلومات يدعي أنها هامة بشخص سافل، رد عليه بوقاحة ودون مواربة:

ـ نحن لسنا بحاجة إلى جواسيس.

ـ لا... إنها مبادلة تتم بين أصدقاء حقيقيين.

وماذا يعني بالأصدقاء الحقيقيين إلا أن يكونوا جواسيس وضيعين؟ لكن... كان الطبيب قد تسلم زمام الحديث وأخذ يتكلم عن الود الذي يكنه لفرنسا وجيشها ورجالاتها، مظهراً تفهماً مرضياً لوجودها القسري، وللأواصر الثقافية والسياسية التى تتعمق وتتجذر، تتسامق وتثمر، هذه المصالح التي لن تنتهي بخروجها وإنما ستتقمص أشكالاً أخرى..

نحى الكولونيل بصره عنه وقد اطمأن إلى أن تتابع العبارات السطحية لن يمس أفكاره المتوارية، وأخذ من جديد يعالج قيلولته، يختصر المسافة التي شسعت، والصوت يترنح ويتلاشى، والرقعة تلوح... تتهادى مقبلة، فضاؤها يمتلىء بالأشخاص الثانويين وبيو في وسطهم لا يتقدم ولا يتأخر، والناس يتحلقون حوله يتقاربون ويتلاصقون، لم يعد واضحاً هل هم يأخذون بخناقه أم يحمونه، الفرسان يهدأون من جموح الخيل، وبيو يتردد في امتطاء سيارته، فيما كان صوت الطبيب يعلو مردداً اسم بيو، تيقظ... هل الطبيب يستفسر أم أن تداعياتها قد تلاقت عند بيو؟ سأله:

ـ ما الذي كنت تقوله؟

ـ كنت أقول بأن عليك أن تحذر بيو من المرور في دمشق.
اقترب بجذعه كي يتأكد هل هناك بيو آخر.
ـ هل تقصد المفوض السامي؟
ـ نعم.
ـ ولماذا؟
ـ هناك مؤامرة مدبرة لاغتياله.
بدت طرفة والطبيب يدعي العلم بالغيب، سايره:
ـ متى؟
ـ اليوم.

تراءى له والطبيب يلفظها بثقة كاملة أنه يتكىء على خيالاته المتناوبة، مترجماً ما التقطه دون تروٍ أو تمحيص ترجمة متسرعة، سيئة ودموية، وعلى الرغم من خطل تصوراته فقد استطاع الطبيب أن يقتحم من مكمنه البارد مسيرة الموكب، يشده إليه ويتوضع في لب توقعاته الساخنة.

للوهلة الأولى أراد أن يوهم نفسه أنه قد حظي بالمؤامرة التي طالما حلم بها، مؤامرة تشترك بها الكتلة والأحزاب الصغيرة والهيئات الشعبية والدينية ومعهم المستقلون والمتنورون الذين يستشهدون بالمبادىء المثالية للثورة الفرنسية، مؤامرة يستطيع من خلال لملمة خيوطها أن يطالهم، يئدها ويفضحهم، ويحسم الجدل العقيم بين محبذي الانتداب ومناهضيه في باريز ودمشق معاً، ويدفع هؤلاء القريبين والبعيدين كي يدركوا أن هذه المدينة المعرضة للشمس والذباب، للتطرف والنزوات، لا تشبه صور «بونفيس» الفوتوغرافية بمآذنها وقبابها، بأسواقها ومنتزهاتها، بمزاراتها وقبورها، ولا تشفع لها عراقتها المبتدعة والمزيفة من ماضٍ مقدس ومبهم، وانما تبدو كما هي دائماً، والغة في حاضر ممزق ومائع، تتستر في الأذهان بليالي ألف ليلة وليلة، دون مجونها وطلاوتها، بينما رجالها ونساؤها ما زالوا يدرجون على صفحاتها الصفراء الأولى بين السيف والنطع، مدبرو مكائد

ودسائس، سفاكو دماء ومهووسون، جشعون وثرثارون، وفقراء محزنون، واذا كان هناك من حاجة للتفاهم معهم فليس هناك بديل عن سياف ماهر.

اعترض الكولونيل على تهاويل النعوت التي واتته عفو الخاطر ولم تكن بنت لحظتها وهو يكتشف أنه تلمحها في الكتب الرخيصة والمبسطة عن شرق روحاني ومشعوذ، وتعليمات شعبة المخابرات الـ «فائقة السرية» والانطباعات المغرضة عن مدينة مغلقة وغير ودودة، أدرك أنه يغالي، يعمم ويتواطأ مع التفسيرات الرائجة، على الرغم من أنها لا تخلو من قدر من الصحة، وهذه الأفكار المتحيزة لن تسعفه قدر ما تعرقله، كان موقناً أن الطبيب يكذب بصفاقة، وقريحته التي تفتقت عن جريمة سياسية نموذجية تطال رأس الانتداب غير مقنعة، وفات الطبيب ملحوظة هامة، وهي أنه لم ينتخب لها الظرف المناسب، إذ من غير المعقول أن تقدم الكتلة بتركيبتها الهشة على عمل طائش يجعلها تخسر ما كسبته خلال الأشهر القليلة الماضية، عدا ان الكتلة التي أشعلت الاضراب الستيني في البلاد وقادت المفاوضات في باريز، ليست هي الكتلة ذاتها التي تناحر الانتداب الآن، وترمي إلى أن تحتل مركز الصدارة على الكراسي وفي الأحداث، الاغتيال لن يجمع صفوفها بل سيؤقت أنفاسها الأخيرة، أما الشهبندر والعصبة والمشايخ فهم يخوضون معركتهم مع الكتلة ويصفون حساباتهم معها وليس مع الانتداب، ولن يغامروا بعمل أحمق ويقصوا أنفسهم عن النشاط السياسي في الوقت الذي يتهيؤون له، بالاضافة إلى أن الجميع يعرفون أنه يوجد في باريز وفي مبنى الخارجية والحربية عشرات من السياسين المحترفين والجنرالات العاطلين عن العمل، من أمثال بيو وساراي يأملون أن تكون لهم جولة مظفرة في سورية.

سأله باستخفاف:

- ومن الذي يطمح إلى إغتيال بيو؟

- شاب متحمس ومتهور.

أصاب الطبيب هدفاً واضحاً لدى الكولونيل عندما لم يجعل للشاب صلة بواحدة من هذه الجماعات، وإنما أخرجه من جحر يتسع للهذيانات الوطنية

المشبوهة، وآثر الكولونيل الصمت كي يتيح له التكلم على غير هدى ويبوح بأكثر من هذه التلميحات المختصرة، ومنحه في سره دقائق معدودات ليسبر غوره، هي الوقت اللازم ليرتشف المفوض قهوته ويشكر مستقبليه على حفاوتهم به.

وجد الطبيب في إصغاء الكولونيل فرصة كي يطلق لسانه في امتحان لا تكون فيه دقة الألفاظ وجزالتها الدليل الوحيد على صدقه، وانما وسائل التأثير... تهدج الصوت وتصدع الزفرات والنبرة المرتعشة.

بدأ في العموميات... ذلك تمهيد من المعميات لا بد منه في قضايا الخصوصيات الكبرى والعميقة... الوطن؟! الخيانة؟! بل الرؤية الصالحة للحاضر والمستقبل، أن نمنع أدعياء المتعلمين من لعب أدوار جريئة، منعهم بجميع الوسائل. إن من مثالب المؤامرات ومزاياها أنها لا تكتشف إلا في اللحظات الأخيرة، نوايا مبيتة تتخلق بأقدار على وشك التحقق، تضعنا أمام فرص خاطفة... خيارات... في حين أن لا خيار، وحتى الدوافع الشريرة والبواعث المريضة تتهاوى إزاء مصادفة عابرة، دبرتها عناية إلهية حازمة، إنها أمانة يشق عليه التنصل منها، أما صولاني الغافل فلديه مهمة، انه ليس مجرد صديق يسدي إليه خدمة لقاء خدمة، لقد أنقذه صولاني من الموت... بالأحرى سيعيد اليه الحياة... لا... وبالضبط... سوف ينجيه من الموت.

لم يقتنع الكولونيل بالطبيب وهو يتخبط بالتعبير، وإنما أفقده توازنه في هذا الخليط من عجمة القصد وبهمة الربط والاعتراف بالجميل، كان عصياً على المتابعة ومتعباً في آن واحد، وما استلفت نظره بشدة، انفعاله المؤثر وسعار أنفاسه اللذين حرص أن يغطي بهما هنيهات الصمت، وكان من المستحيل في هذا السكون المتقد والحار ان يستوقفه ويستفسره عن هذا التسلسل الأعمى للحكمة والغثاثة، واقتنع بأمر آخر، عليه أن يختبر موضوع الاغتيال على حدة بمعزل عن الطبيب، بجهد شخصي، عقلي، مستعيناً بمشاهداته، ما واجهه على الفور تفاصيل محاولة اغتيال الجنرال غورو اثناء جولته التفتيشية في القنيطرة منذ ثمانية عشر عاماً، ثم تلك الاغتيالات الدورية لضباط وجنود فرنسيين على مدار

سنوات، والنزعات المغالية والمشوهة للطلبة، والخلفيات الدينية المتعصبة من الأمر بالمعروف إلى الجهاد والشهادة، ترفدها وتعززها المطامح الشرهة للمتنافسين على الوزارات، هناك دائماً هامش عريض من الخرافة والتقوى، هامش من الصعب استكناهه أو ضبطه، كيف يمكن التنبؤ بما سوف يقدم عليه شاب يعتقد أنه يعيش فوق أرض طاهرة في الوقت الذي تقف عليها اقدام نجسة لعسكر كفرة، هذه المدينة تطفح بالعديد من أمثاله، شبان وطنيون غيورون، متعلقون بماض مؤطر بزخارف لا نهائية، خددت بالإيمان والتضحية، والتلاشي حتى الفناء. ماذا لو كان لهذه الدسيسة نصيب من الصحة؟! ألن تكون دعوته لبيو بالقدوم.. دعوة إلى ملاقاة حتفه؟ وهل تستطيع قوة الشرطة والدرك والعسكر مجتمعة أن تمنع شاباً أرعن عن تنفيذ ما اعتزم عليه؟!

... خلال ثوان، يخرج من بين الصفوف والزينات مندفعاً كالمجنون، يشهر مدساً وبلمح البصر يطلق عدة رصاصات، وربما اتبعها بعدة صيحات ونداءات، يخطىء بيو أو يصيبه.. يجرحه أو يميته، ثم يهرب أو يسلم نفسه، يقتل أو يقبض عليه.

كانت الصور وهي تتتابع بسرعة، تجهد البصر بألوانها الزائغة وأصواتها الجاعرة، وثبتت أمام عينيه الصورة الأخيرة، الناس الذين صحوا من ذهولهم ليتبعثروا هلعين، وحول بيو المضرج بدمائه وقف مرافقوه عاجزين.

بينما كان الطبيب جالساً بهدوء يرمق بمكر هذه الخاتمة التي أوحاها إليه بمهارة، تمنى الكولونيل أن يخذل الطبيب ويضفي عليها مسحة من عدم الاهتمام والسخافة، لكن قصر الوقت لم يسمح بالادعاء، ومهما يكن فسوف يكون الثمن بخساً، حياة بيو مقابل حرية صولاني.

- حسنا قبلت.

أكمل الطبيب شروطه:

- على أن تعطيني عشرة جنود وفي الصباح أسلمك المجرم.

تساءل متعجباً:

ـ هل ستنفذ أنت المهمة؟!

ـ سنقوم بها معاً، انا والكابتن صولاني.

رضي الكولونيل بإسناد المهمة إلى صولاني، هذا يعني أنه لن يتورط في عملية دليله فيها الغموض والخيال، وإنما سيتسلمها ناجزة، وإذا ظهرت براءة المطلوب وكذب الطبيب فسوف يلصق بصولاني تهمة جديدة خليقة به، استعمال القوة العسكرية لتنفيذ مآرب شخصية، ولن تعدمه الوسيلة كي يثبت اشتراك الطبيب فيها.

كتب مذكرة الافراج عن صولاني، سلمها له قائلاً:

ـ وسوف أعطيكم الآن سيارة وبعد الانتهاء من العملية مكافأة.

عند الباب تذكر أمراً:

ـ ما هو اسم الشخص المطلوب؟

ـ يوسف سرحان.

عاد إلى مقعده، لا شك أن صبر بيوقد بدأ ينفد، طلب معاونه وأخذ يملي عليه:

«سيدي المفوض السامي.

إن الكتلة تعد للقيام بأعمال عدائية، أرجو تأجيل الزيارة حتماً، وأن تكون عودتكم إلى بيروت عن طريق مرجعيون».

وبغته الاسم فجأة... يوسف سرحان؟! أين سمع به من قبل؟!

* * *

- ١٢ -

لم يعد لدى الكولونيل ما يفعله، الاجراءات الاحترازية ألغيت والجنود أبوا إلى ثكناتهم، أما الزينات فلم تفرد من صررها، وبات الكولونيل سئماً بعد أن أنهى كل ما لم يبدأ به في انتظار نهاية مؤجلة حتى الصباح، تفصله عنها الريبة والقلق ورجلان، في ذلك الفراغ كان التوجس ملازماً للخطا السمجة للزمن البطيء، وكيْ لا تخذله التوقعات الزائفة تراءى له أن يتوارى عن هذا النشاط البليد ويتسكع على غير هدى دون هموم ومفاجات في المكان المثالي . . بنسيون مدام كورينا.

طالعته مهللة:

ـ كولونيل . . . ما الذي يؤخرك عنا دائماً؟!

أمسكت براحتيه وضغطت عليهما برقة، ثم تأبطت ذراعه ودخلا الصالون، وجلس على أول كنبة صادفته.

ـ ألن تلعب الليلة؟

ـ اليوم أنا غير محظوظ.

ـ اذن سأعد لك كأساً ريثما تجد رفقة.

أجال بصره. . كان الرواد القلائل مبعثرين في الصالون، البولندية ذات الشعر الكستنائي بتسريحتها الـ«لابول» منهمكة بصبغ أظافرها، وعلى مبعدة منها

رجل سمين أشيب تدلت من جيب صدارته سلسلة الساعة الذهبية، ملتصقاً بفتاة شقراء عقصت شعرها إلى الخلف، وعند الركن جوار المدفأة شاب يقرأ، فيما فتح باب الغرفة المقابلة على طاولة تحلق حولها أربعة رجال يلعبون الورق.

مدت مدام كورينا يدها بالكأس:

ـ كولونيل ما أخبارك؟

تناوله ورشف رشفة صغيرة، وقال ساهماً:

ـ جيدة.

تذكر أن الرجل الأشيب هو فؤاد بك متعهد الخضار والفواكه للجيش، ولمح أحد اللاعبين يرفع يده محيياً، هز له رأسه، سألها:

ـ أليس هو القومندان غيومييه من إدارة التموين.

ـ نعم هو.

كان فؤاد بك يخرج من جيبه علبة صغيرة ويفتحها، أدار نظره عنه، وسمع صديقته تشهق، أعاد بصره إليها، كان فؤاد بك يعيد العلبة بحرص إلى جيبه.

اكتشف أنه ما زال منزعجاً، الحركات المجاورة لا تشغله ومدام كورينا تجهد نفسها بلا طائل، ربما لأن أحداث اليوم لفلفت على عجل، ولم يطمئن لما أقدم عليه، هل أصاب أم أخطأ بالوثوق بالطبيب؟ انحنت مدام كورينا عليه هامسة:

ـ لماذا لا تجلس جوار المدفأة؟

رفع رأسه اليها مستفهماً.

ـ انت بردان؟

كاد أن يجيبها، أنه ليس بردان.. إنه يرتجف من الغيظ. تابعت وهي تشير إلى الشاب:

ـ أظنك تعرف مسيو يوسف.

ألقى عليه نظرة:

ـ ربما التقيت به من قبل.

ـ انه شاب مهذب ومحدث لبق، أمضى خمس سنوات في باريز.

قال راغباً في إبعادها عنه:

ـ أعتقد أنه مشغول.

ـ إنه يقرأ رسالة من حبيبته ليزا، هل تذكر ليزا؟ إنها في براغ المحتلة الآن، وهي سعيدة هناك، ما أجمل الصداقة يا كولونيل، إنها لم تنسنا، هذه رسالة للجميع أودعت فيها قبلات خاصة للمسيو يوسف.

رغب في أن يقول لها إنه، الليلة، لا يبحث عن رفقة أو عن متعة، لكن ضيقه ازداد لأنها كررت اسم «يوسف» مرتين، هذا الاسم يحرك وساوسه، عدا أنه لم يعرف أية واحدة منهن هي ليزا، على الرغم من أنه تذكر أن هذا الشاب كان صديقاً لاحدى الفتيات القاطنات في البنسيون، سألها كي يغير مجرى الحديث:

ـ هل ما زالت جانيت في دمشق؟

ـ جانيت؟! لقد عزمت على العودة أيضاً، لا أدري ما الذي يجري؟ عندما تلوح الحرب لا يفكر الناس إلا في المآسي، يشتاقون إلى أهلهم ومعارفهم... والعجائز الذين ماتوا والأطفال الذين لم يعودوا أطفالاً، يحنون إلى الشوارع والحوانيت ومقاعد الحدائق العامة، وحتى إلى الأنهار التي كادوا أن يودعوا أجسادهم في قاعها... جنون.. يرحلون عن مدينة جميلة وهادئة، باحثين عن واسطة سريعة للعودة وكأنهم هم الذين سيخوضون الحرب أو يوقفونها، مسيو يوسف لم يوافقني، يعتقد أن جنونهم يفوق حكمة هؤلاء الذين يهربون من الحرب.

بات أمراً لا يحتمل ومدام كورينا تردد الأسم للمرة الثالثة، وجد نفسه يسألها بعصبية:

ـ مدام... ماذا يدعى صديقنا الشاب؟

ـ تقصد يوسف.

ـ نعم.

ـ يوسف سرحان.

لسعه الاسم الكامل وقد تطابق مع اسم مثيله الرجل الآخر الذي يبحث عنه رجلان وعشرة جنود، وكاد أن يسخر من مدام كورينا، هذا الاسم لا وجود له

إلا في مخيلة طبيب يدعى حسن حكمة، ومـن المستحيـل أن يكون الطبيب صادقاً أو أن يكـون الـرجـل حقيقيـاً، وإذا أراد أن يصدق ذلك الواهم فعليه دون تردد أو إبطـاء أن يضـع فوهـة مسـدسه في رأس الشاب الذي يبعد عنه مقدار كنبة وأريكة عريضـة ويسـوقـه أمـامـه إلى التحقيق لمجرد أنه يدعى يوسف سرحان، لكن دقة تسلسـل هذه المتـواليـة من المصـادفات تجعله يكذبها، المشكلة ليست مع الطبيب وإنـما مع مدام كورينـا وهي تلفق له بطـلاقـة لسانها يوسف سرحان بصورة شاب وسيم، يدخن مستمعاً إلى موسيقى خفيفة من الغراموفون . . . يزيح جانباً رسالة القبـلات، يغمض عينيـه ويتخيل ملمس شفاه صاحبتها، هل يبدو كمن فاته أن يقتل المفوض السامي قبل ساعات قليلة؟!

- حسناً سأنضم لصديقنا.

تقـدم نحـوه متفرساً في ملامحه، يحاول أن يجد شخصية القاتل السياسي أو المحـترف المأجـور المتخفيـة في اهـاب ناعم داخل بزة أنيقة، قدمتهما مدام كورينا الواحد للآخر ثم انسحبت، بادره مبتسماً:

- أرجو ألا أكون قد قطعت عليك خلوتك؟

- لا على العكس، كنت أفكر أن انضم إلى أحد الموجودين.

نفى بارتيـاحـه الآني هيئـة المجـرم المفضوح عن جليسه، وأجبرته ابتسامته الـرقيقـة أن يكـون ودوداً وحـذراً. وجـد أن افضـل ما يمكن أن يبـدأ به الحديث هو. . . مدام كورينـا والجـو الأنيس للبنسيـون وفرص التعارف التي تتهيأ داخله، بالإضافة إلى المتع اللائقة برجال مهمومين ومتعبين.

- . . . تسرية معقولة عن النفس أليس كذلك؟

كان وهـو يتكلم، يسألـه ويتـابـع دون أن ينتظـر إجابته، يسعى أن يتلمح شبهة ما في نظراته أو من حركة تبدر عن مستمعه المنصت بصفاء وروية إلى حديث لا معنى له، وسـرعـان ما انفـرطت حسـاباته وقـد عثرا في يسر على تلك الأماكن المشـتـركـة والـذكـريات المختلفة، المستقاة من معيـن مدينة واحدة، الشوارع . . . المقـاهي . . . أيـام الآحـاد . . . والليالي المقمرة على ضفاف السين، أناقة وظرف

البـاريسيـات، نادل أنيق في مطعم، الشـاعـر البـوهيمي مرتاد الحانات، المتسول الأعمى، عازف الأكورديون في الشوارع الخلفية.

وافق مدام كورينا في سره . . . يوسف سرحان محدث لبق بالفعل، ولولا أنه أسمـر اللون لكـان جديـراً أن يكـون عميـلاً انكليزياً يرتدي «السموكنغ» ويزين صدره بوردة حمراء، يرقص «التانغو» بانسياب ورشاقة وعيناه تجوسان بين الحضور من خلف عنق امـرأة عار، يهمس في أذنهـا، وأذنـاه تلتقطـان الكلمات الخـافتـة والمتنـاثـرة، مؤلفـاً منهـا معلومات في غاية الأهمية، وفجأة . . . وببرود أعصاب، يشـارك في التصفيـات الجسـديـة خلال المطـاردات بين الشوارع الخالية المظلمة، والأسـواق المسقـوفـة، والأزقة الرطبة والقذرة، ويقذف بالجثث من السفن العاملة على خط مارسيليا ـ بيروت، أو من مقطورات قطار الشرق السريع، تنتظـره فـي المحطـة امـرأة ملفـوفـة بملاءة سوداء، تكشف خمارها . . . وتتبدى نمرة شاحبة، تغمغم له بشيفرة، وفي الليل يفكك شيفرة جسدها.

امتعض من استطـراداتـه . . . تلك مزالق كونـه كولونيلا في المكتب الثاني، وقـارئـاً نهماً لروايـات «بيير بنوا»، وارتد إلى جليسه ليصنفه في عداد الشبان الذين درسـوا في فرنسـا، وهنـاك زرعت باريـز في رؤوسهم جرثـومتي العقـل والشـك، وصيـرتهم فرنسيـين في ملابسهم وأهـوائهم، مع إحسـاس عميق وراسخ بالضعة والصغار يعاجلونه بمظاهر باردة من عنجهية شرقية حارة.

تطـرقـا إلى باريـز الصحف وشـائعـات عن حرب قد تعلن أو لا تعلن، احتمالاتها القوية والضعيفة، أسبابها المباشرة وغير المباشرة . . . ثم نكول هتلر عن التزامه وإقدامه على ضم تشيكوسلوفاكيا.

ـ تشمـبرلن الطيب لم يجد مبرراً واحـداً يجعله يتراجـع عن تفـاؤل له واكتفى باحتجاج رسمي معتبراً أن تدخل المانيا العسكري في بوهيميا ومورافيا يشكل خرقاً فاضحاً وكاملاً لاتفـاق ميـونيـخ!! أمـا دلادييـه، تصور دالادييه المغلوب على أمره كان واضحـاً أكثـر، وأعلن أن فرنسـا لن تعترف بشرعية الاحتلال الألماني، وفي الوقت نفسـه تخاذلت الحكـومتـان عن القيام بأية حركة لانقاذ تشيكوسلوفاكيا على الرغم

من تعهداتها في ميونيخ تعهداً مقدساً لحمايتها من أي اعتداء!! من يستطيع الوقوف على الحياد؟! إن أوربة مجبرة على اتخاذ موقف جماعي موحد.

لم يدر الكولونيل وهو ينتقد تردد السياسيين وقصر نظرهم، هل كان يوسف سرحان بإصغائه يجاريه متملقاً أم مؤيداً؟! اعتقد ويوسف يعقب على حديثه بأن لا مفر من الحرب، أنه يتصنع حيادية خبيثة في حرب لا تعنيه، وأنصت له ملياً يستشف موقفه:

- . . . في فرنسة ثمة هلع وحماسة في الشوارع، وباريز تحت وطأة الاستعداد للحرب تبدو مكرهة وهي تتخلى عن مظاهر اللامبالاة، الحرب ليست ملهاة. . . أليس كذلك؟ إنها تجربة قاسية لفرنسا وللعالم الذي لم ينسَ ويلات الحرب العامة بعد.

الكولونيل لم يشاطره رأيه بترفع:

- فرنسا لا تبحث عن زي للحرب كي ترتديه، ذلك زي قديم سوف تخرجه من مستودعاتها.

ابتسم يوسف:

- إنها تستعيره من وجودها في المستعمرات، لكن الأمر الآن مختلف، إنكم أمام ألمانية مدججة وليس مواجهة شعب أعزل، الحرب القادمة في أوربا متعادلة ومتوازنة، عادلة بمعنى ما. . . أعتقد أيها الكولونيل أنها سوف تكون مشؤومة وليس هناك نصر سهل.

لم يدعه يتابع. . . ذلك تعريض مبطن، كانت لديه عدة ملاحظات، بدأها:

- مسيو سرحان، أنت مخطىء، في حرب ١٩١٤ تمكنت فرنسا من الصمود أربع سنوات دون أن تقهر، أما الآن فالجيش الألماني يحتاج إلى أكثر من معجزة لاختراق خط ماجينو، والأسطول الانكليزي لن يدع قطع البحرية الألمانية تقترب من الشواطىء البريطانية، إذا كان هناك حرب عالمية ثانية فسوف تكون

حرب حدود، وقد تمتد لأشهر أو سنوات ولن تحسمها سوى حروب المستعمرات، المانيا ستحاول أن تضعف الوجود الفرنسي والانكليزي خارج أوربا، وأراضي المستعمرات هي ساحات القتال الرئيسة، وأعتقد دون شك اننا سوف نواجه مواقف صعبة في سورية، سورية هي مفتاح الطريق إلى الهند وهم سيحاولون مستميتين أن يحلوا مكاننا، ويبذلون أقصى جهودهم في الدعاية والقوة، ترى هل سيصدقهم السوريون؟

ذلك سؤال يوجهه إليه:

ـ كلا لن نصدقهم. . . وعود المستعمرين متشابهة.

أصيب الكولونيل بخيبة أمل سريعة، ووصم الإجابة في دخيلته بأنها مستهترة لا تقيم وزناً واقعياً لطرفي النزاع أو تفرقة ضرورية بين الدول الديمقراطية والدول النازية والشيوعية والفاشيستية، وبالاضافة إلى ذلك فان روح الحوار قد انحرفت بعد أن كانت موشاة بالتلميحات المهذبة والذكية.

ـ لقد نسيت أمراً مهماً، سورية ولبنان ليستا مستعمرتين، بل هما مناطق موضوعة تحت الانتداب برعاية فرنسة، هذا يملي علينا واجبات جسيمة، توجيه الإدارة فيهما والاشراف عليهما حتى تجدا المقدرة والكفاءة اللازمتين للقيام بأعبائهما.

ـ هل تعتقد أن هناكم تكليفاً ما لشعب بتمدين شعوب أخرى، أو حتى ما تدعونه بالانتداب أو الرعاية، وهل يستطيع جيش خليط من فرنسيين وأفارقة وتونكينيين وحتى عرب مسلمين مثلنا مع الاستعانة بمرتزقة وجواسيس، أن يكونوا رسل حضارة؟! ما هي الدعوى؟ هل السوريون شعب تحت الحضارة. . . أو على أعتابها. . أم شعب دون حضارة؟

كان الانتقال من النصوص إلى التجاوزات التي تمليها عليها تطبيقاتها مزعجاً للكولونيل.

ـ مسيو سرحان. . . الحضارة تركيبة معقدة جداً، لكن ما يجب أن تعرفه أن الحضارة لا تكفلها إلا القوة.

تابع يوسف دون أن يلقي بالاً لتدخله:

- ثم أن يسعى هذا الخليط وبحكمة فرنسية ليس إلى تسعير النعرات الطائفية فقط وانما إلى ايجادها أيضاً وحمايتها، وتفتيت بلد واحد إلى شعوب متعادية مع ربطهم بمصالحها الأنانية، الاقتصادية والسياسية، كولونيل. . . نحن ندعو هذا بلاء.

- هذا واقع سورية وثمرة قرون من الديانات والانشقاقات الغامضة والمذابح الأهلية.

- إنها عقائدنا وإشكالاتنا الروحية وهي العمق المظلم والمضيء في ذواتنا، ونحن المدعوون لادراكها، وهي لا تثير لديكم سوى الاستهجان والسخرية ومع هذا تستعملونها وتكرسونها أدوات للتفرقة والتناحر، إنكم تفهموننا بقدر مصالحكم.

وعلى الرغم من هذا الاتهام الصريح، وجد الكولونيل نفسه خارج دائرة الاتهام.

- مسيو سرحان. . ربما كنا ملومين ولكنك تبالغ، المصالح قد تتناقض مع المبادىء ولكنها في النهاية تخدمها، نحن في صراع ليس مع ألمانية وإنما مع روسية أيضاً وإلى حد ما مع بريطانيا، في هذا العالم إذا لم نتوسع فسوف نضطر إلى الدفاع عن أراضينا، نحن نحاول أن نكوّن مجموعة من الدول والشعوب التي تقف معنا وتحمل روح حضارتنا، ليس هناك خطأ، الحضارة ليست خطأ. . . كما أن لها ضحاياها.

- كولونيل. . . الشقة واسعة بيننا، أنتم لا ترون في الشرق العربي سوى أراض، هي مناطق نفوذ، وشعوب مريضة، جاهلة وفقيرة، بشر غير مهمة وغير ذات شأن، إن هذه المسافات الشاسعة التي تفصل بيننا لا تسمح لكم أن تلمحوا ذلك التوق المتأجج في دواخلنا، التوق كي ننفض عنا كرى وأوهاماً وكوابيس، نحن لدينا حضارة أبتليت بسبات طويل، ثم جئتم أنتم تفرضون بالقوة والحيلة

بديلاً كاملاً لأساليب عيشنا وتفكيرنا، أليس هذا خلق مشوه لصورتكم، ومسيرة ليس من الحتم تأثرها؟

ـ نحن نقدم لكم منجزات بلا عناء، كهرباء... سيارات... هواتف. ديزل.

ـ هل تفترض أن هناك شعوباً مختصة في صناعة الحضارة وشعوباً تعيش على فتاتها، وهي معدة أيضاً كي تكون وقودها؟ بمعنى آخر... هل يتوارى وراء حس العظمة الفرنسية... عرق فرنسي؟

انتفض الكولونيل ينفي التهمة:

ـ كلا... هذا تحريف.

ـ ما نطمح إليه ليس أن نكون تابعين مخلصين أو مقلدين عمياناً، بل أن نكون نحن بكليتنا وخصوصيتنا، إن مدنيتكم ما هي إلا نموذج ما، نموذج تجيرونه لخدمة مصالحكم، مدنية مشكوك فيها، ألا تظن أن الحرب الأخيرة والحرب الوشيكة الوقوع، هي من نتاج حضارة غرب مسلح وجشع؟ ألا تبدو هذه الحضارة صراعاً بين شياطين وأبالسة، صراعاً للسيطرة على العالم؟ أليس ما يجري من تجلياتها المدمرة؟

نفر الكولونيل... كيف يَرد ذكر الشياطين في محضر السياسة والحرب؟! هذا يلائم الأطفال في قصص الساحرات، لم يعد تبسيطاً مجحفاً وإنما مخلاً، تفسيرات غيبية من رجل متعلم بدأ ينقض نظريته الجميلة عن فعل جراثيم العقل والشك، رجل أعشته مباهج باريز المبهرجة وفاتته أنوارها الساطعة، عقب بفراغ صبر:

ـ ما تقوله تفنيد شرقي، لا يرى في العالم سوى الخير والشر.

وإذ رآه يبتسم هازئاً، استمر:

ـ إذا كان الصراع بين الأشرار، فأين هم الأخيار؟ أنتم؟! مسيو سرحان... لنبتعد عن التشبيهات المجافية للفكر، ولنأخذ مثالاً مجاوراً لكم ولصيقا بكم... تركياً، ألم يستطع كمال أتاتورك إنقادها من هذه الرؤية الساذجة

والضيقـة وأن يقف مواجهـة العـالم وفي مستـوى قامته، ويرى في الحضارة والغرب أمـرين لا ينفصـلان، بمعنى واحـد، الحضـارة غربية. أقدم على الغاء السلطنة فاصـلاً المسجـد عن الـدولـة، ثم ألغى الخـلافـة، قاطعـاً الصلة بماضي تركيـة الاسـلامي وبعـلاقتها بالشرق، ماذا تسمي هذا؟ انها العلمانية، وما الذي تحاول فرنسـة فعله في سوريـة؟ أن تسـاعـدكم على الاختيـار، محققة لكم نقلة جريئة، ومقـدمـاتهـا لغـة فرنسية، ليست لغة الصالونات بل لغة النظريات والآلات، لغة تفتح لكم آفاقاً من الازدهار والرفاهية.

ـ النقلة الجـريئـة لا تعني بالضـرورة النقلة السليمـة والموفقـة بل قد تكون النقلة الأخـيرة القـاتلة، ثم كيف نختـار وأنتم تفـرضـون انمـوذجاً واحداً؟! هل نستطيـع تمثلكم بمعـزل عن أنفسنـا؟! المحـاكـاة حالـة مؤ قتـة، حالة قد تصبح متـاهـة. الحضـارة ليست مجمـوعـة من النظم والأدوات والأساليب التي لا تخضع للنقـد أو المسـاءلـة، كما أنـه ليس هنـاك من له الحق بانتقـائها شخصاً كان أوحكومة، انها تطلع شعب إلى العيش والـوجـود، بشـر لديهم الذاكرة والروح والمقدرة، الماضي والمعـاني، ان التـلاقي بين الشعـوب كما بين الأفـراد لا يكـون إلا حراً، وهـو ليس بسهولة ارتداء السروال والقبعة، ورقصة «الفوكس تروت»، وان يكون يوم الأحد يوم العطلة الاسبـوعي، أو الكتـابـة بالحرف اللاتيني، أوحتى اعتناق ذلك المزيج من الأفكـار العميقـة والسطحيـة، هذه لن تصمـد في خيـار الحيـاة والمـوت، أيام الأزمـات والمنعطفـات والامتحـانـات الكبرى، في تلك الساعات الحالكة اما أن تضل الناس أو يرتدّون إلى ذواتهم، عندئذ يحسون بتلك الرقع الشاسعة، الموغلة في المـاضي والممتـدة في الحـاضـر، والمتألقـة بالحقيقـة والمعاناة، ويتكشفون المعاني العظيمة للوجود، عند ذلك يصمدون مهتدين بأنوار القلوب والأرواح.

استوقفته الكلمات الأخيرة «أنوار القلوب والأرواح»!! تعبير غامض أم لغو في المعنى؟ ثم ما الـذي يبعثـه ماض مهـزوز ومنسي غير انبيـاء وخلفـاء، مبـاذل ومحظيـات، فقهـاء وعبيـد؟! ألا يوازي ماضي أوربـة بقديسيه وسحرته، أباطرته ومحـاكمـه وغـوانيه؟ وهاهو يتكرر الآن على نحو أرقى ودون دعاوى دينية وغيبية،

رموزه السلطة والسيطرة، القوة والحرب، أحس أن عليه اجبار الرجل المهوم أن يصحو.

ـ انـك ترتكب خطأ فاحشـاً، هنـاك انـاس يحاولـون وبـاخلاص أن ينسوا المـاضي بشقيـه، قداستـه وخـزعبلاته، فيما أنت تود احياءه، بصراحة.. لا أجد مسـوغـاً واحـداً جديراً بايقاظه، دعوه يلطخ الكتب أفضل من تعريضه لعواصف الحـاضـر، عليكم البحث عن صيغـة ما للتفاهم والتعاون من دون الالتفات إلى الوراء، بمعنى ما، عليكم أن تفكروا بجدية وعمق فيما أنتم مقدمون عليه.

ـ ان الاكـراه هو الصلة الـوحيـدة بين الغالب والمغلوب، وقسر السلاح بين الغرب والشرق صيغة مؤقتة، الشرق لا يعاني من فقر في الحضارة وانها من تواريها، نحن بحاجة إلى استعادتها وأن نبدأ منها وليس من دونها.

ـ لا.. لا، عليـك أن تفصـل بين فرنسـا وجيشهـا، الجيش عرض من أعراض المدنية.

ـ هذه فرنسـة لا تنفصـل بعضها عن بعض، والتعاون لا يكون بين فرقاء، في معركة المصالح لا وجود إلا للنوايا السيئة.

أدرك أن يوسف لم يعـد يداري أفكـاره، ومـع هذا فهو ما يزال يبطن أكثر مما يظهر، قال له:

ـ للأسف لم تعودوا في معرض الاختيار، ان الحكمة واللباقة تعوزنكم أكثر من الدماء التي ستهدرونها بلا طائل.

رآه يجمد للحظات ثم يقول ضاغطاً على كلماته بحرص:

ـ إنني لا أخالف الحقيقة اذ أؤكد لك، اننا لا نحمل لكم أية شبهة من مودة.

عثـر الكولونيل على ما بحث عنه، كانت مشاعر يوسف جلية وخطيرة، حالة مـن حـالات العـداء السـافـر والمطلق، بحيث يستطيـع ـ مستريح الضمير ـ أن يوجـه اليـه أيـة تهمـة، لكن ليس هنـاك قانون يطال الكراهية، تحامل على نفسه مؤجلاً أحقاده، وابتسم ابتسامة عريضة:

ـ مسيو سرحان . . . لقد سعدت بالتحدث اليك، انت واحد من المثقفين السوريين الذين يملكون رؤ ية شائقة ومتعبة، غائبة عن أذهاننا، وأتمنى أن يحافظ حوارنا دائماً على هذه الصراحة، انها فرصة نادرة ليفهم بعضنا بعضاً، دون أن يغيب عن ذهني وضعنا كطرفي نقيض، لكن كم هو ممتع أن أستوعب هذا النقيض الذي تمثله، وكي أفهمك رأي فرنسة وهو رأيي أيضاً، أقول اننا باقون.

ـ كولونيل، يجب أن تعرف أن سورية سوف تكون خيبة لآمالكم، سترحلون، لكن ستتركون وراءكم مآثر مضللة من القوة، ورجالاً يؤمنون بها، تلك صناعة يوجد لدينا من يتقمصها، ولا أدري كم سيمضي من زمن حتى نستطيع التخلص مما أصابنا في أرواحنا وأدياننا وأرضنا، وأن ندرك أن خلاصنا ليس معكم وانما من دونكم.

لم تسترع الخاتمة المحيرة اهتمامه، ولا ذلك التنبؤ المثير، الشرق مهبط الديانات والمفاجآت وأشخاصه محكومون بالأقدار والمصادفات، ما أزعجه هو العند والصلف في شخصية يوسف سرحان وهو يسعى بحرارة كي يخلخل المعاني الجوهرية التي تؤكد وجودهم ثم يتحايل كي ينسفها، ومن المؤسف أن صورة القاتل بأنماطها كافة، النموذجية والشاذة، لم تكن جديرة به، وانما شخصية المحرض المدعي، مثير الاضطرابات والفتن، المشعوذ الثرثار الذي يخلط بين الأسلحة والأفكار، والقبعات والأنوار، كل هذا مبطن بكراهية عميقة وأحقاد دفينة . . . ذلك هو دليل الاتهام، وتمنى أن يرفع سبابته في وجهه متهماً، ويصرخ بتشف . . . أنت مطلوب. مجهضاً اندفاعته العمياء وتفاؤله الساذج.

تلفت حوله يتخيل وقع تلك الحركة المباغتة . . . كان الصالون قد انبسط فسيحاً، اللاعبون تفرقوا، وغاص الرجال والنساء في الأرائك والتحقوا في الزوايا والغرف الجانبية، وفي اجوائه المتنافرة تحللت خيوط الضوء وترنحت الظلال وتداعت أحلام اليقظة، تنطق بالايماءات وتجنح إلى الهمس والسكون . . . فؤاد بك يحملق في الحائط وصديقته تدندن بصوت خفيض لحناً عربياً بلسان ممطوط، ورجلان يتحدثان عن شائعات حول مصادرات محاصيل القطن وارتفاع أسعار

السكر، والقومندان غيومييه يتبادل حديثاً ناعماً مع البولندية الشقراء، وفتاة تتثاءب وإلى جوارهـا رجـل يتشـاغـل بتـدخين السيجار، ومدام كورينا تلملم الكؤوس الفـارغـة، المـرايا تعكس حلقات الدخان والأنفاس الرتيبة، والكلمات المتراخية، وصـور نسـاء ورجـال من الأمكنـة البعيـدة والمتشابهة والأزمنة الراحلة، حشد من الذكريات المتراجعة.

... في ذلك الغروب الواني، تلجم الحركات العنيفة والنزقة، وقف قائلاً:

ـ اعتقد أننا سنتقابل قريباً.

وتابع كي يبدو غامضاً ومنذراً:

ـ بالطبع لا أقصد هنا.

بدا يوسف متسائلاً، وأراد كي يزيد من حيرته أن يقول له... سوف انتظر قدومك بعد ساعات، ... كلا يكفي هذا، عليه أن يترك شيئاً للمفاجأة.

* * *

- ١٣ -

لم يكن صولانـي واثقـاً من وجـود الـرجـل الـذي سيطلق عليـه النار ثم يراه يتهاوى أرضا على الرصيف المقابل، كان متأكداً قبل أن يضغط على زناد مسدسه أن فحمــة الليــل البــاردة ستتفكــك وتتقــوض معهـا مزاعم الطبيب الحـارة، والرجل . . . الرجل الكابوس لن يسعفه الوقت كي يتشكل في جوف الظلمة حتى يصطـاده في البكـور، اذ سيفصـل الخيـط الأبيض في ميعـاده المحـدد بين تهاويـل الطبيب الفارغة والأزقة الخالية.

كانـا قد أوقفـا السيـارة عنـد جادة الأحـمـديـة، فيما توزع الجنود السنغال في مدخل ساحة المرجة بين سينما الكوزموغراف وفندق الشرق والعدلية، لبثا وحيدين داخــل السيـارة الهـامـدة وعيـونهم مثبتـة على المـدخـل المكشوف لزقاق البحصة الجوانية، الطبيب يشرح وصولاني يستمع.

. . . عنـدمـا يظهـر ويتأكـد من أوصـافـه، يشـير بيـده إليه، عندئذ على صولاني أن يرديـه قتيـلاً على الفور، يهرع الجنود السنغال على أصوات الرصاص فيما تكون العملية انتهت دون شهود، وتكون حجتنا أن الرجل لم يمتثل لتحذيرنا له بالاستسـلام وانطلـق هاربـاً، حاصـرناه، وعندما حاول أن يخرج مسدسه، لم يعد هناك مفر من رميه بالرصاص.

لم ينـاقش صولاني الخطـة، كان خروجـه من السجن على الـرغم من أمـر

إطلاق سراحه المُوقعّ من الكولونيل كولبير، ضرباً من المستحيل، إذن لماذا يعترض على ثغرات هذه الخطة الركيكة أو الحجة الواهية؟! لعبة خارقة، ذكية ووضيعة لعبها الطبيب واستطاع اقناع الكولونيل بأمر لا يصدقه عقل، ويزج به في تضاعيف أوهامه الطليقة... بدا وحلقات السلسلة تتباعد ونهاياتها تتقارب، أن شيئاً لن يحدث.

كان الليل يدلج متباطئاً ومملاً، مغرياً بالشرود والسأم، وصولاني متنبه لا لن يحلق خارج السيارة في الخلاء المسقوف بالنجوم، ولن يتبادل الحديث مع الطبيب وهو يتكشفه بوجهه الآخر، صامتاً ومسعوراً، عجينة من الدهاء والتصميم، وتلك الحقيقة السقيمة تبرهن دائماً عن صدقها... إذا فتح الطبيب فمه فلن يتفوه إلا بهذر ليس له آخر. لعبة لن تتوضح إلا في فصلها الأخير، وكل استباق لحركتها... ترداد لغموضها.

امتد الليل وانفاس الطبيب تزيده لجاجة وقرا، أحس صولاني المعتصم وراء المقود خلف صفحة وجهه المعتكرة، أن عليه قطع السكون المشحون بالطيش الجاد قبل أن يخرج الطبيب عن صمته إلى العلن بمكيدة ثانية، التفت إليه وسأله عن اسم الرجل الذي سيقتله، أجابه:

ـ يوسف سرحان.

بالضبط كما توقع تماماً، لم يعن له الاسم شيئاً، زفر:

ـ من أجل امرأة؟

ـ هذا الرجل يريد اغتيال المفوض السامي.

لم ترق له هذه المبالغة السخيفة، انسحب من السيارة حانقاً... ياإلهي كذبة تفوق ما سبقها، تمشي غاضباً جوار الدكاكين المغلقة. أمعن النظر إلى ساعته... قارب الصبح أن ينبلج ويضيىء المكان.

التفت ووجده يسير محاذاته. انفتل يريد العودة لينجو من ثقل ظله، لكن الطبيب أمسك ساعده بقوة، كان هناك صوت، أرهف السمع... خفق أقدام رتيب، استدار ونظر الى الجانب المقابل، رأى رجلاً يمشي أمام كراج الصفدي،

حدق النظر فيه، رجلاً متوسط القامة قد وضع يديه في جيبي معطفه، همس الطبيب:

- هذا هو.

رد على همسه مناكداً ومتحيراً:

- وما أدراك أنه هو؟

عاد الطبيب ملحاً وهو يشد على ساعده بعصبية:

- لا تدعه يفلت.

تلكأ صولاني قليلاً، ثم سحب مسدسه، هيأه ونظر إلى وجه الطبيب المحملق في الرجل السرابي، ثم أعاد نظره إلى الرجل وتساءل... هل يتجسد؟!

تجاوزهما الرجل حاثاً خطاه على الرصيف. صرخ الطبيب يؤخره:

- يوسف سرحان.

توقف. ولى وجهه شطرهما وواجههما من البعد. رفع صولاني يديه الممسكتين بالمسدس، صوبه اليه، وأطلق رصاصة، تراجع الرجل خطوة.. خطوتين وسقط أرضاً.

قال صولاني لنفسه.. هذا الرجل حقيقي. ارخى يديه، هزه الطبيب:

- أجهز عليه.

رفع يديه ثانية. خيل إليه وقد اندغمت الألوان الغامقة مع لون المسدس أنه لم يعد للرجل أثر على الأرض، وما حدث قبل هنيهات يحتاج إلى برهان، أطلق رصاصة ثانية.. ثالثة، ساد الصدى... وأعقبه الرجل وهو يقف على قدميه معتمداً بيده على الحائط ويده الأخرى ممسكة بكتفه، وبلمح البصر ينكفىء راجعاً، منسلاً إلى العتمة التي جاء منها.

تسمر في مكانه والطبيب المشدوه لم ينكر ما حدث. تعالت أصوات السنغال وهم يهرولون قادمين من ساحة المرجة، لمح الرجل ينعطف في زقاق البحصة البرانية. اندفع يلحق به، كان الزقاق قد ابتلعه، وقف منصتاً... وهرج

السنغال يطغي على أسماعه، صرخ بهم يسكتهم، ومن خلل السكون والظلمة التقط صوت قدمين تثبان فوق الأرض، ولاح الرجل من بعيد، في نهاية الطلعة، واقفاً أمام صرح عال يتلفت حواليه. . . ثم يدخل فيه، جرى باتجاهه، حين وصل المكان وجد نفسه إزاء بناء من الحجر وباب كبير من الخشب الثخين، ثبتت عليه المسامير الغليظة، وضلفتاه مفتوحتان على مصراعيهما، اقترب متوجساً، سمع صوت خرير مياه يعلو من الداخل، تقدم بحذر، أحس بيد الطبيب تمسكه من كتفه وتشده إلى الخلف:

- إلى أين؟ هذا جامع الطاووسية.

وأشار بيده إلى اللوحة الرخامية البارزة عالياً على الجدار «جامع الخانقاه اليونسية» تراجع صولاني ممتعضاً، أجال بصره حوله، ترامى من الجانب المقابل بصيص ضوء مرتعش، تذكر. . . إنها ذبالة الشمعة المعلقة عند باب بنسيون مدام كورينا، التفت إلى الجنود السنغال وأمرهم أن يتوزعوا في عمق الزقاق.

أبدى صولاني عزمه على دخول الجامع، متعللاً:

- هل تعتقد أنه سيخرج؟!

صمت الطبيب وظهر ممانعاً. . . هذه إشارات، أليس لهذا معنى؟ أن يختبىء غريمه داخل الجامع محتمياً ببيت الله.

- الجامع؟! لا. . . لا.

لم تخطر لصولاني تداعيات الطبيب المتشائمة، ولم يجد تفسيراً للنكسة التي ألمت به فجأة، إلا أن أصوات الرصاص ستوقظ أهالي الحارة وتجعلهم يطلون من الشبابيك والأخصاص، وزبائن مدام كورينا يخرجون بملابسهم الداخلية، قال له مطمئناً:

- لن اطلق رصاصة واحدة.

لم يكن الطبيب خائفاً وعصبياً كما بدا لصولاني وإنما متطيراً. . . المسجد مكان للعبادة وليس ساحة نزال، وصولاني الفظ والمتجرد من الأخلاق والأديان لن يفهم لعنة المساجد والمقابر، لم يتراجع وصولاني يؤكد إن عليهم الاسراع والانتهاء

من المطـاردة قبـل أن يؤ ذن لصـلاة الصبح وينقذه المصلون، وأخذ يشرح له حرمة الجوامع وآداب دخولها:

ـ اذا كنت مصراً على دخول الجامع فيجيب أن لا تكون جنباً، وأن تتوضأ ثم تصلي ركعتين تحية للمسجد.

ارتد صولاني متعجباً. . هل يتخفي داخل شخصية الطبيب رجل روحاني ومتدين ذو طقوس حازمة؟!

ـ إن صاحبك يوسف سرحان عندما اقتحم المسجد لم يتوضأ، وهو لا يصلي الآن، وعلى التأكيد سأجده داخله ميتاً أو مغمى عليه.

ـ سيقاومك إذا كان صاحياً.

ـ إنه جريح، وكل ما سأفعله هو انني سأهدده بالمسدس ثم أشده من شعره وألقي به خارجاً.

حاول الطبيب أن يجد حلاً للمعضلة. . . كيف لا يضيع فرصته الأخيرة دون أن يعصي الله الـذي اعـترضـه في الـدقيقـة الحاسمة، ألا يقع وزر ما سوف يحدث على عاتق صولاني؟ . . . وافق:

ـ على ألا تدخل الجامع منتعلاً حذاءيك.

راقتـه الفكـرة، ستمكنه من التسلل بخفة ومفاجأة الضحية، وسوف يتأخر قليـلاً ريثـما يستجـوب الرجل عن السبب العجيب الذي سيقتله به، ويعرف أيهم هو؟! المتآمر السـياسي أو زوج المرأة التي يشتهيها الطبيب أم قاتل أبيه؟ أم هو رجل رابـع لا يمت بصلة لواحـد من هؤلاء الثـلاثـة؟ وإلا كيف يستطيـع أن يرميـه برصاصة بين عينيه رائق البال ودون تأنيب ضمير.

بدا المـدخـل ضيقـاً بفسحتـه الصغـيرة، الميضأة إلى اليسار والماء يسح من الحـوض الممتـد على طول الحـائـط، وإلى اليمـين بسـاط صغـير من القش، ودرجتـان، صعـدهما إلى ساحـة المسجـد الفسيحـة، وعلى الأطـراف ظهـرت الأشجـار الجـرداء والعـرائش اليـابسـة منتصبة في سكون، اسند ظهره إلى الحجر المـرصـوف وسحب قدميـه الحـافيتـين على الرخام، وكتفه تحاذي الحائط، وعيناه

ترصدان الزوايا والأحواض، متسمعاً خشخشة الأوراق اليابسة فوق الأرضية العارية، وزقزقة عصافير هاربة، تابع تطوافه حول صحن الجامع، حين قارب أن يصل الدرج المؤدي إلى قاعة المسجد، اختل توازنه وقد افتقد الجدار الذي كان يستند اليه، تلفت مذعوراً، اصطدمت قدماه بحاجز منخفض من الرخام، تلمسه ثم تخطاه بحذر، وواجهه باب حديدي عال فتحه، وانبسط أمام عينيه عمق المكان. . . شارع معتم أشجار قصية، ورصيفين تلمع بينهما سكة حديدية، وفي الصدارة سينما. . . سينما روكسي!!! تساءل خائفاً ومدهوشاً. . . أهذا ما يلفقه خيال متعب أم أن هذه صورة؟! ولماذا تلتصق صورة سينما على جدار مسجد؟ تقدم وقد ارتج عليه المكان غير مطمئن لتشابك الحجر والشجر مع إعلانات الفيلم، . . . ووجد نفسه في شارع غوابييه، ضرب بيده على جبهته. . . مقهى البرازيل إلى يمينه والمكتبة العمومية إلى يساره، وهو واقف عند عتبة الباب الخلفي لجامع الطاووسية، وفهم دون عناء سماجة ما حدث وسخافته. . . لقد دخل الرجل الهارب من الباب الأمامي في زقاق البحصة البرانية وخرج من الباب الخلفي المطل على شارع السكة، ونجا بنفسه.

حدق في اتجاه بوابة الصالحية، لم يكن هناك أحد، فيما كانت أنوار القناديل الباهتة عند جسر فكتوريا تضيىء فراغاً عالياً، ركض حتى فندق فكتوريا. . . ولمح من بعيد عند محطة الحجاز عربة خيل تتوجه إلى شارع جمال باشا، ثم سمع هديراً من ساحة المرجة، ادار رأسه صوب الساحة، كانت هناك سيارة تغيب في طلعة السنجقدار. . . في أيهما هرب يوسف سرحان؟!

* * *

هذه خاتمة المطاف، ذلك ما أسره الطبيب لنفسه وهو يسرد على الكولونيل قصة ضامرة وعجفاء نزت من ليل ممتلىء ومترهل، وخارج الغرفة قبع صولاني على رقعة صغيرة في الممر الطويل الضيق، يطل من النافذة على شارع البرلمان منتظراً ما يخصه من الخاتمة، عودته إلى السجن أو. . . وكان الحل الآخر غامضاً.

بنظـرة خاطفـة شمـل الكولونيل الطبيب المتورم العينين والخالي الوفاض ثم عاد إلى أوراقـه، مدركـاً أنـه أخطأ مرتـين في التعامل مع يوسف سرحان، الأولى عنـدمـا تهاون وأسنـد مهمة القبض عليه إلى الطبيب، والثانية عندما تركه حراً في البنسيون، والآن عليه أن يتحمل مغبة ما أهمله مرتين ويخسر بهجة اللقاء العاصف والسـاخـر، وكـان رد فعله الهادىء والمتزن مشجعاً للطبيب كي يرمي بخيبته جانباً ويحاول إقناعه بأنه إذا كان يوسف سرحان قد أفلت منهم جريحاً فهو الآن على شفا الموت إن لم يكن قد لفظ أنفاسه الأخيرة فعلاً وواراه شركاؤه التراب.

لم تستأثـر المطـاردة الليليـة السخيفة باهتمامه ولا النهايات التي أجاد الطبيب وصفهـا وتـرتيبهـا على نحـو مميت، يوسف سرحـان لم يهرب ليبحـث عمن يهيـل التراب فوقه وانما ليلتقي بأعوان يضمدون له جراحه، وما جرى. . . تأكيد على أنه يتعقب خطا رجل لم يتطابق ظهوره البطيىء مع اختفائه السريع، وخطره لا يكمن في الجريمة التي لم ترتكب بل في تلك النوايا المخبوءة التي تجهر بقطيعة لا مراء فيها، ما أراد قوله له:

- مسيو سرحان. . لقد فات الأوان ولم يعد هناك من حوار يرجى.

لكنه اعتلى صهوة صعبة، وفرض حواراً متنائياً لن يطول، عين فيه أسلوبه وبنوده، والآن من هنا. . . ودون أن يتقدم خطوة واحدة، يرفض ما لن يقع أبداً.

- مسيو سرحان، من المستحيل أن يكون هناك تفاهم مع أناس اصبحوا في عداد الأموات.

يديـر ظهـره له، مدركـاً أنـه يضمـر لهذا الغـائب مشهـداً يغص بالـدمـار والأسلحة، قد بدأت أطرافه تحتل مواقعها فيه، وبات على أشخاصه أن ينفذوه في وجوده، وبمعزل عنه وبتدبير منه.

بينما كان الطبيب يشوشه مختلقاً المعاذير، وقد عزا علة إخفاقه إلى جهله أن لجامـع الطـاووسيـة بابين، أليس عليه أن يصرخ في وجهه. . . ولماذا مكنتموه من الوصول إليه؟! أفلا يفترض بكم أن تمسكوه قبل أن يجري هارباً؟! أحس بحاجة قصـوى أن ينفث عن غضبـه ويفـرغه فوق رأس شخص يفهم ذلك الخطأ الفظيع

الذي ارتكب بحماقة، . . . أن تدع مطلوباً ينجو منك وأنت تكمن له طوال ليلة كاملة!! طلب استدعاء صولاني.

لم يكن صولاني يرقب حرس المفوضية وهم تحت مرمى بصره، أو يتأمل ذلك الصباح الناشز المغبر بالفشل وهو يتمدد فوق مرمى بصره، كان قد أنهى منفرداً ومن جانب واحد مشكلته مع الكولونيل ونجح في أن يختار بروية وحلم. . عودته إلى السجن، وتعزيته العاجلة أنه سيتابع حديثاً لم ينقطع بعد مع السيدة الرقيقة، حديثاً بات معززاً بتجربة شخصية سريعة وعميقة.

ـ القانون يا سيدتي لا وجود له.

ستضطرب السيدة ولن تخفي هلعها وحيرتها من تأثير الكلمة التي فقدت مفعولها بين ليلة وضحاها.

ـ وما يدعونه بالقانون، بنصوصه المكتوبة وغير المكتوبة ما هو إلا احقاق للقوة، القوة أولاً . . . إنها تسبقه ثم تفسره.

تتوه نظراتها على وجهه وتطلب شرحاً لهذه الفذلكة اللفظية.

ـ لقد أخرجوني من السجن دون أن يعبؤوا بقوانينهم كي أقتل رجلاً، وهاهم يعيدونني إليه لأنني لم أفهم مغزى ومدى القوة التي سلحوني بها، وكل هذا لا علاقة له بالقانون ومع هذا يتم تحت ستاره.

وأُخذ على حين غرة، ليس من السيدة الرقيقة التي رسم استجاباتها الواهنة بدقة، وإنما من الكولونيل الذي لم يحسب له حساباً أو يلقي بالاً لتوبيخه وتشكيكه بقدراته القيادية. . . لماذا حشر العسكر السنغال عند مدخل المرجة بدلاً من أن يوزعهم في الدخلة الواصلة بين زقاقي البحصة البرانية والجوانية؟! وما معنى أن يكون تحت إمرته عشرة من الجنود دون أن يستخدمهم؟!

ما بغته. . . كان الحقيقة التي لم يهتم بها وأبى أن يصدقها، وما تصوره على أنه من فعل تنويعات خيال كاذب، كان أمراً لا يعتريه الشك. . . الكولونيل يطلب فعلاً القبض على يوسف سرحان بتهمة تدبير مؤامرة لاغتيال المفوض السامي، وقصة الطبيب العاطفية لا أثر لها مطلقاً.

اذن أيـن كان خطـؤه . . . في انـقيـاده الأعمى للطبيب أم في مســاومتــه الصفيقة مستغلاً وضعه كسجين؟! لم يكن من العسير عليه تبين أن لعبة الطبيب بدأت عنـدمـا أخفى عنـه الحقيقـة بجعجعة عاطفية مبيتة كي يساعده على تنفيذ مآرب سيـاسيـة والـوصـول إلى مناصب ادارية رفيعة، حكاية حاكها على طريق الـربـوة وزل لسانه بها عند جادة الأحمدية، تسلسل أم تناقض؟ خطط رجل محنك أم مختـل؟ كيف يثق به وهـو يبثـه جراحـات قلبـه فيـما عليـه أن يتصيـد هفواته في التعبير؟! متى وأين عليه أن يصدق الطبيب؟!

. . . ومـا زال الكـولـونيل يؤكد في كل كلمة يتلفظ بها استحالة انسجام أو تقارب مآسي الطبيب العليلة مع اغتيال المفوض السامي فيما خرج الطبيب خالي البال من دائرة السؤال والجواب معفى من المسؤولية والتخليط.

لكن كل هذا والكولونيل يتحدث عن القبض على سرحان حياً وليس ميتاً!!

عاوده الشـك ولم يستطـع تحاشي مسـحة الـبراءة البلهـاء المطلة من وجـه الطبيب، رمقـه بقـوة، رفـع الطبيب عينيه ولم يتجنبه . . . وأخذت عيونهما تتلاقى بين الفينـة والفينـة . . . بحـذر . . . وعلى مضض . . ثم على وئـام، وخواطرهما تتشابك وتأتلف، وهو يحس أن تغييراً طرأ على الكولونيل، ليس حدساً وإنما حقيقة يتلمسهـا في كلماتـه، الكـولـونيل وقد أجرى تعديلاً جذرياً على ما يطلبه منهما وما يدفعهـما إليـه بات واضحـاً، ففيما كان الطبيب يدبر مقتل سرحان غيلة، اضطراراً وخطأ، هاهـو الكـولـونيـل لا يتغـاضى عن اطـلاق النار فقط وانما يشدد على دقة التسـديـد وغزارة النيران، منزعجاً من صولاني . . . كيف لم يستطع من بعد خمسة أمتـار أن يصيبـه إصابة قاتلة؟! إنه لو أمر الجنود السنغال بفتح النار على فريق من الرجال لجعلوا من جسد كل واحد منهم غربالاً!!

اقترب الكولونيل بوجهه من صولاني يحثه:

ـ عليكم تضييق الخناق عليه، واصطياده.

اقترح وقد فهم المقصود:

ـ سنداهم بيته.

عقب الطبيب وقد احتدمت مشاعره واشتدت لواعجه:

ـ الآن.

* * *

اقترح الطبيب أن يقرعوا الباب لكن صولاني أمر الأجودان بخلعه، انفتح الباب على مصراعه واندفع السنغال إلى الداخل، تبعهم صولاني فيما تأخر الطبيب يحملق في المرأة التي ظهرت في الدهليز واستندت بظهرها إلى الحائط.

توقف صولاني عند البحرة، رفع يده كي يخفف من حدة الوهج وقد أعشاه تلألؤ الشمس المعلقة فوق الباحة، وفقاعات الألوان الهشة والمتطايرة المختلطة في مآقيه، الأخضر اليافع والأسود الأدغم والذهبي البراق والبني المحروق، أغمض عينيه ثم فتحهما... وبزغت امرأة التفت بملاءة غامقة، تقف وسط الليوان، تفصله عنها البحرة الجافة وأصص الأوراق الخضراء والضياء المبهر، تواجهه وهو يتأملها.. وتظهر ثانية، ممشوقة القوام وزخارف صدر الليوان المتماوجة تحتضنها، ورقة المنديل لا تخفي وجهها الناعم المدور، كانت وكأنها تتهيأ لقدومهم المباغت... أو أنها على أهبة الرحيل المفاجىء.

كانت المرأة الأولى قد لحقت بهم ووقفت على بعد خطوتين منه، مشيحة بوجهها عنه، ترقب السنغال وهم يقتحمون غرف التحتاني... غاب السنغال في ضجيجهم ثم خفتت الأصوات فجأة، اعتقد صولاني في ذلك السكون الذي ابتدعه، ان ما يراه لا يشاركه فيه أحد، والمنظر لم يعد كئيباً وشلالات النور تضعها في بؤرة الرؤية، يقترب من دائرة الضوء، يتكشف تقاطيعها خلف المنديل ونظراتها المزدرية تصده، يتمهل وقد تسرب الضجيج المخنوق، والأصوات التي ترطن بالفرنسية، يتملص من وقع الأحذية الثقيلة وتقصف الأعواد الصغيرة، تنبه إلى أن الأجودان ينتظر تعليمات جديدة، قال للمرأة الأولى، القريبة منه:

ـ سيفتشون الفوقاني.

أشار إلى الدرج وانطلقوا يصعدونه قفزاً، سألها:

ـ هل يوجد في البيت أحدٌ غير كما؟

ـ لا.

وبقيت المرأة البعيدة صامتة ومنتصبة تنظر شزراً إلى ما يجري، والطبيب غائب العقل لا يحول عينيه عنها، مشاركاً على نحو ما فيما لا يحدث، خامره الشك في أن الطبيب يحاول أن يوقع في ظنه أن المرأة التي ثبت عليها نظراته ما هي إلا حبيبته التي بكاها في التياترو، فيما يبدو عليه وكأنه يتعرف عليها الآن.

وضع يديه على خاصرتيه وتمشى متظاهراً بالملل واللامبالاة، ثم رفع نظره إلى أعلى، كانت نوافذ الداور والغرف المطلة على الديار تتلامع، لمح وجه الأجودان من خلف الزجاج، وأشار له أن يتابع إلى السطح.

دنا منها وهو يدور حول البحرة، مر إلى جوارها، مسترقاً النظر اليها، شكا في سره من زخم سحرها، وعنفوان تسلطها، ومن أن خمار «الجورجيت»، لا يخفف من وقع تعاذر لحاظها وإنما يزيد من وطأة فتنتها، كيف تتخفى هذه المرأة داخل ملاءة سوداء؟! ولا شيء يمكن له ان يحجبها عن العيون.

أربكته نظراتها الحادة، هل يستطيع أن يبادلها الكراهية بهذه السرعة؟! تحاشاها وهو يلمح صدر الطبيب يعلو ويهبط، ووجهه قد أربد... وكأنه وقع في شباكها، وبدأ عشقها مبرهناً عما تخيله قبل اسبوعين.

لم يحد بصره عنها وهي تستفزه بوقفتها المتصلبة والمتحفزة، امرأة تدغدغ الحواس ببياضها الناصع وطولها الفارع، صدرها الممتلىء وبطنها الضامر، تمثال لدن من الملاحة والتقاطيع الأخاذة، والأعضاء المتراكبة برشاقة ونعومة، امرأة تجمع حسن نساء عديدات سمع عنهن ولم يظفر بهن... ويتوحدن فيها، ما الذي لا يجري؟! وما الذي أضفاه عليها؟! تنفر منه ويخشاها، عيناها هما السبب، فيهما المزيج القاسي والمحير، من الصفاء والاحتقار، البريق والجفاء، وما يدفعه إلى

التـودد اليهـا ينـزع به إلى الإطباق على عنقها، وما يشده إلى الركوع عند قدميها والتوسل اليها، يغريه باغتصابها.

في حين ما زال الطبيب ضالعاً في ذلك المنظر مؤكداً شذوذه وغرابته، بهيئته الزرية متأنياً لا ينبس بكلمة، يطرف برمشيه خائراً وتلفا، وهي . . . القصية عنه، تصيب مكامن الضعف فيه، فيما يطفو خارجها ممتهناً . . . متبلد الحس.

ـ لم نجد شيئاً . .

قالها الأجودان وخلفه الجنود، توجه صولاني إليه، وطلب منه أن ينتظره مع الجنود في ساحة المرجة، والتفت إليها عازماً على التحرش بها:

ـ إننا نبحث عن رجل يدعى يوسف سرحان.

لم تفته نظراتها الساخرة، تابع:

ـ أظنه زوجك؟

تدخلت المرأة الأخرى:

ـ إنه لا يأتي إلى البيت إلا لماماً.

ورآها ترفع رأسها وتقطع الأسئلة والأجوبة:

ـ ما الذي تريده منه؟

شتته صوتها . . . لم يتوقع أن تتكلم، وأن تسأل بدلاً من أن تجيب، صوتها لم يخب ظنونـه، سرى قويـاً وثقيـلاً، ساحـراً ومتألقـاً، متسـائـلاً بنـزق. غاب للحظـات عن المكان، وعندما ارتد كان الصوت ما يزال يتردد وقد تخفف من أثقاله، يرفرف خفيفـاً كنسمـة، عليـلاً ومتطـرفاً، تكسوه طبقة من الحلاوة، ومسحة من الأنفة، علق في دخيلتـه مبهـوراً . . هذا صوت يقطـع نيـاط القلوب ويصلهـا، جهد كي يتلافاها، وتجاهلها . . . وإذ تخلف عنها وجد نفسه مساقاً إليها، يرجوها:

ـ يجب أن تساعدينا.

ـ أساعدك؟!

سألته برنة من الألم والسخرية، لام نفسه . . كيف يرمي الكلام جزافاً وكل ما يريده أن يستدرجها لمزيد من الحديث والموسيقا.

ـ إنها اسئلة روتينية.

وهوى صوتها قاطعاً وبرماً:

ـ ألم ينته التفتيش؟

نظر إلى الطبيب عله ينجده بكلمة ما، سديدة أو سخيفة، لكن . . . وكأن عدوى تأثير الصوت امتد إليه أيضاً ونقله مرة ثانية إلى انسلاب آخر. انبرى يتمشى على غير هدى، وكان على تشوشه وحيرته ينتقي الألفاظ المهذبة، مؤنباً نفسه على الخطأ الذي ارتكبه . . . اقتحام البيت بهذا الأسلوب الفظ . . . ثم:

ـ لقد اضطررت، إنها الأوامر.

ـ هل ستعودون.

عاجل قائلاً:

ـ بالطبع لا.

وارتبك . . . كيف ينهي حديثه وهي ترصده، دون أن يثير حساسيتها المفرطة، ويغادرها تاركاً في نفسها أثراً طيباً يسمح له بالعودة.

ـ ربما احتجت لبعض الاستفسارات.

رفع رأسه، رآها، وخرج مسرعاً دون أن ينتظر جواباً بالرفض، بعد أن انتزع تلك الصورة الأخيرة . . . المرأة وقد حدقت فيه مستغربة ومستنكرة . . . تبتسم وتدير وجهها عنه، هذه الصورة التي سيحتفظ بها ويحاول تفسيرها جاهداً ومراراً، دون جدوى.

مضى ساهماً، ما اهتز في داخله وما تفتح كان عجيباً ومثيراً، أيقن من أمر واحد، أن عليه بمعزل عن فوضى الأفكار وارتجاج الصور أن يعيد ترتيب كل شيء. والطبيب يتعقبه، يناديه ويحاول أن يستوقفه، وهو يسعى كي يفلت منه.

أدركه عند السيارة في ساحة المرجة، وضع يده على كتفه ورجاه:

ـ اسمعني.

التفت صولاني إليه وأمسكه من جاكتته منزعجاً وصرخ في وجهه بحدة:

ـ لماذا تلحق بي؟

غمغم الطبيب لاهثاً:

ـ لم يفت الأوان بعد.

قطب صولاني حاجبيـه، ما الـذي يسمعـه من جديد؟! وأدار بصره صوب ضفتي بردى، علَّ الطبيب يسـترد أنفـاسـه وينظم أفكاره، وتصاعد صوته متقطعاً ومهشماً.. إن ما سيبوح به مريع، وكان عليه أن يعلنه في اللحظة التي دخلوا بها المنزل!!

ما الـذي حدث في المنـزل حتى يتلوى الطبيب مذهـولاً ومـرعوباً هكذا؟! وكأنـه يريـد إضـافة ملحق مركز من الهلوسة يتجاوز به قصته التافهة، ألم يكونا معاً طوال مدة وجـودهما في الـديـار؟ ما الـذي رآه الطبيب ولم يره هو؟! لم يثـر أو يعلق، أمعن النظـر في مدخـل السـرايا مدركاً أن الأمر قد يطول بالطبيب وهو يجمع أجزاء قصـة مهلهلة تبعثـرت فجأة، وقـد يقـول أو لا يقول، وربما تكلم كثيراً، لكنه لن يبوح بشيء ذي قيمة، سأله باستخفاف:

ـ وما هو؟

انفجر الطبيب صائحاً:

ـ لم تكن هي.

نظر صولاني إليه متعجباً.. ما الذي يقصده؟! وعاد الطبيب يؤكد:

ـ ليست هي.

وتساءل دون أن يفهم شيئاً:

ـ ومن هي؟

اندفع الطبيب يفسر ما الذي يقصده بـ «هي» بعد أن أدرك أن هي فقط، ليست أمراً مفروغاً منه.

... إن المـرأة التي أنهضهـا من فراشهـا المبلل بالعـرق والـدم والـدموع، ووسـدهـا في لب خيـالاتـه، لم تكن هي التي رآها قبل قليل في الليوان،... هذه بيضاء البشرة وطويلة، أما تلك التي لم تفارق خياله لحظة واحدة، فسمراء معتدلة

القوام!! والمرأة الأخرى أيضاً كانت نحيلة وشابة وأصبحت سمينة في أواسط العمر.

كان ما يعنيه الطبيب واضحاً. . إن المرأتين قد بدلتا قبل دخولهما، أو أنهما أخطأا البيت، سأله:

ـ هل أنت متأكد أننا دخلنا بيت يوسف سرحان؟

ـ نعم.

لم يجد صولاني مبرراً واحداً كي يقنعه في أن المرأتين لن تستطيعا أن تغيرا من لونيهما أو قامتيهما خلال أسبوعين أو حتى سنتين، وليس هناك من أحد كامل القدرة يستطيع أن يجري هذه التبديلات السرية والخارقة.

في أتون الالتباس الحاصل تراجع الطبيب عن زعمه ونفى معرفته بهما، وبدا في لحظات طويلة وقاسية مختلسة من صبر صولاني، متفجعاً بمرارة. . . هل أحب امرأة لا وجود لها، اختلقها من الظلام والظلال وتلاشت في الضياء، أم أن هناك خديعة جازت عليه في تلك الليلة التي تشاركت فيها العتمة وقنديل الكاز والوجع والنعاس، وتصور امرأة لن تتخلق ثانية إلا في الظلمة وصرخات الألم والتثاؤب ورائحة الكاز.

دفعه صولاني إلى السيارة وتركه يلغو، كانت أنّات الطبيب عديمة الجدوى وهو يندب حبه الضائع. . . لِمَ التباكي على علاقة لم تبدأ بعد؟! كان هذا هو رأي صولاني. . عدا أن الطبيب لم يعش حالة حب من طرف واحد وإنما علاقة حب تفتقد لشخص المحبوب، اما الجانب الآخر للمشكلة فقد أعجب بالنهاية التي بترت أخيلة وأنشطة الطبيب وقد طرد منها في الوقت المناسب، من غير أن يعكر توقه للمرأة التي لاحت الآن وقد اقتطعها من الليوان. . . وأبعدها عن عرائشها وغموضها.

أمر السائق بالطواف حول ساحة المرجة، وولى وجهه صوب النافذة يحضر على صقالها، تلك اللقاءات الشائقة وقد مسح منها خلفياتها الباهتة، وسربها إلى الأمكنة الملائمة. . فندق داماسكوس بالاس. . . قصر البللور والشادروان،

يلتقيها بين جذوع أشجار الحور ممسكاً بزندها، تتدلل في الخلاء المسكون بالكراسي الفارغة والطاولات المبعثرة على شط النهر في صدر «الباز»، وعلى حافة بستان في شارع بغداد بين أشجار البيلسان، يتبعها إلى غرف النوم المتخمة بالصدف والموزاييك والتيجان الخشبية، والملاءات الملونة والعطور المسفوحة، يضطجعان على الفراش. . ، يضمها إلى صدره، يحتويها. . . ويفترعها، والمرايا تكرر العناق والالتصاق وتعيد الوصل، فيما هي تنجز اختفاءها، والمرايا تعيد الفصل وتؤكد غيابها.

أوقف سيل مطارداته، كان الخيال ذلك النخر الذي لم يعرفه من قبل على هذه الشاكلة الجميلة والمخيبة، هيكلاً من الرخام الهش، ما العمل مع هذه المرأة التي تبث الحياة في الخيال ثم تئده، تشعله ثم تحرقه؟! ومن يمنعه عنها؟ الطبيب المضطرب الهيئة والأعصاب. . وما الذي يطلبه منه؟ أن يأمر السائق أن يذهب به إلى الكولونيل كولبير بدلاً من. . .

ـ ولماذا؟

سأله صولاني بحدة عن السبب.

أجابه الطبيب هادئاً وساهماً:

ـ لأن كل ما حدث منذ البارحة وحتى هذه اللحظة لا أساس له من الصحة.

انقبضت ملامح صولاني، فيما أخذ الطبيب يلخص تلك المجموعة من الأحداث بأنها سلسلة نجمت عن خطأ صغير، وشرح متلعثماً الخطأ الصغير الذي ارتكبه:

ـ إننا لم ندخل البيت الذي كنت فيه في الليلة التي أنقذتها فيها من الموت.

قال صولاني حانقاً:

ـ وما الدليل؟

ـ لا وجود للرضيع، ثم أين المرأتان اللتان عرفتهما.

ـ وما الذي سنفعله؟

ـ سنبحث عنهما، سرحان بريء.

كظم صولاني غيظه وقد استيقظ الطبيب حي الضمير، صر على أسنانه.. ألا يدري ما الذي يفسده في صحوته؟ هل عليهما أن يبدأا من جديد ويعيدا الكرة، يطرقان أبواب الحارة بحثاً عن امرأة نزفت منذ اسبوعين... ومن ثم يلفقون تهمة ما لزوجها، لكن الأمر الذي لن يدركه الطبيب أن يوسف سرحان لم يعد بريئاً.

ربت على كتفه، ونصحه أن يذهب إلى فراشه دون إبطاء... ليلتان متواليتان لم يذق فيهما طعم النوم.... إذن هل يستطيع أن يقدر مدى ما يقوله؟ أو هل يمكنه الاطمئنان إلى ما رآه؟!

وأمر السائق أن ينطلق بالسيارة ويعرج في طريقه على القرماني.

* * *

- ١٤ -

كان وجهها الـذي حجب غطاء العربة وجهجهة الصباح، هو آخر ما أغمض عليه عينيه، وجهها . . . وجه الغادة التي أخفق في رؤ يتها بعيون الوهم وهو يسعى على قدميه، وظفر بها . . . ملقى على الرصيف، لقاء تم أخيراً على قارعة الطريق، ولم يعد للدم ـ الذي رشح من صدر معطفه وأخذ ينقط فوق الأرض ـ من مغزى أو معنى، سوى أنه يرسم أثراً من الأحمر تسرب من تخلخل ليلٍ أسود. وكان السَحَرْ في تلك البرهة الفاصلة بين الدهشة وعدم التصديق، دليلاً على ظلمة انقشعت، وتوجت بحلم توقل إلى ذروته دفعة واحدة.

. . . الغادة وقد مدت يديها نحوه، كشفت عن وجهها وبان مفرق شعرها، والجزع على ملامحها، تنحني عليه . . . تحتضنه، ويغيب وجهه في صدرها.

لم ينسحب الألم منه، لكنه فقده في اللحظة التي أصبح بحاجة إليه كي يختبر ما يحدث، إذا كان الدم ماء فاتراً، فهذه المرأة طيف دافىء من صنع توق عتيق، على أنها كانت أحر من جرحه الفاغر فاه، موعد ضربته مع الموت وهاهما يتقابلان فوق جسده، لكن . . . وأنفاسه تحتدم في صدره، بات اضطرام الحياة الذي تبثه فيه أشد ثباتاً وجلداً من برودة الهلاك المستشري في أطرافه، والخطر الذي يترصده على الطرف الآخر.

كانتـا امـرأتـين، هي والأخـرى إلى جوارهـا، همس. . . ما هذا المـوت الجميل؟! . . . وتمنى لو تبتعد بجذعها قليلاً ليتملى ملامحها، ويقارنها بالتقاطيع التي التقطهـا منـذ سنـوات وعن بعد، استجابت مفسحة له مسافة من النظر. . . وكأن زمناً لم يمض، ولقاء لم يتأخر، وما زالت تلك التي فاجأته في غسق الصالحية ورطـوبـة جنينـة النعنـع وهـرج سوق الحميـديـة، تبتكـر المصادفة في شارع فؤاد الأول. . . وهو صريع على الأرض عند انبلاج الصباح. . . لماذا؟ وكيف؟ لم يعد يميز ما يراه، هي أم أخرى يضفـي عليها صورتها، أمعن النظر. . . وقد ائتلفت فيهـا ليـونـة الأشبـاح وانسيـابهم، صلابـة الأحياء ورقتهم، وتقاسمها أرق الحب وإبهـام الصمت. . . ضرب من عبث الخيال ومصـالحته، توقعه النبضات الخائرة وتهدل الأجفان المتراخية، همست باسمه. . . يوسف، همس في داخله، هذا واقع تصـدعـه رغبة، مس خدها خده. . وما يحدث يتجاوزها، هل هرب من رصاص مطارديه واختبأ في أضغاث حلم؟!

. . . وأنفـاسهـا تلفحـه يترنـح مكـذبـاً ومصـدقاً، شفتاها تلتصقان على وجنته وتنزلقان على رقبته، يحسم أمره. . لـم يكن هذا وجه المنية المراوغ وإنما وجه الحب الحـاني، لم يخطىء عنـدمـا بحث عنهـا طوال عمره، وحتى قبل أن يراها في صباه، خـلال سنوات البعاد لم يفترقا، ولم يتزعزع يقينه بها، وانها كانا يعيشان في أتون حب واحد، يلتقيان عمداً بموعد ودون موعد، وهذا لقاء آخر.

اعتمـد على يديهـا، فيـما أحـاطته المرأة الأخرى بساعدها وأنهضته، تقدم على مهـل. . . صعـد عربـة الخيـل متكئاً عليها، يقترب منها والألم يتباعد عنه، مددتـاه على المقعـد الخلفي وجلستا على المقعد المقابل، وعيناها لا تفارقانه. . . مالت عليه، وغاب عن وعيه.

وكـان أول ما فتـح عليـه عينيـه، سميحـة متسمرة فوق رأسه. . . . هلعة. وأمينة منكبة إلى جواره، مخفية وجهها بيديها.

اعتقـد أن الـرجـل الآخـر الـذي كانه، اختفى مع المرأتين وعربة الخيل في طلعة الحجاز، أما هو فقد أخرج من غيبوبته أعزل، بعد أن فقد ما دبره رصاص

طائش ومطاردة هوجاء، وحيداً دون أشباحه وذكرياته، وقد انبرى الواقع يستعرض أشخاصه من حوله، وهو. . . تحت وطأة الكرى والوهن، أسير الضعف والوجع، محكوم بالمشاهدة، يرقب تتالي المناظر، ويرى امرأتين نال منهما الفزع ولم يعبث بهما الخيال، متابعاً نزعاً جافاً، تصحبه أنات متقطعة. . . ونشيج طويل.

أحس بالمكان يتفزر، أشياؤه تبرز وتطلع، وتتموضع على الجدران والنوافذ، وهما تتضاءلان. . . دخيلتان على الغرفة المزحومة.

لم يعد هناك ما يضاهي هذا الظهور للسقف العالي والزخارف الرشيقة للطيور الفيروزية والغيوم الخضراء والسماء الفضية، وكشاكش الستائر الوردية والزركشات المستهترة «للدامسكو».

وهما تزوغان ولا تنضويان، تتجليان أكثر خوراً، والأشياء أشد عناداً وكان عليهما كي يستقيم المنظر أن يخليا مكانهما أو يتحلل الأثاث الثقيل والحرير الخفيف، وتسوح الألوان وتتداخل الخطوط، لكن والأشياء تتمدد وتتكور، تتحدد وتثبت، بات عليهما أن تنسحبا من مكان لا تربطهما به صلة. . . إلا جسد على وشك الهمود.

عبثا ارتد إلى أصوات سنابك الخيل وهي تقرع أرض أزقة خالية مثيرة ترابها، وهو يرتجف من برد الصباح، والروائح الزنخة للقمامة تتسلل ثم تتبدد مع سرعة اندفاع العربة.

ـ هل تراني؟

كان صوت أمينة وهي تلمس جبهته براحة يدها، أجابها:

ـ هل ترينني؟

كاد وهو لا يجد نفسه في المكانين يخشى أن يتبادل معها النظر.

ـ نعم.

والغرفة الغريبة موثقة بالبيرو المصدف والخزانة العالية، وأمينه إلى جواره، امرأة جريحة، الدموع على وجنتيها، والدم متخثر على قميصه الأبيض،

ومعطفه مرمي على الأريكة، أراد أن يسأل... أين نحن؟! وجل من السؤال أغمض عينيه وسميحة تقول:

ـ فلننتظر الليل.

.. وبات الدم والليل صنوين، الخطوة التي تفصله عن الموت، تفصله عن الحياة.

* * *

ركبتْ الطبيبَ فكرة سيئة... إن نكد طالعه سيلاحقه إلى داخل عشه الصغير، وهناك سيجري بينه وبين الحظ حساب عسير لا طاقة له به، ودلو يركب الترام إلى دوما ذهابا وايابا ويسرح ببصره في الحقول الفسيحة والأشجار البعيدة حتى يهوي نائماً فوق مقعده، لكن الإرهاق والنعس لم يمكناه حتى من خلع ملابسه، وفي اللحظة التي أسلم فيها جسده للنوم، لاجئاً إلى السبات المنجي، كان قد ضرب صفحاً عن الأشخاص الذين أتعبوه باختفائهم، والأشخاص الذين أزعجوه بوجودهم، ومع هذا رآهما في الحلم لم تكونا المرأتين اللتين تمنى لو يلمحهما على أعتاب الوسن، وإنما الكولونيل ويوسف سرحان يجمعه معهما مكان واحد، المقعد الخلفي في سيارة أجرة، وهو محصور بينهما!! كان الموقف الذي لم يستعد له في مستهل غفوته أو يتصوره، طلب من السائق أن يقف، ثم استأذن منهما النزول، ترجل بصعوبة من السيارة دون أن يتزحزحا من مطرحهما.

استيقظ متأكداً أن سوء طالعه ما زال يقتفي آثاره حتى إلى ذلك الفراغ المنبسط الحر، ويسجل على شاشة الحلم البيضاء والمفتوحة، لقاءات سوداء وخانقة... كان الوقت عصراً، حضّر إبريقاً صغيراً من المليسة، شربه على مهل، خالي البال مفكك الأوصال، ومستسلماً...

والتقاه كما تمنى، وحيداً وعلى حدة، عند دخلة المملوك والأربطة تغطي كتفه، بادره قبل أن يعلو صوت المؤذن ويشتت أفكاره، وشرح له الملابسات التي أدت إلى مطاردته.

ـ السبب هو أنني لم انجح في العودة إلى البيت ذاته.

ـ أي بيت؟

ـ البيت الذي أنقذت فيه امرأة مشرفة على الموت.

أشار يوسف سرحان إلى الأربطة قائلاً:

ـ كلا... هذا مقصود.

ـ كنت متأكداً أن بيتها في دخلة الشيخ رمضان، لقد أخطأت، إن بيتها على الأرجح في دخلة الصعب أو دخلة خالد بك، وربما في دخلة الحمال.

بدا يوسف سرحان غير مهتم بما يقوله، تابع:

ـ انظر... إنها بضعة امتار تفصل بين الدخلة والأخرى، كان مجيئي في الظلمة ولم أتمكن وقتئذ من تمييز موقع أقدامي.

خيل إليه انه أمضى وقتاً طويلاً وهو يحاول التنصل من مضاعفات ما حدث، ملقياً تبعته على قصر نظره... سهو غير مقصود... عدا انه لا يحمل له أية ضغينة، تنبه إلى أن الحديث يجري من طرف واحد فقط ويوسف سرحان يشارك فيه بتكشيرة غير مريحة، ستر ما خامره من شكوك بمزيد من الاعتذارات، وأراد أن يثنيه عن خطل تصوراته غير ان لسانه تيبس في فمه، وفي اللحظة التي لم يعد يشك فيها من أن حركة طائشة قد تبدر من مستمعه الذي لم ينبس بكلمة منذ فترة طويلة.. حركة قد تكون عدائية، استيقظ جاف الحلق لاهث الأنفاس، نهض محموماً ورشف كأساً من الماء، لم يستطع أن يحدد الوقت، نظر من النافذة وتساءل أهو الغروب أم أن الجو مكفهر، تمدد على الأريكة وعزم على متابعة الحديث دون رجاءات واعتذارات ولن يكتفي بذلك وإنما سيهدده... وما الذي يمنعه من القبض عليه وقتله؟... على أنه وجد نفسه وجهاً لوجه مع الكولونيل كولبير، في المكان الذي التقط منه صولاني سجيناً بالقرب من باب سجن النساء.

... في الفسحة العلوية وقد فارقتها الشمس، السماء ملبدة بالغيوم، والكولونيل ممتعض، وضيق الصدر. يطلب تفسيراً واضحاً لبراءة يوسف سرحان، خشي أن يكون الكولونيل قد تنصت على محادثته مع يوسف، تغافل:

ـ أي تفسير؟!

علا الزبد فم الكولونيل وأخذ يتوعده غاضباً ثم رفع يده وأشار باصبعه اليه متهماً:

ـ أيها الكذاب.

ـ كولونيل... أنا لم أكذب، لقد أخفق المجرم لكنه سيحاول اغتيال بيومن جديد، ويوسف سرحان ارتكب حماقة كبرى دون مراء، وأخطأ بظهوره المشبوه وقد نال نصيبه، أما المجرم الحقيقي فما زال طليقاً.

لم ينظر إلى وجهه، كان يبتكر تلك المخاطر التي ستكبده صعوبات جمة فيما لو أغفل المجرم، التفت إلى الكولونيل:

ـ ربما أودت بمستقبلك.

وقف في مكان عال، على حافة السور أو فوق كرسي القش:

ـ كولونيل إذا لم ترد أن تساعدني فيجب أن تبتعد عن طريقي.

كان الظلام دامساً، مسح عرقه، تلمس الأريكة تحته وتنهد بارتياح، وعندما أرخى رأسه... توقفت سيارة الأجرة محاذاته، صعد إليها وتبعه رجلان، جلس كل منهما إلى جانب، تبينهما، الكولونيل إلى يمينه ويوسف سرحان إلى يساره، وفي المقدمة صولاني خلف المقود، تعجب... لماذا يقود صولاني سيارة اجرة، وأين السيارة العسكرية التي بحوزته؟! وكأن صولاني حزر ما يجول في رأسه، التفت ضاحكاً:

ـ إنها السيارة العسكرية.

وتبدلت العربة إلى السيارة التي أعارها لهم الكولونيل، سأل:

ـ إلى أين نحن ذاهبون؟

ـ إلى الربوة.

لاحظ والجميع صامتون دونما سبب واضح، والسيارة تنساب بهم على الطريق، أن هذا السكون المشبع برائحة المساء الفاغمة والبرد المنعش والأنفاس الرتيبة، لا يوازي على الإطلاق ما يضطرم داخله من مشاعر متأججة، تمليها

امـرأة أضـاع مكـانهـا ولم يفقـد وجههـا ، أحس بضرورة أن يدحض ظنون الرجل الثالث الذي لم يتخل عن مقعد القيادة ، ويسترعي نظره إلى زيف المرأتين اللتين رأوهما ظهراً ، ثم يقنعه بوجود امرأتين حقيقيتين ، يبحث عن واحدة منهما .

في تلك اللحظة سمع صوت خبط ، تساءل متوفزاً : ؛

ـ ما هذا؟!

وصله صوت صولاني من المقدمة :

ـ هناك من يطرق على الباب .

أدار رأسه صوب الباب اليميني ، عاد صوت صولاني قبل أن يدير رأسه إلى الباب اليساري :

ـ كلا ، ليس باب السيارة ، إنه باب البيت .

قفز من السيارة ، اصطدمت قدمه بالمدفأة ، مال على الخزانـة ، استند إليها بيـده ، وقف مصغيـاً السمـع ، كان الخبـط صادراً عن باب البيت كما قال صولاني تماماً ، تقدم وئيداً ، ووجد طريقة بصعوبة في الحجرة وهو يتحسس الجدران والأشياء ،

ارتجت في ناظـريـه المـرئيـات البـاهتـة ، كان هنـاك ما اختلط وسـط النـور الضعيف ، وعسر الرؤ ية لا تبدده جلبة عمال حمام القرماني التي تنقر أسماعه خفيفة ، متـواكبـة ، هل وقـع في إسار حلم آخر ، اصطفاه بشوق ودون سلاسة ، أم أن هذه المرأة التي وقفت عند الوصيد تطلب منه مرافقتها ، حقيقة تخرق تداعيات أحلامه ، توازيها وتفوقها وضوحاً وجرأة؟!

عادت المـرأة تلح والـدهشة تعقد تخميناته ، . . . كان الذي على وشك أن يحدث ، يعيـد تلك الليلة بافتتـاحيتهـا المحـيرة . . . المـرأة بمـلاءتها السوداء وهو بكامل ملابسه ، عند الباب يستعير الزمن ، سألها :

ـ إلى أين؟

ـ اتبعني .

لم يستفسر عن غرضها ، تناول حقيبته ولحقها ، محافظاً على تدفق الحركات

المتــلاحقــة، لكن بدلاً من أن تنعطف باتجـاه جادة الأحمـديـة، تابعت إلى سوق الخيـل، ثم عبرت سوق التبن إلى جادة النـاصـري، وهنـاك كانت عربة خيل في انتظارهما، ركباها، وتقدمت العربة صاعدة في طلعة السنجقدار، وعند كشك بيع الدخان والطوابع، انحرفت يميناً إلى شارع جمال باشا.

لم يفهم هذا الشطـط.. العـربـة وهي تطيـل الطـريق، متجـولة في الأزقة والشـوارع الخـاليـة، هائمة دون قصد أو هدف في دنيا ما زالت هاجعة بين الطنابر الفارغة والحراس المتثائبين والقطط الجائعة، في حين لم يكن يبعدهم عن البحصة الجوانية سوى مسيرة دقائق مشياً على الأقدام، رغب في أن يسألها عن مغزى هذا المشـوار الممطـوط، منتقـداً من طرف خفي التسلسـل الشـرود لما يجري، أمسـك لسـانـه خشية أن يكون الجواب هو.. إنه ما زال في حجرته يتصبب عرقاً وتهيؤ ات.

انعطفت العربة على زقاق الحنبلي ثم توقفت عند مدخل الشابكلية. نزلت المـرأة من العـربـة، مشى وراءهـا وهي تحث خطـاهـا إلى جادة تحت القنـاطـر، صعـدت الـدرج الى القنوات، وقفت أمام باب من خشب الزان السميك، فتحته ودخلت، إنسـل خلفهـا، وفهم معنى شطـط الطـريق، هنـاك تعديل طفيف قد طرأ، وأن النازفة نقلت إلى القنوات.

لاحت ساحـة الـدار وقـد لفتها الظلال وكأنها تلك الساحة التي قادته إليها من قبل، صعدت إلى الفوقاني، توجهت إلى حجرة جانبية، دفعت بابها، وغمره ضوء قوي، وتحت الأنوار الساطعة... لم يكن هناك شيء واضح.

كان التعديل الطفيف قد تمخض عن تعديل جوهري غير مفهوم... عن رجل يئن متنفساً بصعوبة فوق الفراش، وامرأة أقعت إلى جواره محتضنة كفه بين راحتيها، في الرقعة الصغيرة المتوهجة، بات عليه أن ينكص، تراجع إلى الخلف قليـلاً، لكـن المـرأة التي جاءت به كانت قد سدت البـاب بقامتها، تعثر... فيما الأخـرى نهضت بسـرعـة وأرخت المنـديل على وجهها، وبلمحة خاطفة اختلس نظـرة من المـلامح المتقعة... ذعر... هل تكون هي؟! قاربته مبتهلة، تفرس فيها مدهوشاً ومتردداً أمام تقاطيعها التي لا يمكن أن يخطئها، أحس بضربات قلبه

تصـدع المكـان . . . كانت هي وقـد تخلصت من حبـائـل ليلتهـا ، وخلعت شباك النـزف والحمى ، مرتعشـة ومتـوفـزة ، المـرأة التي تلمس شفـافيتها في الحلم ، وبلا هجـرانهـا في اليقظـة ، المـرأة التي عبثت بحيـاتـه ، وخـبر من بعدٍ وجوهها المتقلبة والمتناوبة ، يغمض عينيه على ملامحها ويفتحهما على تواريها .

يرامقهـا خاشعـاً وهي تتألق نضارة وحسـنـاً ، ينكمش والمكان يزداد اتساعاً وروعة ، اتكأ على الفراش يتفـادى انهيـاره ، ناقلاً نظره بين الرجل الممدد وبينها ، يخشى أن تفـر خارج نطـاق بصـره ، لكن وخثـرات الـدم على القميص الأبيض تستـوقفـه ، تبـادر الى ذهنه أن هناك ما بزغ وما اكتمل في ثوان مبهمة ، ألقى نظرة على وجه الرجل الشاحب ، كان هو . . . يوسف سرحان يقتحم الرقعة المتلألئة ، مغمى عليـه ، يتمم الصـورة ويتصدرها جريحاً ، الرجل الذي أسقطه من حساباته عائداً فوق فراش ، يؤكد وجوده ويتجلى متهماً وواقعاً لا يدحض .

مزق القميص وكشف عن كتفـه . . . هنـا موطن الـرصـاصـة ، وهي على الطـرف المقـابـل ترجـوه ، أحس بالأسى . . . لماذا لا تفهم أنـه لم يعد يفصله عنها سوى جثـة رجـل بلا حراك . . . ومـا تطلبـه منـه ليس عسـيراً وإنـما مستحيـلاً؟ ! إذا كان قد أنقذها في حلكة الظلام فلن يغامر وينقذه في لمعة الضوء ، وضغطة صغيرة على عنقه . . . تخمد أنفاسه الواهية .

تحت أنظـارهـا فتح حقيبته ، وإلى جوار السرير وضعوا الفوط وعلبة الخياطة وطشت المـاء السـاخن ، بلل الفـوطـة بالمـاء ومسـح بها كتفه ، وبسن المقص الحاد والـرفيـع ، أخـرج تلك الـرصـاصـة الملعونة التي أخطأت طريقها إلى قلبه ، كان وعينـاهـا تأمرانه ، وأصابعه تنصاع لهما ، يضمد جرحه ، يائساً ومغلوباً ، وواثقاً أنه يضيع واللحظة تلي اللحظة . . . الفرصة المواتية لقتله .

رفع رأسه وقال لها وهو يكاد يبكي :

ـ ما فعلته يفوق طاقتي .

أغلق حقيبتـه وأخـذ ينظـر إلى غريمـه عن قرب وهـو يحاول أن يداري دمعتـين ، والمـرأتـان تحملان الفوط والطشت إلى الخارج ، تناهى إلى سمعه بكاء

رضيع، استدار وخيل اليه أنه لمح من خلال فتحة الباب أربع نسوة، تظاهر أنه يجفف عرقه، ومسح الدمعتين، ورآهما امرأتين، حمل حقيبته وخرج، لحقته المرأة عند الدهليز ومدت يدها نحوه بخمسة رشادية، تردد في أخذها، ثم دسها في جيبه تذكاراً على أنه خرج من حلمه الأخير بدليل دامغ وبراق..

... وتحت القناطر بكى بصوت عال، فرصة لم يستغلها، ومن خلال عبراته رأى الدنيا تشرع أبوابها، ويلوح أمل يكفكف له دموعه.. ما عجز عن القيام به سيؤديه صولاني بخفة دون أن يكبله مانع.

هبط عليه في فندق داماسكوس بالاس ولم ينتظر أن يوافيه في القرماني، أيقظه، وقبل أن يدعه يتمطى قدم له فنجان قهوة وقصة امتلأت بالثقوب، كانت أشد تنبيها ومرارة من القهوة التي يرشفها، وحاذر الطبيب في روايته التطرق لسلسلة الأحلام التي مهدت لها وشارك فيها صولاني بنصيب وافر.

بدت القصة لصولاني وكأن الطبيب سهر ليلته ينسق ما بين فصولها ويرمم شخصياتها، لكن دون أن يردم ثغراتها، يسوقها هاجس واحد لا يتغير... المرأة التي رآها بأم عينيه كانت من لحم ودم.

تقرع بابه امرأة حقيقية تقوده إلى مخبأ يوسف سرحان، الذي حاول الطبيب قتله في الليلة الماضية... وفي الليلة التي أعقبتها تستدعيه لإنقاذ حياته؟! ولماذا الطبيب حسن حكمة بالذات؟ وفي الوقت الذي فقد فيه أثره؟

هناك يجده مشرفاً على الموت وإلى جواره امرأة... ومن تكون هذه المرأة؟ إنها المرأة التي يتخيلها أكثر من أن يراها، امرأة قربه منها يجعله لا يتورع عن اقتراف أي شيء ليحظى بها.. ما الذي فعله؟ أغلق جرحاً بدلاً من أن يفتح جروحاً، ألا تكذب هذه النهاية من الإنسانية الرفيعة والمريضة، سعار الكراهية التي يؤجج الطبيب دون كلل أو ملل منذ سنوات أو ساعات؟!

وبالرغم من ذلك كان في تسلسل الأحداث، حيوية لا تنقصها المفاجأة، لكن تعوزها سر الصنعة ومهارتها، إذ أن الطبيب حرمها حتى من ذلك القدر الضئيل من الحقيقة، وتفنن في صنع تركيبة خارقة مبنية على مصادفة متشعبة

وتافهة، غير مقنعة، لا تخدم سوى لغوغث، ألا يرمي إلى أن يعوض في القنوات عما خسره في البحصة الجوانية ، ملفقاً يوسف سرحان آخر حتى لا يبخس روايته قيمتها؟!

لم يصارحه بانهيار قصته وإنما تذرع بالكولونيل :

ـ يجب اطلاعه على ما حصل .

أصيب بخيبة أمل كبيرة وقد أحس أن صولاني غير متحمس لهذه التبدلات .

ـ وهل يصدقنا؟

أجابه ببر ود :

ـ أخشى أنه لن يصدق حرفاً واحداً منها .

ظهرت آثار الصدمة عليه ، وتابع صولاني يحدد المشكلة بتجرد .

ـ . . . مداهمة البيت خطورة لا تحمد عقباها ، حي القنوات ليس حياً نائياً ، بالإضافة إلى أن بيوتات الكتلة متواجدة فيه ، والأسر التي تقطنه معروفة ، ولا شك في أن السياسيين سيقتنصون هذه الفرصة ويدعون أن ضباطاً فرنسيين يخلعون الأبواب ويسلبون الأعراض . . . كلا ، من المستحيل أن يتورط الكولونيل في هذا الإجراء دونما دليل قاطع .

هب الطبيب واقفاً ، أخرج من جيبه المخمسة الرشادية ورماها على الطاولة ، لكن صولاني قلب شفتيه ساخراً من رنينها :

ـ يوجد الآلاف منها .

تناولا إفطارهما صامتين ، وأنهى الطبيب طعامه بفكرة مضغها بعصبية :

ـ هل من الضرورة استئذانه؟ نستطيع ابقاء الأمر طي الكتمان .

تلوى صولاني ، لم تكن هذه هي المشكلة ، كانت المشكلة في ان يقلع الطبيب عن ادهاشه كل يوم بقصة تقلب الأمور عاليها سافلها ، تمنعهما من الارتباط معاً باتفاق واضح ، اتفاق لا يخرق تحت أي ظرف من الظروف .

ـ هل أنت متأكد مما رأيته؟

ـ طبعاً.

ـ اذن . .

سكت صولاني ولم يكمل، وعندما طال انتظار الطبيب، حثه:

ـ اذن؟!

أكمل صولاني:

ـ على ان نقتسم الغنيمة مناصفة.

رفع الطبيب حاجبيه مستغرباً دناءة صولاني الفاجر:

ـ هذا مستحيل . . . إنها امرأة.

ثم تابع صارخاً:

ـ لقد أخرجتك من السجن.

ـ أعدني اليه.

تبين من ملامح الطبيب الفزعة انه أوقعه في سوء فهم كامل، سارع يوضح:

ـ انت تأخذ امرأة القنوات، وتترك لي امرأة البحصة الجوانية.

استرد الطبيب روعه، وتابع صولاني:

ـ أما يوسف سرحان فسوف يستخدمه كلانا.

اطمأن وقد ردت المرأة اليه:

ـ ومتى نبدأ؟

ـ عندما تسنح الفرصة.

في ساحة المرجة هتف صولاني في دخيلته . . هل هذه بشائرها؟، وهو يرى الجنود المراكشيين قد احتلوا الساحة ونصبوا أسلحتهم عند مدخل العدلية والبلدية وربطوا خيولهم عند النصب التذكاري، والضباط الفرنسيون داخل عرباتهم.

تقدم بالسيارة بمحاذاة بردى ولمحهم على الضفة الأخرى عند مدخل السرايا وبنك سورية ولبنان، قال الطبيب مستغرباً:

ـ عند الصباح كانت الساحة خالية.

عنـد المستشفى العسكـري ، ظهـر مبنى الأركـان محاطـاً بحراسة شديدة ، أوقف السيـارة جوار نادي الضبـاط الافرنسي وطلب من الطبيب ألا يغادر السيارة قبل عودته ، وتابع طريقه مشياً على الأقدام ، في مبنى الأركان لم يكن الكولونيل في مكتبـه ولم يستطـع أن يهتـدي إلى مكـانـه ، فيما غصت الغرف والممرات بالضباط وصغار العسكريين وهم يصدرون الأوامر ويتلقونها ، وكانت حصيلة ما تناثر من أفواههم .

. . . رئيس الـوزراء لطفي الحفـار قدم استقـالتـه إلى رئيس الجمهـورية ، وكلف المفوض السامي بيو المندوب دي هوتكلوك بتسلم زمام الادارة المشتركة مع الـوزارة المستقيلة ريثما تؤلف الـوزارة الجديدة ، وقد أعطى دي هوتكلوك تعليماته إلى الجيش المـراكشي باحتـلال العـاصمـة والسيطـرة على السـاحات والشوارع والأسـواق بحجـة عجـز قوات الشرطة والدرك عن حفظ الأمِن ، وقبل قليل أصدر أوامره باعتقال مثيري الشغب من رجال الكتلة الوطنية .

علق صولاني على الأحداث وهو يركب السيارة :

ـ ليس لدى الكولونيل الوقت كي يصغي الينا . .

تحير الطبيب :

ـ وما الذي سنفعله؟

ـ سنفعل ما نراه مناسباً .

أراد أن يطمئن عما هو مناسب وهو يراه يدور بالسيارة متجهاً صوب بوابة الصالحية :

ـ هل سنذهب إلى القنوات؟

ـ ليس الآن .

ـ اذن متى ؟

كان صولاني قد رتب خطته مستفيداً من الاجراءات الاحترازية .

ـ في الليل ، خلال فترة منع التجول .

* * *

عنـد المستشفى العسكـري، ظهـر مبنى الأركـان محاطـاً بحراسة شديدة، أوقف السيـارة جوار نادي الضبـاط الافرنسي وطلب من الطبيب ألا يغادر السيارة قبل عودته، وتابع طريقه مشياً على الأقدام، في مبنى الأركان لم يكن الكولونيل في مكتبـه ولم يستطـع أن يهتـدي إلى مكـانـه، فيما غصت الغرف والممرات بالضباط وصغار العسكريين وهم يصدرون الأوامر ويتلقونها، وكانت حصيلة ما تناثر من أفواههم.

. . . رئيس الـوزراء لطفي الحفـار قدم استقـالتـه إلى رئيس الجمهـورية، وكلف المفوض السامي بيو المندوب دي هوتكلوك بتسلم زمام الادارة المشتركة مع الـوزارة المستقيلة ريثما تؤلف الـوزارة الجديدة، وقد أعطى دي هوتكلوك تعليماته إلى الجيش المـراكشي باحتـلال العـاصمـة والسيطـرة على السـاحات والشوارع والأسـواق بحجـة عجـز قوات الشرطة والدرك عن حفظ الأمِن، وقبل قليل أصدر أوامره باعتقال مثيري الشغب من رجال الكتلة الوطنية.

علق صولاني على الأحداث وهو يركب السيارة:

ـ ليس لدى الكولونيل الوقت كي يصغي الينا. .

تحير الطبيب:

ـ وما الذي سنفعله؟

ـ سنفعل ما نراه مناسباً.

أراد أن يطمئن عما هو مناسب وهو يراه يدور بالسيارة متجهاً صوب بوابة الصالحية:

ـ هل سنذهب إلى القنوات؟

ـ ليس الآن.

ـ اذن متى؟

كان صولاني قد رتب خطته مستفيداً من الاجراءات الاحترازية.

ـ في الليل، خلال فترة منع التجول.

* * *

أمضى صولاني نهاراً رائقـاً لم يظفـر بمثله منـذ عهـد طويل بصحبة الطبيب الذي خاط فمه أخيراً واكتفى بملاحقة عقارب ساعته، ومتابعة الاختفاء المتناوب لاشعـة الشمس بين الغيـوم وتـراجع الأنوار والحركات من الشوارع، وهما يتنقلان بين مطعم الامراء وسينما الأمبير وخمارة أبي جورج، صولاني يحتفل بالصفقة التي تمت بقنـاعـة وتعقـل وقـد تفتحت شهيتـه للطعـام والشـراب، فيـما عافتهما نفس الطبيب، ولم يأت الليل حتى تبخر الدليل الذهبي من جيبه.

أثبت صولاني دراية فائقة عندما توغل في القنوات تحت جنح الظلام، أوقف السيـارة جوارالبيت وسـد بها بابـه، لم يكن هنـاك من صوت سوى خريـر مياه الطـوالـع . . . وفي العالي ذبالات من الخيالات تتلامح على صفحات الشبابيك والأخصـاص، ثم برهن عن خفـة يده ومهـارتـه في استعمال القضيب الحديدي، وخـلال بضـع دقـائق نجـح في أن يخلع قفـل الباب، رفع رأسه ونظر إلى الطبيب يشهده على حذاقته.

تسللا بتؤدة، يتحسسـان بأقـدامهـما وأيـديهـما جدران الـدهليز، جذوع الأشجـار، البـلاط، الأوراق اليـابسـة، مرهفين السمع إلى الفوقاني، والسكون الداني يقودهما إلى السكون القاصي، صعدا الدرج على أطراف أصابعهما:

في الدوار. . . همس صولاني حانقاً:

ـ البيت خال.

وضع الطبيب يده على فم صولاني وشده إلى الحجرة الجانبية المغلقة:

ـ هنا.

قبض صولاني على الأكرة بقوة، أدارهـا بعصبيـة وفتح الباب . . . ظهرت المـرايـا تعكس هيـاكـل سوداء تحيـط بها ستـائـر داكنـة، يشكلهـا بضيص نور مصبـاح كاز، ومن الظلمة الهشة برز السرير وجسد متمدد عليه وفوقه لحاف وحرام صوفي، وعلى الوسادة بان الشعر داكناً، نبسها الطبيب منفعلاً:

ـ اقتله.

جاور صولاني السرير، مد يده يريد أن يكشف الغطاء، عاجله الطبيب وقبض على معصمه، وبصوت مبحوح ومتوتر:

ـ اقتله.

قرب صولاني المسدس وصوب فوهته مطرح القلب وأفرغ رصاصاته، ندت عن الجسد أنة ضعيفة ثم انتفض وهمد دون حراك، حبسا أنفاسهما وتعلقت عيونهما على الباب المفتوح، توجسا وحشة في لب الأشياء، أرخى صولاني يده وتلفت حوله، فيما انحنى الطبيب فوق الفراش وانتزع اللحاف... شهق. طالعته مسجاة وصريعة، مفتوحة العينين، وشعرها منسكب على الوسادة، ويلفها ثوب من الديباج، ارتعد صولاني وغمغم مرعوباً:

ـ هذه امرأة!!

جحظت عينا الطبيب وعسر تنفسه... أين يبدأ الحرير وأين ينتهي؟! تهته مفسراً:

ـ ليست مجرد امرأة.

وصرخ بأعلى صوته يستبق موتها ويبعده، ينفيه وينقضه، موت ليس كالموت، جعر متوحداً، توهج الصباح وانطفأ، يؤكد لها... من أجلك فعلتها، يميل عنها... لست المقصودة، وروحها تتهادى، تشغل الفضاء، رائقة وصافية، عذبة وأسيانة، ترمح بين الفسيفساء والموزاييك، متفردة ومنفردة... وما عداها يذوي، يبسط يديه لها... تتجنبه، وعيناها تتلمسان الظلمة إلى عينيه، يلمع فيهما بريق ظفر وحشي، لا تحاسبه وإنما تنبذه، وهمس يتردد في أذنيه... لم تنلها ولم تفهم ما الذي حدث، لغز... الصمت لحمته والفراغ سداه.

اندفع صولاني إلى الداور... لقد بلغ الموت حد الإعجاز... ويكاد أن يسرقها، بحث عن الدرج، عندما أمسك بالدرابزين الخشبي تذكر أنه نسي الطبيب في الغرفة، وعاد يجره من ياقته.

* * *

- ١٥ -

في الصباح اكتشفت سميحة مقتل أمينة .

بدا ودمهـا لم يجف بعـد ، وروحهـا المذعورة لم تجد مستقراً لها . . وكأن هناك ثمناً عاجلاً ، باهظاً ومؤلماً ، قد استوفي دون إمهال لقاء حياة يوسف .

كانت الخـانم هي التي دلت من فرجـة البـاب على الطبيب هويعتـدل بقـامته ماسحاً يديه بالفوطة ، وقالت :

ـ هذا الرجل مخبر .

الخانم تلك المرأة الغامضة التي انتزعته من براثن مطارديه وحملته جريحاً إلى بيتها في القنوات وشغلت مكانها في البحصة الجوانية ، عادت لتنجو به ثانية .

ـ عصـر البـارحـة ، داهم ضابط برتبة كابتن وعشرة من جنود السنغال بيت البحصة يرافقهم الطبيب .

وقبـل أن يحل المسـاء ، نقلت سميحـة يوسف إلى منـزل كريم الحجـار في سوقسـاروجـة ، ولم تتمكن من الـرجـوع إلى القنـوات إذ كانت ساعـات منـع التجـول قد بدأت ، واضطـرت أن تقضي الليـل ساهـرة إلى جانب يوسف ، وقـد أبعدتها عن أمينـة الحـارات والأزقـة وعسكـر يذرعون الشوارع ، وقربتها إليها خواطر سيئة عن عقـابيـل هفـوات قسرية ترقى إلى مرتبة الأقدار الغاشمة ، . . . يا إلهي لماذا تدور كل هذه الأحداث في الليل؟ !

أمام القفل المخلوع، تمتمت. . . أي هوان هذا؟! تماسكت وهي تستسلم للمصيبة ونادت أمينة بصوت مرتجف ومقهور. . لم يجبها أحد. أيقنت وهي تهرع اليها أنها خسرت سباقها.

الباب مشرع، وأمينة مستلقية على ظهرها، وجهها صوب الداور وعيناها مفتوحتان، وكأنها تستطلع صورة القادم بعد أن سمعت وقع أقدامه، اقتربت منها. . . تبينت دائرة الدم التي رسمت على صدرها، صرخت تؤكد ظنونها وتدحض ما تراه، لم تلتفت أمينة إليها. . . كانت تنظر إلى شيء محدد لم يعد داخل الغرفة وإنما بات خارجها، لطمت خديها وسقطت عند قدميها منتحبة، لم تع كم لبثت لصق ركبتيها ترجوها أن تتخلص من وثاق الدم وتنهض. . . لكن السكون الصارم جعلها تدرك أن قلبها الممزق بالرصاص قد أفلت روحها منذ حين.

تتالت المناظر المؤلمة موسقة بترجيع حزين، والمرأة الحيّية تظهر فيها وخلفها حياة لم تذق في أيامها البهيجة طعم الهناء، عرفت من الحب لوعته ومن الزواج هجرانه، ولم تسمح لها أمومتها القصيرة والمبتسرة أن تسمع كلمة «ماما» حروفاً متعثرة من ثغر وليدها، أمينة العروس وقد فاتتها الصبحية والصرة وحق الشعر، أمينة الزوجة وهي تزيح طرف الستارة من وراء الشباك، ترقب الزقاق، وتنتظر عودة يوسف:

سوسحني هوى الشباك   أخذ عقلي هوى الشباك

أمينة الأم تحتضن طفلها، تلقمه ثديها، وتهز المهد بحنو وترنم.

نام يا ابني نام   لا دبح لك طير الحمام

يا طير الحمام لا تخاف   عم اكذب على ابني حتى ينام

. . . ويوسف يغالب الحمى، يلمح في هذيانها اللسعة المميتة تكاد تودي به، والنار تضرب من حوله نطاقاً من شواظ ولهب، من صهد الوجع صرخ. . . أمينة، وأزت الرصاصات القاتلة في أذنيه قبل أن تصل قلبها. لم يصرخ ثانية، أيقن أنه فقدها، وغاص في عرقه البارد.

يضم شمـــل الصـــور المبعثـــرة. . . أســوار من الأشخـاص والمظـاهـرات والـوزارات في شوارع محصنـة وحـارات تؤدي إلى لا مكـان، أبنيـة وأزياء، ركام وأنقاض، تعاوده الحمى، تنقض عليه ويستسلم لها.

ومن القاع يسمع صوت سميحة تحكي له عن أجمل موت في الدنيا.

ـ ملامحها لم تعكرها صفرة وفي عينيها نظرة رؤوم.

تمسك سميحة بيده، يقول لها:

ـ دعيني.

تبعد عنه رغوة الموت، ويقول لها:

ـ موتها يميتني.

ينتظم الأشخـاص. . . عبد الله سرحـان، ست الشـام وسميحة، كريم الحجار وصبحي طاهر، كلهم يلومونه:

ـ ما الذي تفعله؟!

يجيبهم صاغراً:

ـ حكم جائر والمنية عمياء.

يعترضه ابوه:

ـ المنية مبصرة.

يفتـح عينيـه. . . البشـر يتجلى على وجـه سميحـة، وست الشـام تعانق الرضيع ودمعة فرح تسيل على خدها.

عنـد الظهـر شيع جثمان امرأة في ريعان شبابها قيل إنها تدعى ست الشام، اغتيلت خلال فترة منـع التجـول، ومشى وراء نعشهـا خلق كثـيرون، موظفـون وطلاب، تجار وباعة، وعمال من الأسواق المجاورة، وانضم إليهـم أهالي الحارة وفي مقدمتهم كريم الحجار وصبحي طاهر يكبرون ويهللون: . . لا اله الا الله.

ودفنت أمينة في مقبرة الدحداح بأثواب ست الشام.

* * *

اعتقد صولاني أن وجوم الطبيب حالة عناد طارئة لن تستمر، ولن يطول به

الـوقت حتى يعـود إلى سجيتـه، ويتذكر أنهما شريكان في جريمة قتل ويدعوه إلى جريمـة أخـرى، سار متمهـلاً على غير هدى، لا يقصد مكاناً معيناً إلا أن يروح عن نفسه، مهملاً الطبيب الذي يتبعه كظله ويحاول الالتصاق بمرفقه محتميـاً بـه، في مطعم الـرشيـد لم يلق بالاً اليـه وقـد سدر في صمتـه وأفكـاره، وحرد عن تناول نصيبه من لحم الكباب.

أنهى صولاني طعـامـه، تجشأ ثم استنـد بساعده إلى الطاولة وأخذ يسحب أنفـاسـاً متلاحقة من النارجيلة، واسترسل خاملاً في حديث بلا معنى عن الشواء والـذبـاب واللحم والقطـط، الى ان عثـر على حديثـه المفضـل، تابـع منشـرحاً يستعرض دون تمهيد عدداً من المتع المثيرة التي تحفل بها دمشق ليلاً على الرغم من منـع التجـول. . . بيوت خاصة للترفيه عن النفس، موسيقا وغناء ورقص، كيف وصحبـة لطيفـة، نوادر بذيئـة وأجسـاد ممتلئـة، بانسيـونـات تعج بنساء شقراوات ضامـرات، ومستشفيـات تغص بممرضات يشكون من مرضى معقمين ويشتهين رجالاً أصحاء ملوثين.

لاحـظ متعجبـاً أن الطبيب قد نأى بنفسـه عن جاذبية تلك المسرات وحشر روحـه في عالم آخـر ينـوح فيه دون أن يفرج عن آهة واحدة. غادر المطعم غاضباً، والطبيب يجاري خطـواتـه متمسحـاً به، أوصله إلى القـرمـاني، عنـد الباب وأمام الـوجـه المنسلب أدرك مدى تعـاسـة صديقـه. . . لقـد أسقط من حسابه فجيعته العاطفية، وأن الصداقة تملي عليه أن يعزيه عن مصابه الأليم، تبعه إلى الداخل، أجلسـه على الأريكـة ثم جلس على كرسي مواجهتـه، وطرق الموضوع مباشرة. متجـاوزاً تلك الشكليـات المتعـارف عليهـا عن القضـاء والقـدر، والخطأ غير المقصـود، وألقى عليـه درسـاً في الحيـاة والأمـل. مضمـونه. . أنه ما زال في العمر متسع للنسـيان والحب، والـدنيـا تمتلىء بالنسـاء، ولن يعـدم أن يصـادق نسـوة جميلات وساحرات أشد فتنة وإغراء منها، ملخصاً تجربته الشخصية وحكمته المأثورة:

- يجب أن تعي يا صديقي أن الرجل لا تكفيه امرأة واحدة، لقد خلقه الله شمام ورد.

وتجاسر ملمحاً إلى أن من حسن طالعه أن انتهت حكايته بهذه السرعة، إذ لم يتخلص من المرأة فقط بل ونجا منها أيضاً.

خرج وتركه يفكر، موقناً أن خواء البطن يفسد عمل العقل، اشترى زيتوناً وجبنة ولبناً مصفى من الأحمدية ورغيفين من الخبز التنوري الساخن من فرن سوق العتيق ثم حضر إبريقاً من الشاي، واثقاً أن الرائحة الزكية للخبز الناضج سوف تدفع يده إلى الرغيف واقتطاع لقمة منه، ثم يفتح فمه. . . ويحصل ما يخشاه، ولن يغلقه بعد ذلك، وأعد للأمر عدته، سيعتذر متذرعاً بحاجته الماسة إلى النوم، لكن الطبيب كذب توقعاته الأكيدة وامتنع عن استعمال أنفه، ولم يمد يده إلى الخبز الشهي.

استلقى على الفراش متعباً، يرقب الطبيب وهو يتسكع متزلفاً في عالم الأشباح الدامي يتوسلهم وهم يرفضون تبريراته، منتظراً، عودته إلى عالم الأحياء الدنس.

بعد فترة من الوقت، ظن أن غفوة قد أخذته لدقائق، لكن وأشعة الشمس تتسلق الجدران، لم تكن غفوة وإنما ليلة كاملة نام فيها نوماً عميقاً. . . وكان الطبيب كما تركه تماماً، ما زال جالساً على الأريكة وأمامه الجبنة والزيتون والخبز واللبن، لم يمسها، يحدق في أرض الغرفة في تلك الزاوية التي تراكم فيها الغبار، مضرباً عن الطعام والنوم، ولولا تنفسه لاعتقد أنه تحول خلال الليل إلى تمثال سخيف من حجر وبلادة.

تبادر إلى ذهنه أن حادثة القنوات قد كافأته بصمت الطبيب المطبق، وأن تبكيت الضمير والشعور بالذنب لن يحلا عقدة لسانه بين يوم وليلة، لكن هل يعقل أن يكون لصمت الطبيب معنى مغرضاً؟! وهو يتنصل بخرسه عما التزم به؟! بعد أن سدد ما عليه في القنوات، وهل يساعده في الحصول على امرأة البحصة

الجوانية؟ هناك حساب عليهما تصفيته، وبات من الضروري أن يتخذ حديثه الآن منحى آخر، ويتدخل بحسن نية ملحاً على تبرئته.

ـ إن ذنبــك هو التسـرع وليس القتـل، التعميـة كانت مفتعلة ومقصـودة، بصيص المصبـاح، والستـائـر المسـدلة والأثاث القاتم، ثم لا تنس اللحاف الذي غطى وجههـا، كل هذا يوقـع المسؤولية على كاهل القتيلة التي حلت محل يوسف سرحان عن عمد.

تراءى له أنـه قد بدأ يلين، مصعـراً خده نحـوه، ينتظـر انهـاء حديثـه حتى يتكلم، فرغ صولاني وقــرب وجهــه نحـوه كي يلتقـط كلماتـه الأولى، ما حدث كان... إن الطبيب استمر منصتاً إلى حديث انتهى.

ارتد صولاني حانقاً... لم تعد المشكلة في أن الطبيب يصغي أو لا يصغي بل في أنـه لا يستـوعب حرفـاً مما يقـال له، وعليه أن يضرب صفحاً عن حماقة غير مفهـومـة ويجـرب مرة أخـرى وبـوسيلة اخـرى ان يفتح له فمه، تناول حبة زيتون وحاول أن يلقمه إياها... عندئذ فتح فمه لا ليتناول الزيتونة وإنما ليقول:

ـ كانوا أربع نساء.

ظنّ وقد عاد الطبيب مغلقاً فمه دون أن يتناول الزيتونة، أنه تخيل سماع ما قالـه على حين غرة، لم يظهـر دهشتـه وإنـما أراد التأكد فيما اذا همس بكلمة فعلاً، واستوضحه عن النساء الأربعة، لكن الطبيب تابع تخشبه بتعنت.

بدا وكأن الطبيب يناكده، أدار له ظهره وتناول الإفطار دون أن يدعوه إليه، ثم أخذ يرشف الشاي بصوت مسموع، أدرك والسكون يهتز أن هناك أمراً قد سها عنـه، استـدار نحـوه وتأمله طويـلاً، اكتشف أن الطبيب لم يلق عليـه نظـرة منـذ البارحة، راعه الاكتشاف، هل يعقل أن الطبيب لا يحس بوجوده إلى جواره؟!

في تلك االحظـة أحس بالاختنـاق... وأنـه بحـاجـة إلى هواء لا يقاسمه الطبيب في تنشقـه، تنـاول معطفـه وانطلق بعصبية إلى الأزقة، يتخلص من مسر الصمت في مهـرجـان الضجيـج... ليجـد نفسـه في البحصـة الجـوانية، وتخيل الحورية وسط الجنة الصغيرة وهي تعلو بصوتها فوق الأحياء والجمادات، والنباتات

والأشيـاء، وإزاء البـاب كانت الجرأة والحيلة تنقصانه ليرفع «السقاطة» ويهوي بها على البـاب، نكص على عقبيـه، خطـر له خاطـر. . . أن يذهب إلى القنوات، رفض الفكرة. . . لم يكن الأمر يعنيه، تابع المشي إلى شارع فؤاد الأول. . . تنبه إلى أنـه يعيـد تسلسـل المطـاردة بمروره من زقاق البحصة البرانية على الرغم من تفاديـه المرحلة الأخيرة منها ولم يعبر جامع الطاووسية، تردد أمام مقهى البرازيل، ثم قطـع الشـارع إلى الـرصيف المقـابـل، استلفتت نظـره الجـرائـد المعلقة على الجــدار. . . كانت الأخبـار بلا معنى. . . الاستـاذ برمـده اعتـذر عن تشكيـل الوزارة. . أية وزارة؟!

مر أمـام محل «غـراوي» وتـوقف عنـد واجهـة «المخـزن الهندي الشرقي»، يتفـرج على المعـروضـات، بدا خيـالـه وهو يواجهه على الزجاج بين تحف العاج والصيني والكـريستـال ـ ذو هيئـة هشة، رجل قابل للكسر، أمعن النظر باحثاً عن ملامحـه التي تغيم وتتـلامـح باهتـة وأدرك مدى الخطـر الذي يحيق به. . . الطبيب يسعى جاهـداً كي يغيبـه معـه في الصمت، كاد أن يفقـد توازنه، تحسس أعضاءه بخشونة. . . عليه أن يبتعد عن الطبيب.

ركب الترام إلى برج الروس، وفي قصر البللور تناول الغذاء وشرب بطحة عرق، وعاد إلى القرماني رائق المزاج، وواجه الطبيب دون مخاوف وسأله سؤالاً واحداً:

هل تريد أن تأكل؟

ولم ينتظـر أن يسمع جواباً من الصمت، نظف الطاولة من بقايا الطعام، ثم رجع إلى الشوارع، مكملاً أمسيته في الشانوار.

دار الحـديث في الشـانـوار حول هتلر، وفهم من الجالسين أن هتلر لن يغزو بولـونيـا، شرب زجـاجتي بيره وفهم أن هتلر ينـوي الحـرب، شرب بطحـة عرق وأصبح هتلر متردداً، عاد مترنحاً، ارتمى على الفراش دون أن يشعل ضوء الغرفة ويلقي نظرة إلى الطبيب، واثقاً وهو يعالجه بالإهمال أنه سيستيقظ صباحاً ويجده قد عاد إلى سيرته بعد أن ملّ الشرود وعضه الجوع.

عند الصباح كان المنظر مخيباً . . . الطبيب قد تجمد تماماً، وانطلق بعيداً، ناحل الوجه جاحظ العينين، قد غار خداه وبرزت عروق يديه، يجف تدريجياً وقد تهدلت ملابسه فوق أعضائه، ولم ينل منه الجوع أو العطش في رحلاته القصية.

أيقن دون أن تخالطه نأمة شك واحدة أنه يعاقب نفسه عقاباً شديداً وبليغاً يغني عن الكلام والدموع، متقدماً نحو الموت بخطى حثيثة وواثقة، وبدا صمته مثيراً لأول مرة، جريئاً وحافلاً بالمعاني الحزينة والألغاز العويصة. . . هل يكفر الطبيب عن خطئه بالموت؟! وهل تبلغ به العزيمة أن يدع الحياة دونما أسف أو حسرة وتشده نحو الموت امرأة لفظت أنفاسها؟!

ما زال الطبيب يفاجئه حتى في اللحظات الأخيرة من حياته، والمتعة التي يوفرها له نادرة ومثالية، أن يرقب شخصاً يموت دون جراح ظاهرة أو علل جسدية مزمنة.

لكن متعته لم تدم . . . لمح ظل ابتسامة على وجهه سرعان ما اختفت، قفز من مكانه، وأمام ملامح الطبيب الرصينة . . . تحير، هل ما رآه قبل لحظات خيال أم حقيقة؟! اذا كانت ابتسامته حقيقية فالطبيب يخدعه ويشغله عن حزم أمره، وهناك ما يجب فعله في البحصة الجوانية، أمسك بذراعيه وهزه بقوة، ولاح الطبيب كمسمار دق على الأريكة، ضامر الأطراف قد التصق جلده بعظامه، عندئذ توضحت مكيدة أخرى، لقد خرجت روح الطبيب من جسده وهو يتحايل محاولاً أن يطيل أمد بقائه في الحياة، في حين لم يبق له في العيش سوى ذلك التهاوت الروتيني لأعضائه، أدرك أن عليه أن يرمي بالطبيب جانباً ويبلغ الكولونيل في أن الطبيب إذا لم يكن مقدماً على الموت فهو مقبل على التسوس.

في بناء الأركان كان الجو مغايراً ومزعجاً، وقد سيطرت عليه مسحة زائدة ومبالغ فيها من النشاط، الكولونيل منفعل محمر الوجه يوزع الأوامر بواسطة الهاتف والمعاونين وصولاني منتصب باستعداد ينتظر دوره، طال وقوفه، وعلى الرغم من أن الكولونيل لمحه فقد كان منشغلاً ولم يدعه للجلوس، ثم نسيه ولم يتذكره إلا

عندما خلت الغرفة من الضباط، طلب منه ان يستريح وتابع كلامه وكأنه يطلع نفسه على خلاصة هذه الاتصالات ونتائجها.

ـ الأوضاع هادئة، وسوف نطلق سراح المعتقلين في غضون اليومين القادمين.

ارتخى في مقعده، وأخذ يتحدث بإسهاب عن فوائد الإدارة المشتركة الفرنسية ـ السورية.

ـ لقد نعمت دمشق بهدوء نادر، المحلات فتحت أبوابها والناس عادت تمارس أعمالها . . . ولم يعد هناك مظاهرات تهدد الأمن، واختفى من الشوارع صبيان الكتلة والطلاب الذين يغيرون على الأسواق ويغلقونها بأحجارهم وعصيهم . . . هذا ما كان يجب القيام به منذ زمن بعيد، إن مهمتنا الآن هي دعم تشكيل وزارة حيادية تدع السياسة وتتفرغ للإصلاحات الإدارية وتسيير معاملات الناس، وعلى الرغم من أن رجالات الكتلة يرفضون المشاركة في الحكم، فنحن نرمي أيضاً إلى إبعادهم عن الوزارة، لكنهم يعرقلون مساعي رئيس الجمهورية خفية ويقاطعون جهراً أي رئيس وزراء يقترحه، أما الشهبندر فلن يكون له دور فعال وربما شارك بوزير واحد، والعصبة أيضاً لا مكان لها في الوزارة القادمة، إن سياسة الشدة ناجعة تماماً في بلد تسوده الفوضى، وتقودها أحزاب وأشخاص تحكمهم شهوة مفرطة للسلطة، إن ما يجري الآن هو لمصلحة السوريين.

خلص صولاني إلى أن الموقف لم يعد ملائماً لانقاذ الطبيب أو دفنه، وآمن في أن للصمت حكمة يجربها الآن، والكولونيل يشعل سيجاراً . . يرفع رأسه ويسأله، لم يسمع كلمات الكولونيل وهو ينفث الدخان في وجهه، كان واضحاً أن الجو لم يكن مواتياً لسرد خيباته بعد أن استعرض الكولونيل قدراته، لكنه كان مرغماً على الكلام، هز رأسه ووافقه على أفكاره الحازمة، ثم انتهز فاصلاً صغيراً ودس كلماته:

ـ نحن لم نعثر على أثر لسرحان.

التقط الكولونيل الكلمة الأخيرة وفسرها متسائلاً وممتعضاً:

ـ يوسف سرحان؟

لم يستطـع صولاني أن يتجـاهل ردة فعل الكولونيل وقد أصابته بغم خانق، ثم وهو يستنكر بحدة:

ـ لم تجده حتى الآن؟!

ـ سوف نجده.

ـ إلى متى سيطـول موضـوعـه؟! يجب أن ننتهي منـه في هذه الفـوضى، التخلص منه الآن يسير، أما بعد ذلك فمن يدري في أية ظروف سوف نلاحقه.

برر صولاني:

ـ لقد اختفى.

لكن التبرير لم يكن كافياً.

ـ وأين يستطيع الاختباء؟!

ـ في الميـدان، في الشـاغـور... سوقسـاروجـة... المهـاجـرين... العمارة... من المستحيل ان نجزم بوجوده في مكان محدد.

ـ وما الذي ستفعلانه؟

وجـد صولاني وقـد برد الموقف أن بامكانه إعلان قصة الطبيب، ويشرح له لماذا لم يعودا اثنين، بادر بعبارات موجزة سريعة ومتعثرة يلمح إلى أن الطبيب بعد أخفـاقـه في مسعـاه أصيب بنكسـة غامضـة ولم يعـد يحسن التصرف... اوعلى الأصح لا يستطيع التصرف... إنه مريض وربما...

أعفاه الكولونيل من مشقة التعبير:

ـ الطبيب لا يعـول عليـه، عليـك أن تبحث عن سرحـان وحـدك دون الاستعانة به، نحن لا نستطيع انتظار الطبيب حتى يشفى.

ـ ربما لن يشفى.

تابع الكولونيل دون أن يتوقف عند الجملة التي رمى بها صولاني:

ـ سأصـدر أمـراً بنقلك من كتيبتـك في حمانـا إلى الأركان لتبقى تحت إمرتي وعلى اتصال مستمر بي، سوف أعهد اليك بمهمات خاصة.

ألجمته الفرحة . . . أن يتواجد في دمشق على مقربة منها في البحصة الجوانية، وان يكون ضابطاً مقرباً من الكولونيل، كان هذا أكثر مما يأمل به أو يتمناه، لم يدر كيف يشكره، غمغم مسروراً:

ـ لقد أوليتني ثقة كبيرة.

وأكد له أنه لا يكتمه سراً إذا قال له بأنه يحمل ضغينة شخصية ليوسف سرحان.. ضغينة تجعله يكرس جهوده كلها للقضاء عليه.

ضجر من مبالغة صولاني، ووقف ينهي ما بدا له بذرة من النفاق تنمو نمواً متحذلقاً، تقدم نحوه وربت على كتفه فيما اتخذ صولاني طريقه صوب الخارج، عند الباب تذكر الطبيب استدار إليه وسأله:

ـ وما الذي سأفعله بالطبيب؟

ـ لن تفعل به شيئاً.

وتذكر بالتالي أن الكولونيل لم يكّون أية فكرة عن مشكلة الطبيب.

ـ إنه لم يقرب الطعام والشراب منذ يومين.

انتظر قليلاً والكولونيل ينظر إليه باستغراب ثم أردف:

ـ ولم يذق طعم النوم أيضاً.

لم يعثر الكولونيل على أية علاقة بينه وبين شهية الطبيب وأرقه، أكمل صولاني موضحاً:

ـ إنه يموت ببطء دون أن يدري خطورة حالته.

فكر الكولونيل طويلاً ثم قال:

ـ دعه يموت.

* * *

لم يعد صولاني إلى الطبيب، وكما ارتأى الكولونيل فضل أن يتركه طعماً للصمت والموت، وتفادى المنظر الثابت لذلك التهاوت الممل والمائع، والتحق

بفـريـدة وهي تتثنى على جنبـات المسـرح والألحان، وتصدّر اللوج في تياتروزهرة دمشق، منفرداً بها ومزهواً بوحدته، رفع نخبها، عاتبته بلحاظها ولم تمس الكأس، أجابها بالهمس. . . كيد العوازل، صالحها بزجاجة شمبانيا، شدَتْ رافعة له كأسها.

روحـي في ايـديـك وهبتهـا لك بـس الأمـان

في اللحظـة التي تأبـط ذراعهـا ودفعهـا إلى العـربـة مبعـداً عنها الشرطيين والمعجبـين السكـارى، كان يوسف سرحـان قد تسلل إلى غرفـة الطبيب، ووقف إلى جواره يطل عليه من عل، وبالكاد استطاع أن يتبين لهذا الكوم رأساً، أمسكه من شعره وشده إلى الخلف، وباليد الأخرى الصق نصل السكين البارد بعنقه.

. . . الأمـر الـذي فات يوسـف هو أن الطـبيب كان قد نفض عنـه عالم المفـاجـآت، وأوصد على نفسه الباب في عالم رتبه دون مآزق، وحقق تفاهما كاملاً ومتبـادلاً مع المكـان والـذاكـرة، مكتشفاً أن الجثة لم تكن جثتها، وأن المرأة التي لا تموت، تتكىء الآن بمرفقها إلى ركبته، تؤنسه بأنفاسها في عزلته وصحوته الكبرى.

شدد يوسف عليـه الخنـاق، يطلب تفسـيراً يفضح كل تلك المعميات. . . المطاردة الليلية المجنونة ومقتل أ مينة الجائر.

لم تكن هناك مشكلة أوعقبة في ظن الطبيب، ولو استطاع الكلام، لكانت هناك قصة أخرى ويوسف سرحان قتيلها.

كان وقـد طالت لحيتـه واصفـر وجهـه، سعيـداً ومتهلل الأسارير، لا يعني بالنظـر إلى الـوجـه الـذي يكـاد يلامس وجهه، مستنكفاً عن الإجابة ورافضاً أي خاطر، كيف يجيب على تساؤلات شخص ميت في عالم لا يتسع إلا لاثنين من الأحياء؟!

. . . وحتى تلك الصفعة التي دوت في هدأة الليل. . . كانت رنيناً مكتوماً وجد لأصدائها ركناً شفافاً داخل تكويناته الرقيقة.

وبقي القـاتـل المجهـول ومهمـة الكـابتن والجنـود السنغـال، أسئلة. . .

إجاباتها منطوية في نظرة ساهمة، لم يدفع يوسف سكينه في عنق الطبيب، كان أمامه رجل آخر، رجل لم يعد يمت بصلة لكل ما جرى.

في غرفته بالفندق، كان صولاني يرمق بمكر من خلال المرآة الصغيرة المعلقة على الحائط، فريدة وهي تخلع ملابسها، أحكم إسدال الستائر، يمنع صبحاً قارب أن يطلع من ليل أراده طويلاً وصاخباً، متأكداً من أن التوفيق الذي خانه مع الطبيب سيحالفه مع فريدة في الفراش. طلبت منه اطفاء النور... وفي العتمة خلعت آخر قطعتين من ملابسها الداخلية وأفرجت عن مفاتنها دفعة واحدة، نفرت أعضاؤها ريانة، سمينة ولينة، احتواها وسبح بين كتل اللحم الرجراجة، ومن فرط طراوتها استمتع بالنشوتين، كانت الذروة التي بلغها فوقها، قد هبطت به عندما انقلب عنها إلى ذروة أخرى، تغوص في هوة عميقة تضاهيها في الرعشة وتوازيها في الشدة، اسقطته دونها فاصل في نوم رخي وغدّار وسلسلة من الأحلام المتتالية، المنسابة بنعومة، شحيحة بالأحداث وفقيرة بالأشخاص الذين أضجروه طوال الأسبوعين الفائتين،... مساحات شاسعة وبيضاء تتوسطها امرأة بملاءة سوداء.

كان من الممكن أن يبقى أياماً على هذه الحال، يتمرغ بيمٍّ المتع المجهولة المنشأ والمغزى لكن وعند الظهر أحس أن هناك من هزه وأيقظه، لم تكن فريدة... كانت فريدة قد غادرته تاركة على الفراش أريج عطر فاغم ودبوسين من شعرها.

حلق ذقنه ودلكها بالكولونيا ثم انطلق إلى البحصة الجوانية، قرع الباب بالسقاطة وانتظر، رن الجرس وانتظر، وعندما اختبر مصراع الباب انفتح من تلقاء ذاته وأبصر القفل المخلوع... تذكر أنه خلع قفلين، هذا واحد منهما.

لم يناد أحداً... كان الخواء المزمجر في فضاء الليوان والقاعة وعبر الأدراج، جواباً بارداً ومفحماً. اندفع الرجل الحليق الوجه يلوب بين غرف النوم والطعام والجلوس، لا يسمع سوى صوت مسامير حذائه العسكري تنقر البلاط وتغيب فوق السجاد، مواجهاً بالفوضى والإهمال وأسراب النمل والهوام، الطين المتشقق والغبار، الزجاج الكابي والتعاسة الملتصقة على السكون.

تخيـل أن بادرة طيبـة سوف تبـدد سوء الفهم الـذي شارك فيـه. جاء بنجار ومصلح أقفال، أصلحا الباب وركبا قفلاً جديداً، أودع واحداً من المفاتيح الثلاثة في جيبه، ووضع اثنين فوق وسادتها، وانسحب تاركاً الباب موارباً

* * *

- ١٦ -

كان وهـو يتـماثـل للشفـاء في نقـاهـة الـوحـدة الشاقة، بين مخالب الأسئلة وغمـوض القـاتـل وجنـون المخـبر، هناك جرح في الجسد يلتئم وجراح في الروح تنغـر. في الغـرفـة المـلاصقـة تقبع سميحة، تخلو إلى همومها في الليـل، وتقضي النهـار مع أم كريم وحـولهـا اشبـاه التقـاطيـع الحـرون لبيت البحصـة وقـد استقـامت من حجـر وطين، من خشب وزجاج، تتسق نتواءتها وتعرجاتها، صفاؤ ها وملاستها، باقـات من الألـوان والذكريات، ومن السطح تلتقط بعينيها داليتي العنب البلدي والحلواني على «مشـرقـة» بيت البحصة، وسلسلة بيوت القنوات . . . هناك حيث أودعـا الطفـل لدى ست الشـام، وعنـد الضحى يجتمـع شملهـما لحظات قصاراً طافحـة بالحنـان والا نكسـار، تعـود إلى غرفتها، ويبقى يوسف بين الجدران ينتظر مجيء كريم وصبحي والأخبار.

- قل لمسيـو يوسف أن يبقى متـوارياً عن الأنظار، إن الكولونيل ما زال جاداً في طلبه.

وعقبت مستغربة:

- يزعم أن يوسف عدو لفرنسة.

كذبت مدام كورينـا زعم الكولونيل وعللت ما جرى لكريم الحجار بأن هناك نفوراً نشأ بينهما في تلك الجلسة اللطيفة.

ـ كانت غلطتي عندما جمعت بينهما.

لم يحسم تحذير مدام كورينا ظنون يوسف ولم يستطع الجزم فيما إذا كان مطلوباً بسبب آرائه التي أبداها لكولونيل فرنسي متنور، أم بناء على وشاية كاذبة من طبيب معتوه.

. . . ومطر نيسان يوقع في ظلام الحارة لحناً متناقضاً ومتباعداً، ويخط آثار متعرجة على زجاج النافذتين المطلتين على الزقاق، يجعل القلب يتفتح ويأسى، تساءل في سره مصمماً. . . أين أجد الكابتن؟

حال كريم بينه وبين أفكاره:

ـ رئيس الجهمهورية كلف نصوحي البخاري بتشكيل الوزارة الجديدة.

هل هذا بشير أمل أم نذير نهاية؟ ومتى؟ في الوقت الذي لم يعد هناك من مخرج للأزمة الوزارية، والجميع يعتذرون عن المشاركة في الحكم بحجة أن أحداً لن يستطيع إرضاء الأحزاب أو التفاهم مع رجال الانتداب.

تدخل صبحي طاهر:

ـ لن يتعاون أحد مع البخاري والوزارة لن تتشكل.

بينما تحمس كريم:

المهم الآن التخلص من مخاطر الادارة المشتركة، الفرنسيون يتدخلون في الحكم، وإذا ما استمر الوضع على ما هو عليه فسوف نخسر ما كسبناه من دستور وهيئات تشريعية وتنفيذية، وتصبح الإدارة المشتركة إدارة فرنسية، يجب أن نسعى جاهدين كي نقيم حاجزاً من الأجهزة السورية لا نسمح لهم بتجاوزه.

وتنازل كريم عن حلمه الكبير في نجاح رجال الكتلة في توحيد صفوفهم وضم المعارضة تحت لوائهم وقيادة البلاد مرة ثانية.

ـ في هذه المرحلة لا بد من رجل حيادي كنصوحي البخاري، غير منتم لأي حزب من الأحزاب، تقتصر مهمته على تسيير شؤون البلاد بحزم ونزاهة والتأكيد في الوقت نفسه على المعاهدة.

صبحي طاهر كان متأكداً من فشل التجربة:

ـ لن تقبل الكتلة أن ينجح البخاري فيما أخفقت فيه . . . أن تتحقق آمال البلاد على أيد معارضيها!!! إنها كارثة محققة للكتلة .

* * *

لم يقبل نصوحي البخاي بتأليف الوزارة إلا بعد أن قطع المفوض السامي عهداً بأن يصدر بياناً يؤكد فيه حرص فرنسا على تصديق المعاهدة، عندئذ أعلن رئيس الوزراء أسماء أعضاء حكومته التي ضمت ثلاثة وزراء مستقلين ووزيراً من جماعة الشهبندر، لكن بيو غادر بيروت إلى باريز في اليوم التالي دون إصدار بيانه الموعود، مجمداً الوزارة قبل أن تمارس عملها، وبات نصوحي البخاري لا يستطيع تقديم بيانه الوزاري للحصول على ثقة النواب دون احتوائه على بند صريح يتعلق بمصير ومآل المعاهدة :

علق صبحي ساخرا :

ـ مكيدة فرنسية .

وأسمى يوسف ما حدث . . . مماطلة، وفسرها بكراهية :

ـ المماطلة لعبة الساسة المفضلة .

وعلل كريم، إن بيو لا يستطيع أن يمنح وعداً ملزماً بخصوص المعاهدة دون عرض الأمر على حكومته .

وتساءل يوسف غاضباً :

ـ لماذا ما يزال الحديث يدور حول المعاهدة؟! المعاهدة منتهية في باريز، من يدافع عنها؟ لا أحد . . . الجميع يعارضونها وفي مقدمتهم رؤوساء أركان الجيش وعلى رأسهم الجنرال كاترو، وحتى الأصوات السورية هناك تقاوم المعاهدة نكاية بالكتلة، وإذا اعتقدنا اننا حصلنا على المعاهدة بفضل سياسة حكومة ليون بلوم، فالآن ومسيو دالادييه في الحكم، سوف يحول دون عرضها على البرلمان .

كان من الصعب أن يتكهن عما سوف تتمخض عنه عودة بيو، لكنه

سيحمل دون شك جواب فرنسا النهائي حول مصير المعاهدة، ولن يكون رداً على نصوحي البخاري فقط وإنما تحدياً للأحزاب والهيئات الشعبية.

في تلك الليلة طلب من سميحة أن تسافر إلى معان، تشاغلت عنه ولم تجبه، صمتها لم يكن قبولاً . . . كيف تتركه وحيداً ومغلولاً؟!

فهم خوفها، قال لها:

ـ كيف أحميك وأنا مطارد؟

ـ اذهب معي.

ـ انت تعرفين أنني لن أغادر دمشق، ولن أستطيع فعل شيء قبل الاطمئنان إلى أنك قد أصبحت بعيدة وآمنة.

أمسك بيدها:

ـ يجب أن نستمر في أكثر من مكان.

قالت بعد صمت طويل:

ـ سأسافر إلى معان.

عندما حاول استشارتها عن المكان الملائم للطفل، قاطعته:

ـ دعه مع ست الشام.

ست الشام . . لم تعد تحضره كذكرى في قالب صبية بجديلتين، أوحلم مموه بحبيبة تومىء أكثر مما تبوح، وانما امرأة تتجسد أكثر من الحقيقة . . . عاشقة تحمل طفلاً بين ذراعيها، صلة تتعمق أواصرها.

قال لست الشام والرضيع بينهما:

ـ أمينة كانت ضحيتي.

قالت حزينة:

ـ أمينة لم تكن ضحية، أمينة أقدمت على التضحية، في ذلك اليوم رجوتها أن تلحق بك إلى سوقساروجة، لم تقبل، قالت إنهم سيعودون، عندئذ رأيت ما في قلبها ورأت ما في قلبي دون ضغائن، واتفقنا دون كلام على أمر واحد، تحميك في القنوات وأحميك في البحصة.

في وداع سميحة، لم تذرف دموعاً بل اطلقت تمنيات. . . ستتلاقى كل فترة من الزمن.

وفي المساء كانت الأخبار. . . إن رئيس الجمهورية ونصوحي البخاري بالاتفاق مع رئيس مجلس النواب، قد قر رأيهم على إصدار مرسوم بتأجيل انعقاد المجلس النيابي شهراً واحداً ريثما تتمكن الحكومة من معالجة الموقف السياسي، وفي حال الاتفاق مع الفرنسيين يدعى المجلس لدورة استثنائية، وفي حال الاخفاق تستقيل الحكومة.

* * *

في انتظار بيو. . . اندلعت المظاهرات والاتهامات من جديد، وعادت اجتماعات الطلبة تعقد في الجامعة والمرج الأخضر والتكية السليمانية، وحذر رجال الكتلة من أن رئيس الوزراء في سبيله إلى مقايضة حكم البلاد مقابل تصريح بعرض المعاهدة على البرلمان الفرنسي، أما عصبة العمل القومي فقد اتهمته بمساومة سرية خيوطها تنسج بين دمشق وباريز وأنقرة. . . تصديق المعاهدة لقاء السكوت على ضم لواء اسكندرون لتركيا، ووقفت الهيئة الشهبندرية عاجزة وهي تتلقى نصيبها من المقايضة والمساومة.

في الوقت نفسه، ألمحت السلطات الفرنسية إلى أن هناك تراخياً مقصوداً من الحكومة في قمع المظاهرات، والعاصمة التي سلموها لرئيس الوزراء ناعمة بالاستقرار والأمن باتت تعاني من الشغب والفوضى، ودون سابق إنذار ظهرت سرايا الأقليات في الشوارع، تفرق التجمعات وتتمركز عند المباني الرئيسة في العاصمة، وأشارت الكتلة بأصابع الاتهام إلى الحكومة، مدعية أن رئيس الوزراء أوعز إلى الفرنسيين بالتدخل لإخماد المظاهرات.

بينما احتج نصوحي البخاري بشدة لدى المندوب السامي على تدخل الجيش، مؤكداً أن لا وجود لإدارة مشتركة في ظل الحكومة، وقضايا الأمن هي من صميم مهام الوزارة.

إلى متى هذا الأسر؟ تعتصـره الأحداث وهو على هامشها، مهرقة أعصابه في دوامة من الكذب والمهاترات، المظاهرات العفوية والمدبرة، وجعجعة مخاصمات دون خصومة، ضاق بالحياة الحبيسة والأخبار. هواجس من الوحشة والشوق تهيب به أن ينطلق دونما هدف.

أطـل على الحـارة. . لقـاء جميل عند العصر، نهاية الزقاق المسربلة برخاوة الجـو وطـراوة النسـمات. وجـوه الناس المتعبة والباشة، والنساء بملاءاتهن السوداء يطـرقن برؤ وسهن أرضـاً، وأطفـال يلعبون بالحصى، يمشي ويمشي . . . اللقاء ينعشه والأزقة تطربه، يمشي ويمشي . . . الأصوات تصافح سمعه والحبور يملأ أعطافه، يمشي ويمشي . . . مقترباً من مقبرة الدحداح.

وزع أغصـان الآس على القبـور الثـلاثة وافترش الأرض، زايلته الوحشة بين الأحبـاب، وروت القلب نسـائم الأرواح الحانية، ريا الوصل ورقته، هينمات من حيـاة فسـيحة لا تخبو أفراحها ولا تنضب أسرارها.

يبوح لأمينة:

- أحببتك ذاك الحب المستحيل.

يعاهد أباه:

- لم تتركني ولن أتركك.

يعد أمه:

- لن أهمل بيتنا.

سأل نفسه. . الى أين؟

. . . وهل هناك طريق إلا الى البحصة.

انسـل من فرجـة البـاب، ثم حاول أن يطبق ضلفته ويحكم إغلاقه بالمفتاح، لكن المفتـاح لم يلج في القفـل، استنـد بظهـره الى البـاب ولاح عبر الدهليز المنظر الـذي خشي أن يهجـره حتى في الحلم . . . . عريشـة «المجنونة» بكثافتها المتهدلة على المدخل، شبابيك «الصاليا» مغطاة بخميلة الياسمين العراتلي، صدر الليوان وقد ساحت خطوطه، والحافة اليسرى للبحرة.

انـدفـع يجوس في التحتاني والفوقاني والمشرقة يتملى من كل ما كان بانتظاره ويـرى كما لم ير من قبـل . . . تراصف الحجـر الأسود وتناثر الألوان المدوية، تناسق التيجان الحجرية يعلوها درابزين السطح وشبابيك الداور، استواء الرخام وتطاريز اليـاسمـين، قرب ليس كالقرب، ووصال ليس كالوصال، أحلام مدومة وعيٌّ من المرض، وبينات من العافية خالصة وممزوجة بالحمى والغبار، تجانس من الخصب وتفاوت في المقدرة، موت لم يتم، وعرس لم يحصل . . . وصرخة وليد.

خلع حذاءيـه وشمـر عن ساقيـه، يغـرف من ميـاه البحرة، يشطف الديار والليوان، يسقي الأحواض والأصص، يرش جذوع الأشجار والجدران والعرائش وزجاج النوافذ، يكنس أرض الغرف والداور، يمسح بلاط الفوقاني، وينفض الغبار.

. . . وكان هناك فوق سريرها مفتاح.

جربـه قبـل أن يخرج وجـده ملائـماً، أغلق البـاب خلفه ثم قفله بالمفتاح، ومضى في ليل يهبط ليناً وخفيفاً.

كانت في انتظـاره . . . محيـاهـا وردة تتنشق من الوجد، شعرها مفروق من الوسط ومرسل على كتفيها، ما الذي يكتمل في انتظارها الجميل؟!

بدا وكأن كل شيء قد تحقق . . . اللقاء والحب والأمل، قال لها:

ـ لم يتحقق شيء.

استدار عنها وأكمل:

ـ وكأنها النهاية.

لكن وملامحها مشلوحة على الجدران، وعطورها الخفية تتجسد في الفراغ، وبياضها يلمع من ملابسها السوداء، تتربع في صميم الرؤية والرؤى.

ـ لا تستبق النهاية.

ـ لماذا؟

ـ لن تكون هناك نهاية.

استوقفها متسائلاً:

ـ ما الذي سوف يبقى مني؟
ـ أمينة لم تقتل عبثاً.
ـ هناك حساب علي تصفيته والا لم يكن لموتها معنى.
ـ ما الذي تريد فعله؟
ـ أن أعثر على الكابتن.
ـ تعثر عليه؟ انه يبحث عنك.
ـ أرجو من الله أن لا أقتله أو أموت قبل أن أعرف ما الذي جرى.
ـ التفاصيل.. التفاصيل!! انهم لا يلعبون أدوارهم... انهم يسرقونها.
ـ سوف أجده.
ـ أنت لم تعد في معرض الاختيار، سبيلك الوحيد هو الحياة.
ـ سأنال منه.
ـ لن يمهلك.
ـ سوف أحاول حتى ولو دفعت حياتي ثمناً.
ـ حبي يحكم عليك بالعيش.
كان وجهه يقترب من وجهها، لا يحيط بها قدر ما تحيط به.

* * *

لأول مرة يرى صولاني الكولونيل مسروراً، وهويثني جاداً على حزمه وحنكته، مشيداً بدرايته في قمع المشاغبين، لقد أثلج صدره بالمبادهة الآنية التي أظهرها في تفريق تجمعات الطلبة لدى خروجهم من الجامعة، وتشتيت المتظاهرين عند النادي العربي مغلقاً في وجوههم زقاق الصخر ودخلة البحصة وبوابة الصالحية، دافعاً بهم الى سوقساروجة، ومقدرته الممتازة في تحريك عناصره من مكان إلى آخر، وكان جريئاً لكن أحمق عندما لاحق شراذمهم مع بضعة جنود مطلقاً الرصاص عليهم في أزقة سوقساروجة الضيقة.

ـ هل قتلت أحداً؟

ـ أعتقد أنني أصبت اثنين منهم.

ـ جراحهم خطيرة؟

ـ لم استفسر عن حالتهم.

ـ يجب أن تكون حذراً، لقد تعرضنا في الماضي الى كمائن عديدة في ساروجة بالذات.

استرسل مبدياً إعجابه بحميته، كان واضحاً أن صولاني أظهر جل مواهبه التي كانت مطمورة بعيداً في حمانا، وهي لم تعد مقصورة على مواهب رجل مشاكس بعد أن أضاف إليها سمات عسكري قيادي من طراز استعماري عملي.

غاص صولاني في مقعده منتشياً، ليس من مديح الكولونيل، بل بسبب زيارته الصباحية لبيت البحصة.. أدار المفتاح في القفل، وعندما استجاب له، أدرك أن رسالته التي كانت عبارة عن مفتاحين قد تسلمتها. توقع أن يعثر عليها في مكانها وكما تركها، البحرة أمامها والليوان خلفها، تحدق فيه وتبتسم.. ولا تولي بوجهها عنه، لكنه لم يجدها وانما رأى آثارها... الأحواض الندية، ولمعان الأوراق والرخام والزجاج... يد ناعمة ورخصة امتدت الى أرجاء البيت، بدت أرض الديار بتألق أشجارها وخمائلها، ساحة لقاء وادعة ومثالية، والقاعة العالية السقف والنوافذ، صالحة لجلسات مساومة هامسة ووعود متحفظة، والدرج الواصل الى الفوقاني، معبر صاعد الى غرف نزال حار.

تبسط الكولونيل في الحديث، مورداً عدة نقائص من سجل صولاني العسكري وسيرته اللاهية، وحذره من مغبة كونه ضابطاً في جيش الشرق وماجناً خليعاً في آن واحد، وإلا كيف يمكن تفسير تصيده امرأة ساقطة من ملاهي بيروت الرخيصة، أقل ما يقال فيها: إنها من مخلفات الجنود التونكينيين، أو قضاء الليل بطوله مع حاجبه يلعبان الورق، أو استدانته مبلغاً من المال من أحد أصدقائه الضباط ثم لا يعيده؟ إن تصرفاته باتت تثير الاستهجان والاشمئزاز لدى

رؤسائه، وربما أعاقت ترفيعه الآن، وحطمت مستقبله العسكري خلال فترة وجيزة.

كان الكولونيل يسعى كي يفهم صولاني، أمراً هاماً، إن مسحة من الصرامة والكبرياء المزيفة أو الحقيقية، ضرورية في التعامل داخل أوساط العسكريين والموظفين وحتى مع الأصدقاء، وأن عليه الاقلاع عن تلك المظاهر الاستعراضية الفجة، وألا يتصرف كغيره مفصحاً عن نواياه بشراهة وعلى نحو صارخ وفاجر، يستطيع أن يحصل على مايريده.. لكن دون شهود، وعلى ألا يخل بقواعد الانضباط العسكري وشكليات الاتيكيت، واذا كان الآن يحبو محاولاً التقدم خطوة خطوة، فباستطاعته فيما لو تفهم هذه الملاحظات وتقيد بها الصعود قفزاً.

لم يستوعب صولاني لِمَ كان الكولونيل متحمساً لارشاده ومتفانياً في توبيخه، تراءى له أن بوادر صداقة قد بدأت تنشأ بينهما، هذه الصداقة تملي على الكولونيل أن يلعب دور الناصح الأمين بإخلاص... وتجلى في لحظة خاطفة من حقيقة غامضة أن الإخلاص ليس من طباع الكولونيل أو خصاله الثابتة أو المستجدة. تغاضى عن سوء ظنه ولم يدر أنه في المستقبل عندما ستتاح له الفرصة والوقت لمعرفة الكولونيل معرفة حميمة، سوف يفهم ماخامره في تلك البارقة من الكشف الخاطف، ويتأكد من أن الكولونيل عندما يكون منشرح النفس والأسارير يطيب له أن يبدي لصغار العسكريين نصائح ثمينة وخطيرة بأسلوب شائق وطريف، مغفلاً تلك المسافة من الرتب والأوسمة التي تحجز بينهما، وهو يسترسل بحديثه مستمتعاً ومعنياً بالإصغاء الى تعبيراته الحادة، دون أن يلقي بالا لجلسائه، لذا... عندما تنبه الكولونيل الى مستمعه الصامت والمهذب، تبخرت متعته في الاستطراد... تذكر أنه لا يقيم وزناً للكابتن، وكي يغير مجرى الحديث، سأله عن سرحان.

أُخذ صولاني على حين غرة:

ـ من؟

ـ يوسف سرحان .

أحسن بالغيظ، كان الثناء والتوبيخ الرقيق يوشكان أن يضيعا هباء، أجاب بإقتضاب وقد خشي أن يفقد السمعة الخاصة التي أرسى دعائمها في الساعة الماضية:

ـ إنني في أثره .

ـ ربما هرب الى بيروت وسافر منها الى البرازيل أو الأرجنتين .

وإذ لم يحر رأياً، سأله الكولونيل :

ـ هل يبدو من صنف الشبان الذين يجدون متنفساً لهم في الهجرة؟

كان من المستحيل أن يزعم معرفة أمر ما عن هذا الرجل، سوى أن عليه أن يغور في العتمة التي ظهر منها واختفى فيها، ويحسن صنعاً فيما لو أخلى مكانه المظلم وهرب الى أبعد مكان في الدنيا، كبت التصريح عن أمنيته التي تفضح شح معلوماته واستقى من حدس غامض ويقيني .

ـ لا شك أنه ما يزال في دمشق .

حدق الكولونيل إليه بقوة، وأدرك صولاني أنه يحضّر سؤاله التالي عن الشخص الثاني. . . ولم يتأخر.

ـ وما هي أخبار الطبيب؟

بلحظة واحدة تمدد الطبيب بينهما، متشققاً ومتفسخاً، تفوح منه رائحة كريهة وواخزة، أراد تفسير سر فساد الهواء يقول له لقد تركنا الطبيب يتعفن، ملمحاً الى أنهما قد أساءا للطبيب في حياته ومماته، تردد، كان في هذه الصراحة جرأة لم يكن أوانها في هذه العجالة الخفيفة، اكتفى بأن قال آسفاً :

ـ أعتقد أنه مات .

استغرب الكولونيل وقال ساخراً :

ـ ولماذا يموت؟

وأعاد الى ذاكرة الكولونيل بعبارات مثيرة للشفقة، صيام الطبيب الاختياري والارادي، رثاه الكولونيل :

ـ لقد فقدنا صديقاً مثيراً للاهتمام .
كان عدم اهتمامه بخسارة الطبيب دليلاً على كسره لتلك الحلقة المغلقة والذي أكده دون حسرة أو مواربة .
ـ إنني أعتمد عليك كلية في موضوع سرحان .
على الرغم من الأهمية التي خلعها عليه والصلة الوثيقة التي باتت تربط بينهما، أحس بشعور غريب، عرفان بالجميل يكبر ويتعاظم نحو الطبيب الذي أخمد لغوه وأنفاسه بعد أن شارك عن جهل وبلا قصد في هذه المكانة التي تبوأها، شعور يهيب به أن يسدد دَيناً واضحاً يدفعه على هيئة تكريم علني للطبيب الذي عانى طويلاً من ضجيج وعواقب مشكلة نصفها من حقيقة ونصفها الآخر من وهم، وابتكر ميتتين فريديتين ومتعاقبتين، الروح ثم الجسد .
اقترح بحماس جناة مهيبة ومثيرة، وصفها :
ـ أن يحمل النعش على الأكف، تتقدمه سيارة عسكرية مغطاة بأكاليل الورد، يحيط به رتلان من الفرسان السباهيين بوجوههم السمراء اللامعة، وبرانصهم الفضفاضة وطرابيشهم الحمراء، يشقون الطرقات على مهل ممتطين خيولهم المطهمة والمزركشة، يصاحبهم درداب الطبول الحزين .
. . . ويحظى الطبيب بموكب رسمي تمناه عبثاً في حياته وظفر به بعد مماته .
ارتعش الكولونيل وكأن هناك من لسعه :
ـ لماذا؟! ما الذي فعله؟!
صدم صولاني من غضبة الكولونيل، الذي نهض من مكانه ثائراً، مهاجماً الطبيب دون هوادة، مصراً على محوه تماماً!! ومحتجاً بحرارة :
ـ لقد ضللني لفترة طويلة .
وأتبعها محللاً آلية التضليل الذي مارسه الطبيب منذ اللحظة الأولى التي عرفه بها .
ـ لقد قدم نفسه على أنه طبيب متخرج من باريز .
لم يفهم صولاني شيئاً، علق في سره . . . وماذا في ذلك؟!

ـ اتـدري أن صاحبـك ليس بطبيب، وكنت في سبيـلي إلى أن أسنـد إليـه منصب طبيب في وحدات الأقليات وأعده لمنصب مرموق في إدارة الصحة.

صعق صولاني وتبخر كل شيء من رأسه.

ـ البارحة أعيدت أوراقه من باريز مع رد يوضح عدم قبول تعيينه، ان المدعو حسن حكمـة لم يحصـل على شهادة طبيب، إذ لم يغامر أستاذ واحد في كلية الطب بإعطائـه شهـادة تخولـه ممارسـة المهنة، سبع سنوات أمضاها في باريز متسكعاً بين عنـابـر المرضى وأروقة الجامعة والمنتديات والملاهي، وعاد إلى دمشق ليفرض على الناس لقباً لم يحصل عليه.

ردد صولاني دون أن يعني كلمة مما يقوله:

ـ هذا مستحيل... هذا مستحيل.

ـ هل تستطيع أن تدلني على شخص واحد يعرف هذه الحقيقة؟

خرج صولاني من صعقته بكلمة واحدة:

ـ كلا.

ووضَحَ له دون تفكير أن الرجل الذي لقب نفسه بالطبيب قد غرر بهما، كل على حدة، وأن العقـاب الـذي أوقعـه الكـولونيل عليه لم يكن قاسياً وإنما عادلاً، وأراد أن يكون صادقاً، ووافقه صاغراً:

ـ وأنا أيضاً ضللني طويلاً.

ورفض فكرة أن يعرج على القرماني في طريق عودته، وما الذي بقي منه؟ ذكـرى متراجعـة، وجسـد ميت أوعلي وشك الموت؟ وهل يستطيع مدعي الطب أن يقاوم موته لاسبوعين... لاشك أنه فارق الحياة وأودعه جيرانه حفرة ما.

* * *

- ١٧ -

لدى عودة بيو إلى دمشق ألقى خطاباً من الإذاعة، أعلن فيه عن تمسكه بالمعاهدة، على أن يدخل عليها بعض الإضافات لتتمكن الحكومة الفرنسية من عرضها على البرلمان!! . . . ونكث المفوض السامي وعده.

في اليوم التالي أجاب نصوحي البخاري في اجتماعه مع بيو على خطابه الإذاعي، بأنه قبل مهام الحكم على اساس إبرام المعاهدة كما هي، ورفض الدخول في اي بحث حول الاضافات التي يتطلبها الجانب الفرنسي او الاطلاع عليها، انسحب مع أعضاء وزارته، ورفع استقالة حكومته إلى رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي.

أرغم رئيس الجمهورية، رئيس الوزراء المستقيل نصوحي البخاري على البقاء في الحكم ريثما يتمكن من إيجاد خلف له، فيما أكد النواب خلال اجتماع المجلس النيابي إصرارهم مجدداً على معاهدة من غير تعديلات او إضافات أو ملاحق، واستطاع رئيس الجمهورية اقناع عطا الأيوبي بتشكيل الوزارة، في الوقت الذي لم تكن فيه شخصية سياسية تطمع برئاسة حكومة مهمتها أن تدافع عن نفسها ضد الجميع، وتمرر في عهدها وباسمها كل التنازلات التي لا يمكن التنازل عنها، وتكون مستعدة على الدوام لتلقي طلقة الرحمة من دون رحمة.

سألته ست الشام:

ـ لماذا المعاهدة دائماً؟!

شرح يوسف لماذا لم تعد المعاهدة أمانا أو وقاية . . . هذه النصوص المكتوبة لا تعني سوى المناورات، اما المطلوب فهو تجميع وتوحيد قوى سورية وتحريكها ضد الافرنسيين بجميع الأشكال المتاحة، خلق حالة خطر لا يستطيعون تجنبها او تجاوزها، عندئذ تصبح المعاهدة أهون الشرين، أما الآن فلن ينقذها الكلام في حال التلويح بالقوة.

خلت الساحة السياسية من الكتلة التي رفضت المشاركة في اية تركيبة وزارية، فيما خاب أمل الشهبندر في إضافات بيو وانصرف إلى نشاط هادىء في الهيئة الشهبندرية، وأخفق عطا الأيوبي رئيس الوزراء المكلف في مهمته، أما رئيس الجمهورية فلم ييئس، ولم يقبل أن تبقى البلاد دون حكومة وطنية تتصدى للمخططات الافرنسية، واقنع نسيب البكري بتشكيل الوزارة.

. . . وكان ما تسرب من أخبار من المفوضية الافرنسية، كفيلاً بإحباط تشكيل أية وزارة، المفوض السامي لم يعد يشير إلى معاهدة بإضافات وإنما الى معاهدة يتفق بشأنها فيما بعد!!

وأصبحت القضية الراهنة لدى المفوض هي قيام إتحاد بين المناطق السورية المختلفة، والحاجة إلى الأحزاب القديمة المعتدلة وخاصة في الشمال.

ـ ما الحل؟!

زفرها كريم مقهوراً، وأطبق صبحي فمه عاجزاً عن الكلام . . . لماذا يتوارى الشهبندر هادئاً في هذه الأوقات اليائسة!؟ وقال يوسف:

ـ أين نجد لأنفسنا مكاناً؟

من الجامعة والجامع الأموي ظهرت لجان الطلبة المنتخبة وهم في أوج حماستهم، يوالون اجتماعاتهم ويصدرون منشوراً جديداً كل يوم «يجب إنقاذ سورية، نحن حملة مشاعلها وفدائيوها»، مطالبين رئيس الجمهورية بتجاوز المجلس النيابي وتأليف وزارة تمثل الوحدة السورية، ونشطت مكاتب الكتلة في

دمشق والمحافظات، مصدرة النشرات حاثة على العمل السلبي المنظم . . . عمل سلبي مؤثر يقتضي تضحيات كبيرة.

لم تكن بارقات حياة وإنما محاولات يائسة، بقيت طي البيانات والمنشورات دون عصيان ومظاهرات واضرابات، روتين من الرفض والاحتجاجات والانتقادات العنيفة، وكل ما يطفو يأتي متأخراً وبلا طائل.

قال يوسف لست الشام:

ـ لقد قدر علينا أن نشهد الأفول الطويل لتوهج خاطف.

كانت الأنظار معلقة على رئيس الجمهورية وهو يحاول عبثاً أن يردم الشرخ بين الأحزاب والهيئات والشخصيات المستقلة، وظلت هناك حكومة لم تُقبل استقالتها تقوم بتصريف الأعمال الادارية في انتظار حكومة لن تتشكل.

بينما المحادثات الرسمية وشبه الرسمية والسرية تدور بين وزير خارجية تركيا رشدي آراس ووزير خارجية فرنسا جورج بونه . . . تركيا تطلب من فرنسا انهاء الوضع الخاص للواء اسكندرون ومطالبة به بحجة أنها لا تستطيع القبول باستمرار هذا الوضع عندما تتخلى فرنسا عن انتدابها، مسلمة السوريين بموجب المعاهدة إدارة شؤون بلادهم بما فيها اللواء!! وكانت نتيجة المباحثات قبول فرنسا بضم اللواء لتركيا بتعضيد من انكلترا لضمان وقوف تركيا إلى جانب دول الحلفاء في حال نشوب حرب، وكي تطمئن سلطات الانتداب إلى عدم تحرش الأتراك بهم في الشمال، متجاهلة التعارض الواقعي مع نص المادة الرابعة من صك الانتداب «تتحمل الدولة المنتدبة مسؤولية أن لا يجري التنازل عن أي جزء من أراضي سورية ولبنان أو تأجيره أو وضعه تحت سيطرة دجول أجنبية بأي شكل من الأشكال».

وتصاعدت الانتقادات الحادة من داخل فرنسا على هذا الحدث الغريب في التعامل الدولي.

«إن أية إدانة أخلاقية غير متحفظة إزاء تجاهل مطالب السوريين مقابل صداقة تركيا، ستبدو ردة فعل بالغة التبسيط أو ردة فعل غير مناسبة».

في الـوقت الـذي أذهل الخبر الجميع ، خرجت مظاهرات النازحين من لواء اسكندرون ، ولم تخرج الأحزاب والهيئات من ذهولها .

بينما شارك الأصدقاء الثلاثة في المظاهرات وهم يشعرون بمسؤوليتهم إزاء هؤلاء الذين يهتفون معهم .

. . وعاد بيو إلى باريز ثانية لاجراء المشاورات مع حكومته

* * *

في الجانب الآخر . . . كانت سورية قد خرجت من دائرة الأزمات ودخلت إطار مسرح عمليات الشرق الأوسط ، وخيم ظل الحرب على المفوضية والثكنات والمستشفيات والادارات التابعة ، وفي الأركان انكب الضباط فوق خرائطهم المرمزة يبدلون مواقعهم بالدوائر والسهام الملونة ، يتنقلون من الدفاع إلى الهجوم تارة ومن الهجـوم إلى الـدفـاع تارة اخـرى، وينسقـون جاهـدين بين أخبـار الاذاعـات والتعليمات السرية وشيفرات البرقيات اللاسلكية .

كانت الاستنتـاجـات والتحذيرات متواترة ومتآزرة . . . الخطة التي وضعتها هيئـة اركـان حرب هتلر لاحتلال بولونيا ، لم تعد حبيسة التلميحات والتهديدات ، وإنما أصبحت في سبيلها الى التنفيذ بانتظار الفرصة السانحة والتوقيت المناسب ، مصـانـع التسليح الألمـانيـة تدور هادرة ليل نهار، منتجة آلاف المدافع والدبابات والطـائـرات والسفن الحربية ثم تلفظها على عجل نحو الجبهات ، موسوليني على الـرغم من تردده سوف يحذو حذو هتلر، أمـا المفـاوضات الفرنسية والانكليزية مع روسيا لضمان الجبهة الشرقية فهي تتلكأ متعثرة، في حين بدأ التقارب الروسي الألماني .

. . . وسورية لم يعد لها أي دور إلا على أنها إحدى ساحات القتال المتوقعة التي يجب تعزيزها بجنرال وجنود وأسلحة .

لذلـك توقـع صولاني أن تكـون تعليمات الكولونيل متشددة وعصبية ، لكن كان للكولونيل رأي آخر وتعليمات متخاذلة ! ! !

- سنكتفي بالتهديد ونحاول جاهدين ألا نصطدم بالسياسيين.

حملق صولاني مدهوشاً.. لم تكن التعليمات في مستوى الحرب المقبلة، وأوضح الكولونيل:

- إن فرنسة لا ترغب في فتح جبهة مشاغبات في سورية، إن الضرورة تملي علينا المحافظة على جوهر خلافاتنا وابقاءها ذات طبيعة سياسية ومسالمة، على أن نسبقهم دائماً ونضعهم أمام الأمر الواقع.

لم يكن الأمر على عكس ما توقع فقط، بل كان يحمل أيضاً شبهة ضعف محيرة، فبدلاً من أن يطلب منه سحق أي تحرك مهما صغر بعنف وقسوة، يأمره بغض النظر عن المظاهرات والتساهل في قمعها.

أحس الكولونيل بالحرج من عيني الكابتن الجاحظتين، وقد أعاد إلى ذاكرته أمرين... سلخ لواء اسكندرون عن سورية، وأن هذا الكابتن، الضابط في جيش الشرق هو سوري النشأة، وعليه أن يبادر سريعاً ويجامله قليلاً، مستعيراً من مقالات الجرائد الفرنسية، شعوراً بالذنب هذا أوانه.

- إنه تنازل يؤسف له، ونحن لا نعفي أنفسنا من المسؤولية الأخلاقية، لكن إزاء هذه الأحداث الخطيرة والمتسارعة لم نكن مخيرين، لقد اضطررنا إلى التضحية بسورية ضعيفة من أجل كسب حرب قد تشمل العالم كله.

انتظر جواب صولاني الذي تباطأ أكثر مما ينبغي في الإعراب عن رأيه. تابع الكولونيل وقد وجد أن حيرة الكابتن وهي تمتد دون جدوى تتيح له أن يدلي برأيه المتحرر من النزاعات الاقليمية.

- إنها قطعة أرض، يستطيع سكانها دون كثير من العنت والصلف، والعنجهية القومية أن يعيشوا تحت ظل سيادة ما.

ظن صولاني أن الكولونيل يتحدث عن بولونيا، مبرراً أسباب تقاعس فرنسا في الدفاع عنها، لكن كان الكولونيل يتحدث عن سورية ضعيفة وليس عن بولونيا ضعيفة. سارع صولاني وقد ارتد الى الواقع الذي يعيش فيه، ووافق الكولونيل في أنه لا يمكن المقارنة بين دانزينغ واسكندرون.

أعجب بملحوظة صولاني وهو يؤكد على التعارض بين أوضاع اوربا القائمة ومصالحها في الشرق الأوسط . . . في هذه البلاد التي لم تتكوّن بعد ولم تأخذ صيغتها النهائية والواقعية ، هذه الملحوظة جعلته ينتقل إلى الاستعدادات الجارية للحرب ، ويطلعه على الأنظمة الحربية التي ستطبق على سورية ولبنان .

ـ منع نشر الأخبار العسكرية واستخدام الشيفرة ، التحكم في شبكة المواصلات وحظر تصدير بضائع معينة ، ثم تخويل الجيش صلاحية إيواء الجنود في بيوت المواطنين .

وختم حديثه متوجهاً هليه :

ـ في المستقبل سوف تضطلع بمهام أكبر .

تشاءم صولاني . . . إلى أية جبهة سوف ينفيه ، لكن الكولونيل لم يطح به بعيداً ، بل دفع به إلى الأمكنة التي تقع على مرمى حجر ، وحدد له مهمة واحدة من المهام التي ستوكل اليه .

ـ نظراً لمعرفتك بدمشق وسكانها ستقوم بمصادرة بعض البيوت لصالح الجيش عندما تدعو الضرورة لذلك .

كان من العسير على صولاني أن يخفي فرحته العارمة ، وقد قدم له بيت سرحان على طبق من الأنظمة ، لا . . . لم يعد تسلله إلى البيت نزوة تمارس سراً ، وإنما إجراءات احترازية تلغي عمل القوانين ، وضرورات حرب . . . وحالة حرب لن تنتهي أبداً .

* * *

لم يعن أحد بانتظار بيو سوى شخص واحد ، رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي . . . الرجل الذي لم يكل ولم ييئس حتى بعد أن اخفقت مساعيه في تقريب وجهات النظر بين الشخصيات السياسية ، واعتذار رئيس الوزراء المكلف نسيب البكري عن تشكيل الوزارة .

استمهـل رئيس الـوزراء نصـوحي البخـاري بالـتريث، ومن القصـر الجمهـوري أخـذ يستطلع أخبـار بيـو الـذي وصـل إلى دمشق حاملاً إعلاناً بفك ارتباط محافظتي الاسكندرونة وجبل الدروز عن الحكومة السورية، كانت تلك هي نتيجـة مشـاوراته مع حكومته في باريز. . . صلاحيات مطلقة لاتخاذ وتنفيذ ما يراه منـاسبـاً، كان هذا إقـراراً وتمهيداً بضم لواء اسكندرون نهائياً إلى تركيا واكتساب مواطني السنجق الجنسية التركية.

لم يعـد هنـاك من جديـد، ولن ينتظر رئيس الجمهورية أحداً، قبل استقالة وزارة نصوحي البخاري وطير برقية احتجاج إلى باريز، ثم أرسل كتاب استقالته إلى رئـاسـة المجلس النيابي، «لقد أخلف رجالات فرنسا وعودهم وذهبت ضياعاً تلك الآمال».

في الـليـل حاول رئيس المجلس النيـابي فارس الخـوري، إيجـاد مخرج دستوري كي لا تبقى البلاد دون حكومة، استنبطه من المادة ٨٤ التي تنص على قيـام مجلس الـوزراء بمهـام السلطة التنفيذية عند خلو منصب رئاسة الجمهورية، وبـما أن الـوزارة استقـالت ولم تقبـل بالصورة الدستورية الواجبة، واستقال رئيس الجمهورية دون أن يصدر مرسوماً بذلك، لذلك يجب عودة الحكومة المستقيلة إلى العمل ريثما يبت المجلس النيابي بموضوعها.

في اليـوم التـالي أعلن نصـوحي البخـاري أن استقـالة حكومته لم تقبل وأنه سيتقدم الى المجلس النيابي بإعلان ما تم معه، ويتفاهم مع النواب على ما يجب عمله تجاه موقف الافـرنسيـين وخاصة اقتطاع لواء اسكندرون، وعاد الوزراء إلى السرايا يمارسون أعمالهم بعد انقطاعهم عنها، ودعي مجلس النواب لعقد دورة استثنائية.

في مسـاء اليـوم ذاتـه، وحد النواب صفوفهم وأعدوا القرارات التي ستتخذ ضد الفرنسيين، بات الأمر سباقاً. . . إلى أين؟! . . . وعاجلهم المفوض السامي وأصـدر قراراً مستنـداً إلى استقـالـة رئيس الجمهورية يقضي بوقف دستور الدولة السورية، وحل مجلس النواب على أن يحدد فيما بعد تاريخ الانتخابات الجديدة،

ويعهـد بتأمـين السلطـة التنفيـذيـة إلى مجلس مؤلف من مديـري المصالح العامة برئاسة مدير الداخلية وتحت مراقبة المفوض السامي .

* * *

- ١٨ -

بات لصولاني عاداته وشعائره . . . عندما يروق البال وتطيب الخواطر، تجمح النفس إليها، يقصد البحصة ويسكن إلى مأواها، يتلمحها في الفضاءات الصغيرة، المثالية والمثيرة، دون أن يتوسل الخيال أو يوسط الأشياء، واثقاً من أن السكون الذي يخفيها، يتمزق عنها، والظلال التي تسترها، تفضحها.

يلاحقها من الدهليز إلى المشرقة، لا يحصي كم درجة قفز، وكم درجة سها عنها، تغلق باب غرفة النوم وهي تغير ملابسها، تستظل تحت شجرة الأكيدنيا، ومن المطبخ يسمع قرقعة الطناجر وصحون الشينكو.

كان وقد رصد سريانها الخاطف وهجوعها الحالم، أنفاسها فوق الوسائد، ولمساتها على المسابل، وقع قدميها الحافيتين على البلاط، وسوسة حليها ومسخ حركاتها، وملامحها على المرايا . . . يتلصص على وجودها وجهاً لوجه.

كانت ملاءاتها وأثوابها، أرواب نومها وسراويلها، أمشاط شعرها وحليها، مسواكها وحجر حمامها، تجعله يألفها أكثر من روحه، وتلتصق به أشد من جلده، أكلّ هذا القرب ولا تقترب؟!

يتوق إليها ويخشى من ظهورها . . . أن تكبح تداعياته الطليقة التي تتحقق، أن لا تتحقق بالقسر. أن يتقدم وتتراجع.

كان وهـو يغلق غرف الـرجـل بالمسامير لا يحول بينها ولا يبعده عنها، وإنما يمحو ماضيها معه، مروضاً همساتها وإيماءاتها له وحده.

سيفـاجئهـا . . . وهي ترتب خزانتهـا وأدراجهـا، تشعـل موقد الكاز، تجلو الصحون، تنفض السجاد، تمسح البلاط.

تجيء في الأسبوع مرة، تأتي قبل غياب الشمس، تسقي الطين والنبات، وتذهب بعد غياب الشمس، تحدد موعداً للقائهما. . . في ذلك اليوم يتردد، يعلو وجيب قلبه، ويحجم مؤجلاً موعده معها.

في تلك الرقعة السخية، تتبرعم بدايات لحياة معجزة من الوصل، دفق من المباهج وفيض من المتع، حياة تتشكل من اثنين لا ثالث لهما، من اثنين لم يعد هناك سواهما.

. . . عندئذ برز ثالثهما!!

أعقـاب سجـائـر مرمية على أرض الليوان. . . نفايات الرجل الذي طمره مع أشيائه وأوصد عليه أماكنه.

طغى زنخه وأطفأ أريج الروائح الفواحة، انتفض من سكرته وحنقه وانقض على فراشهـا يتشمم رائحـة نومهـا، شهيقهـا العميق وزفـيرها الطويل، تنهداتها الملولة وأحلامها الدافئة.

لم يلتقط أنفاس الرجل ولا رائحة جسمه. . . كيف حدث هذا من دون أن يدنس ملاءاتها، كيف توجد آثاره الدامغة على بلاط الليوان؟! تحرمه من جسدها وفراشها، وتسمح له بالتدخين؟! هدأت ظنونه ووساوسه. . . لكن الرجل اقتحم عالمه، يشاركه فيه وفيها.

* * *

في هذه المـرة لم يخلف موعـده، أدخـل الجنـود السنغـال ووزعهم في مربـع الدهليز والقاعة والصاليا، وكانت تعليماته للأجودان:

ـ حافظـوا على الهـدوء التـام، إشـارة البـدء هي رصـاصة في الجو، عندئذ تظهرون وتجهزون على الرجل بالحراب وأعقاب البنادق.

وأكد منبهاً:

ـ الرجل فقط.

ترددت الجملة في صدره مؤلمة، هل تكون معه؟ إذا جاءت فسوف يحجبها عنه وينقذها من مشهد موته.

عبر زجـاج نافـذة الصاليا، لاحت الشمس وهي تنسحب من أرض الديار وتتحلل على الجدران العالية، الوهج يبهت والفيء يتمدد على البلاط، النسائم الـرقيقـة تنفـذ عبر الشقـوق، الخمائل تتقارب متهدلة والأشجار تتمايل أغصانها، العصـافـير تتقافز وخرير المياه يعلو، بدت الخلفية الخضراء، المسترخية والوديعة، غير صالحـة كي يديـر على صفحتها مشهد القتل الضاري، كانت مواتية لصحبة أنيسـة وحميمـة مع امـرأة واسعة العينين، ذات أنف دقيق رسم تحته فم شهي، قد عرّت نحرها وذراعيها، يسترقان النظرات واللمسات، كاد أن ينغمس في المشهد المغري بالشم والضم، لولا انه سمع أطيط الباب وهو يوارب.

تموج ظلام الـدهليـز عن خيـال رجـل يتقـدم الهـوينى، رجل محني الرأس متهـدل الأكتـاف، وضع صولاني يده على خصره تلمس المسدس، توقف الخيال عند عتبة الدهليز، ثم ظهر. . . تراجع صولاني مبهوراً. . . كان الرجل الذي لا يمكن له أن ينسـاه أبـداً، الـرجـل الـذي انتحل شخصية طبيب طوال سنوات، الـرجـل الـذي مات!!! قد نفض عنه التراب وعاد من الموت وأشرف على المكان بنظراته الساهمة.

تقدم صوب الليوان، جلس على كنبة في الجانب الأيمن، عقد يديه وشرد بعيداً في عتمة الدهليز. . أحس صولاني بالغبن من حماقة الأسرار التي تكشفت، والمكيدة السخيفة والتافهة التي جرت دون تدبير من وراء ظهره، الطبيب هو الذي سرق المفتـاحـين، وتردد على البيت أثناء غيابه، غمغم مخذولاً. . . هذا الرأس

الأجوف لا يستحق رصاصة واحدة، يكفي أن ينتزع المفتاحان منه ثم يركله على قفاه.

أشعل الطبيب سيكارة أخرى دون أن يحول بصره عن الدهليز، وكاد أن يحرق أصابعه، تساءل صولاني... هل ينتظر أحداً؟! وجد نفسه يجيب... ينتظرها. كيف فاته الأمر والطبيب يشعل السيكارة تلو الأخرى ريثما يحل موعده معها؟! يبعثر أعقاب سكائره فوق الأرض وهي على مرمى بصره... تشطف الديار وقد ظهر مفرق ثدييها وعري فخذيها.

حدق فيه بقوة وقد خيل إليه أنه يبتسم، أمعن النظر... لم يكن يتخيل... كان وجهه قد افتر عن ابتسامة عريضة، ويداه ترتجفان، وعلا صوته ملهوفاً، أجال صولاني بصره في أرجاء الليوان، مع من يتكلم؟ لم يكن هناك أحد... عدا الطبيب المزيف، وحيداً، يلغو لاهثاً وهاذياً، ملامحه تتجعد، يرغي ويزبد، يتوسل ويرجو ويلحف بالاشارات دون جدوى، يخفي وجهه بين يديه، يرفع رأسه... كان يبكي!! لم يتخلف صولاني عن الطبيب وفسر ما حدث... جليسه الخفي لم يقبل بأعذاره..

تراجع الطبيب بجذعه، الغم على ملامحه والدموع على وجنتيه، وبدلاً من أن يغمى عليه ويسقط أرضاً، عاود الكلام دون توقف وهو يدور ويلف بلا كلل أو ملل، فيما كان جليسه الخفي ضجراً منه، لا يلقي أذناً صاغية إليه.

غاب متابعاً المحاورة الشاقة واليائسة عن صوت الباب وهو يفتح ثم يغلق، حتى إنه عندما رأى الرجل يظهر في الليوان، كاد أن يقول إن الطبيب قد صنع هذا الرجل من لغو وحمى، لكنه تذكر أن آهات الطبيب وعبراته لا تحوك رجلاً وإنما امرأة.

لذا بدا الرجل حقيقياً وكاملاً، ولم يساوره الشك فيمن يكون، إنه يوسف سرحان، بهيئته ذاتها عندما واجهه في الظلام، وخلفه كراج الصفدي.

توجه سرحان من فوره الى الطبيب، غاضباً يلوح بقبضته، مهدداً وثائراً في وجهه، والطبيب صامت، حازم وكئيب، لا يلقي بالاً إليه. حاول صولاني فهم ما

يجري وما الاتفاق الذي خرق بين سرحان الذي يكاد من حنقه أن يفقأ له عينيه، والطبيب الذي لم تهتز شعرة منه.

... كان هناك عدم اتساق على الرغم من الليوان الذي يجمعهما، يؤكده الطبيب بإنصرافه تماماً عن سرحان، معلقاً عينيه على الدهليز وهو يشعل سيكارة، وسرحان قد أسقط في يديه، يبتعد عنه، يخلع حذاءه، ويرفع ساقي بنطاله!!

عندئذ أدرك ما غاب عنه للحظات.. الطبيب يرى الأشباح ويشكوهمه للجمادات، ولا يبصر رجلاً من لحم ودم، وهذان الاثنان تلاقيا دون موعد، وكل منهم لديه مفتاح قدمه هو لهما، وهنا... هنا في هذه الباحة، تنضج حياة سرية، لصقه وفي غفلة منه، تحت غلالة من الشروق المكتوم والغروب المعلن، بين انحدار الشمس وارتفاع الظل، في صفاء الورد وكدر الشوك، تحف بها يبوسة التراب ورطوبة الماء، حياة ينسجها دهاة المجرمين وأفذاذ المجانين.

... سرحان يرش البلاط والأحواض بالماء، والطبيب يتابع انتظاراً دون ملل.. انتقل صولاني إلى الشباك المطل على الديار، سرحان يسقي حوض شجرة الليمون ويرشق أغصانها وجذعها بالماء، سرحان يسكب الماء في أصص الأوراق الخضراء، سرحان ينتقل إلى حوض الياسمين... اللحظة المواتية تقترب وسرحان يبتعد عن الدهليز معبر النجاة.

تخلى عن خطته... لن تكون الرصاصة الأولى اشارة البدء، بل ستكون من نصيب سرحان، دفع باب الصاليا وخرج شاهراً المسدس.

تواجها... سرحان يغرف الماء بالسطل من البحرة، وصولاني قد سدد فوهة مسدسه اليه، نحو صدره وفي القلب تماماً.

أحس انهما سقطا ثابتي الجنان في عالم واحد، تسعى فيه الحياة والموت دونما حدود وفي آن واحد، وقفا في تلك الفاصلة التي اتسعت لصلة حميمة توطدت... من كراهية وتلصص، صلة اتصلت وهي على وشك ان تنقطع، تبادر إلى ذهنه انه يرى ملامح وجه سرحان لأول مرة ولآخر مرة... وجه لا ينسى، في عينيه يلمع بريق غضب قاهر... ومقهور.

. . . وأطلق النار.

لم يستوعب ما حدث تماماً، ما أدركه . . . أن الرصاصة طاشت في الهواء وسرحان لم يهو على الأرض. . . أخطأه على الرغم من المسافة القصيرة الفاصلة، البحرة وكومة أصص خضراء، تاه عنه السبب. هل هو شواظ النار المندلع من العينين المتقدتين كالجمر أم سرحان وقد رماه بالسطل الممتلىء بالماء؟

ماالتقطه من المنظر المبلل بالماء والمشعشع بقرقعة السطل. . . اختفاء سرحان في طلعة الدرج وتزاحم السنغال على الأبواب وتبعثرهم في الديار، مشهرين حرابهم، يزمجرون وهم يتوجهون نحو الرجل الجالس في الليوان وقد ظهر متهضم الوجه يرسل شجناً رتيباً، حال صولاني بينهم وبينه وهو يصرخ كالمجنون أن يلحقوا بالآخر الذي يقفز على الدرج حافي القدمين. .

اندفع الى الفوقاني، وجال في غرفه، لكن لم يكن هناك أثر لسرحان، تابع إلى المشرقة والسنغال يتبعونه. وجد سلماً خشبياً مسنداً إلى حائط الجيران، أدرك وهو يتسلقه كم أضاع من وقت وهم يفتشون الغرف فيما سرحان يجتاز الأسطحة وثباً، اعتلى سطح الجيران، لحقه الأجودان ووراءه السنغال.

مسح بعينيه المدى. . . كان الغروب يطبق على الأفق، الأسطحة المتصلة بعضها ببعض. . . دروب ممهدة ومفتوحة.

أشار الأجودان بيده بعيداً:

ـ هاهما.

تساءل مستغرباً:

ـ من هما؟!

تابع الأجودان:

ـ رجل وامرأة.

ـ. . . وامرأة؟!

انثنى مذعوراً إلى نفسه، ولم يتجرأ أن يرفع رأسه، سأل وغصة توازي الموت تعتصره:

ـ ما الذي يفعلانه؟
ـ يجريان. . . لقد تعثر. . .
تصلبت ملامحه وشد على أسنانه، واعتقد أن الأجودان يتباطأ عمداً، صرخ:
ـ ثم؟
ـ تمد يديها اليه، تنهضه وتمسح وجهه.
كاد أن يختنق.
ـ وتساعده في اعتلاء الحائط.
رفع رأسه حانقاً، مد بصره، ورأى الغسيل المنشور والحبال المشدودة وصواني مربى البندورة، الحيطان المنخفضة وذؤابات الأشجار. . ودوالي العنب. . . ما عداهما!! ما الذي يعنيه كل هذا؟! ان لا يرى ما يراه غيره. . . إن الأجودان يتخيل. . .
كان الأجودان يسأله:
ـ هل نطلق النار؟
التفت اليهم، كانت العيون وفوهات البنادق مصوبة. . .
أليست مهزلة؟! عليه أن يحزم أمره، فتح فمه. . . لكن ماذا لو اجترح الخلاء امرأة لن تكون إلا هي؟! وماذا لو أصابوها؟! أمرهم بصوت قاطع:
ـ لا تطلقوا النار.
ثم تابع بحرص:
ـ أين أصبحا الآن؟
ـ فوق أسطحة البحصة البرانية، على مقربة من المئذنة.
تراجع صارخاً:
ـ انهما يتوجهان إلى جامع الطاووسية.
كلا. . . لن تتكرر حماقة المطاردة الأولى، هبط مسرعاً، وعندما ركض في لديار كاد أن يصطدم بالرجل الذي أنهى محاورته وشجونه وهو يزرر جاكتته متجهاً

نحو الدهليز، توقع أن يطلب منه مرافقته، مد يده وأراد تنحيته عن طريقه، لكنه أفسح له الباب بهدوء وتجاهله، تفاءل وهو يمتطي السيارة وحيداً وينطلق كالنار إلى البحصة البرانية، أوقفها عند الجامع، عَبَرَ باحته وخرج من الباب الخلفي.

بدا الشارع بضوضائه الخافت وأنواره المترامية من فوانيس جسر فيكتوريا، وكأنه يتراجع إلى العتمة كاتماً جلبته... السابلة يغذون الخطا مسرعين قبل أن تبدأ ساعات منع التجول، سينما روكسي تطفىء أنوارها، مقهى البرازيل يغلق أبوابه، وأصحاب المحلات ينزلون أغلاق محلاتهم على عجل، وترام مرجة - مهاجرين ينعطف إلى زقاق الصخر صوب شركة الترام للمبيت، فيما سيارة رينو منطلقة باتجاه بوابة الصالحية، وعربتا خيل، الأولى تستدير نحو ساحة المرجة، والأخرى تتابع سيرها إلى محطة الحجاز.

* * *

موزاييك دمشق ٣٩

دمشق . . . أواخر الثلاثينات .

مدينة تتقاسمها الأهواء والنهم ، مفتوحة للساسة وعسكر جيش الشرق .

موزاييك من أشخاص ورؤى ، تمنيات واحباطات .

. . . و«ست الشام» الامرأة ذات الوجهين والقَدَرين ، ترمي بظلها على تخريمات من عاج وصدف ، وزخرف من موت ولهو ، متواليات من الهوى الممسوس والأسلحة ، الاخلاص الأعمى والقتل ، تتلازم في ذلك الظهور الخاطف والاختفاء الطويل .

الناشر

السعر ١٢٥ ل . س